سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد التاسع

سلسلة

القصص القرآنى



دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي　　د. عبد الحميد مصطفى

المجلد التاسع



الصَّحِيفَةُ الظالمة

- تفكير في المقاطعة .
- من الأسباب الداعية للمقاطعة .
- الوفد الحبشي .
- إسلام ضماد الأزدي .
- كتابة الصحيفة وإيداعها جوف الكعبة .
- النبي يدعو النجاشي إلى الإسلام .
- الهجرة الثانية للحبشة .
- دخول الشعب .
- القرآن يقرع الكفار .
- ما نزل في شأن النضر بن الحارث .
- عبد الله بن الزبعرى وموقفه من النبي .
- ما نزل في شأن الأخنس بن شريق .
- أبو جهل يستهزئ .
- قصة الغرانيق ونقدها.
- نقض الصحيفة ، ووجه الإعجاز في تآكلها .
- تأملات في أحداث المقاطعة .

الصحيفة الظالمة

لما رأت قريش أن أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخذ يستقر ويثبت .. وأن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وجدوا هناك مأمنا ومستقرا ، وأن أحد صناديدهم الذى كانوا يعتدون به ويعتبرونه خصماً ألد وهو عمر بن الخطاب قد أعلن إسلامه بعد أن سبقه حمزة إلى ذلك ، بل ووقف فى معسكر محمد متحديا لهم ، مشجعا غيره من المترددين على أن يتخطى حاجز الخوف فيقول فى صراحة وقوة : لا إله إلا الله محمد رسول الله .. وأصبح هو وحمزة بن عبد المطلب يقفان بالمرصاد لكل من تسول له نفسه من المعارضين للدعوة أن ينال منها أو يهاجمها ..

لما رأت قريش ذلك ازداد غيظها ، واشتد قلقها ، وعظم خوفها من أن يستفحل خطر هذه الدعوة عليهم فتزلزل الأرض تحت أقدامهم ، وتذهب بمكانتهم إلى الأبد .. فأجمعوا أمرهم على أن يكتبوا فيما بينهم كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب الذين يدافعون عن الرسول : ـ فلا ينكحون إليهم ولا ينكحونهم ولا يبيعون لهم شيئا ولا يبتاعون منهم ..

وكان من الأسباب التى جعلتهم يتعاقدون على ذلك ما رأوه من أن الإسلام أخذ أمره يشيع لا فى القبائل العربية فحسب ، بل تعدى ذلك إلى خارج البلاد . حيث بدأ الأحباش يعرفونه ويقبلون عليه ، ويتعرفون أمره ، وتأتى بعض الوفود منهم لمقابلة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاستماع إليه ..

من الوفود الحبشية

ذكر البيهقى فى كتابه قال :

.. قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمكة عشرون رجلا من

النصارى . وذلك حين ظهر خبره فى الحبشة ، فوجدوه فى المجلس عند الكعبة فكلموه وسألوه ، ورجال قريش فى أنديتهم حول الكعبة .

فلما فرغوا من مسألتهم وأجابهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أرادوا ، دعاهم رسول الله إلى الله ـ عز وجل ـ وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا من عنده اعترضهم أبوجهل فى نفر من قريش . وقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، فتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ؟ ما نعلم ركبا أحمق منكم ـ

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألو أنفسنا خيرا[1] .. وفى هذا نزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وقال بعض العلماء : إن هؤلاء الوفد كانوا من نصارى نجران .. ولئن كانوا من نجران فقد بلغهم أمر الإسلام عن طريق الحبشة لما كان من صلة

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى جـ٢ ص٣٠٦

(٢) القصص ٥٢ : ٥٥

بين نصارى نجران وأوليائهم فى الحبشة . وقد سرت النصرانية من الحبشة إلى نجران أول ما سرت ، ومن أجل مناصرتها فى اليمن كانت غزوة أبرهة التى استمرت حينا من الزمن فيها . .

نعود فنقول : إن هذا كله كان من أسباب زيادة حقد القرشيين على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو لم يكتف ـ بأن يعلن دعوته بين أهله فى مكة بل تعدى ذلك حدود مكة وما وراءها إلى اليمن أو إلى الحبشة . .

وحقا لقد استوثقت العلاقة بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين النجاشى حتى لقد قيل : إن النجاشى قد أصبح مسلما ، إن لم يكن علنا فسراً . وإن لم يكن مؤمنا بلسانه فهو مؤمن بقلبه . كما ستبين ذلك الأحداث الآتية بعد .

وما ظنك برجل وقف فى طريق قساوسته وأعلن رأيه صريحا فيما قاله القرآن الكريم عن عيسى بن مريم من أن ما قاله القرآن هو الحق . وقد سبقت الاشارة إلى ذلك .

ويذكر برهان الدين الحلبى أن هذا الوفد من نجران قد سمعوا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسلمين فى أثناء هجرتهم إلى الحبشة . وهذا الوفد غير الوفد الذى جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نجران بعد الهجرة ، وسيأتى خبره إن شاء الله تعالى ـ

ولا ينبغى ترك هذا الموقف دون أن نشير إلى خبر ـ لعله من أصعب ما مر على الكفار وهو خبر إسلام ضماد الأزدى .

إسلام ضماد الأزدى .

روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قدم ضماد الأزدى ـ وهو من

---

(٣) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٨ ـ أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٤

أزد شنوءة ـ مكة ـ وكان يرقى من به لمة من الجن ـ كما قيل ـ فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمداً لمجنون .

فقال ضماد : لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى .

قال ضماد : فأتيته ، فقلت : يامحمد ، إنى أرقى من مس الجن . وإن الله يشفى على يدى من شاء فهل لك ؟

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ـ وربما قرأ عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن »

فقال ضماد : أعد عليَّ كلماتك هذه . فأعادها عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث مرات . .

فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هذه . هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه ، وقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وعلى قومك ؟ قال : وعلى قومى .

عود إلى ذكر الصحيفة

لقد اجتمع رأى قريش ـ إذن ـ على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب .

لقد اعتقدوا أن هذا الدين الجديد الذى جاء به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أفسد عليهم أبناءهم ونساءهم .

والحق أن هذا الدين قد أخذ يسرى سريان الماء فى العود ، وكان يستجيب له كل من فكر بعقله . . . . وأقبل عليه الضعفاء والفقراء لأنه يحميهم من الظلم ، كما مال إليه كل ذى فطرة لم تفسدها أوضار الجاهلية .

وهذا ما جعل الكفار يقولون : لقد أفسد علينا محمد أبناءنا وعبيدنا ولا مخلص لهم فى رأيهم إلا بعزلة ومن معه ، ما داموا قد فشلوا فى قتله أو منعه من الدعوة إلى دينه .

وقد مر بنا آنفا أنهم فاوضوا عمه فى أن يعطوه بدلا من محمد عمارة بن الوليد فأبى ، وعرضوا عليه أن يدفعوا له دية مضاعفة ويقتلوه فأبى ، ولم يأب أبو طالب وحده ، ولكن أبى بنو هاشم كلهم ذلك العرض السخيف .

وهل يقبل عاقل شريف مثل هذا العرض ؟

فلتكن المقاطعة إذن . . هذا ما قررته قريش - فليعزل هؤلاء فى شعب أبى طالب خارج مكة وليبعد الهاشميون وبنو المطلب عن أسواق قريش وتجارتهم والإصهار إليهم

لقد قال القرشيون بعضهم لبعض محذرين : لا تأخذكم بهم رأفة أبدا . .

ولم يكتفوا بمجرد هذا التعاقد فيما بينهم شفويا بل حرروه عقدا مكتوبا موثقا موقعا عليه منهم .

ولم يكتفوا بأن يكون وثيقة مكتوبة بل أرادوا أن تكون لها قداستها فأودعوها جوف الكعبة - وكأنهم أرادوا أن يشهدوا الله على حربه ومنابذته والوقوف فى طريق دينه الذى أرسل به رسوله . . وأنَّى لهم أن يفطنوا إلى ذلك ؟

كان اجتماع القرشيين الذى أسفر عن هذا التعاقد فى خيف بنى كنانة بالأبطح ويسمى « محصبا » وهو بأعلى مكة عند المقابر .

وتحمل بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم هذا الأمر ، وكأنهم قبلوه تحديا ، ولم يشذ على إجماعهم إلا أبولهب فإنه ظاهر قريشا على قومه ، وكان

يفخر بذلك ، بل كان خصما شديدا على قومه ، فقد ذكر السهيلى أن العير إذا قدمت مكة وجاء أحد من بنى هاشم ليشترى شيئا من الطعام يقتاته كان أبو لهب يقول للتجار يامعشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئا مما معكم ، فيزيدون عليهم فى ثمن السلعة أضعافا ، حتى يرجع الرجل إلى أطفاله وهم يتضورون من الجوع وليس فى يده شىء يعللهم به ثم يغدو التجار على أبى لهب فيربحهم . .

ولما رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أصاب أصحابه من المسلمين من جهد طلب أن يخرجوا إلى الحبشة فيلحقوا بأصحابهم الذين سبقوهم إلى هناك . .

كان دخول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشعب فى هلال المحرم ستة سبع من البعثة . وانخزل بنو عبد شمس ونوفل عن بنى عمومتهم بنى هاشم وبنى المطلب ، فلم يدخلوا معهم فى الشعب ، بل لم يظاهروهم فى موقفهم ضد بقية قبائل قريش التى أجمعت على حربهم وتجويعهم وأحكمت الحصار حولهم . . حتى قال أبو طالب :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شرٍّ عاجلا غير آجل

وقال أيضا :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا وتيما ومخزوما عقوقا ومأثما

النبى يدعو النجاشى إلى الاسلام

لقد أحب النجاشى الإسلام وأكرم المسلمين هناك ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أرسل إليه كتابا يدعوه فيه إلى الاسلام ، وجاء فى هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . سلام عليك . فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بى وبالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليكم ابن عمى ومعه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى والسلام »

وقد رد النجاشى على هذه الرسالة بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر .

سلام عليك يانبى الله ورحمة الله وبركاته . لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الحق . فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى . فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وعرفت أنك رسول رب العالمين ، وإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق [٤]

وهذا الكتاب ان صح يشهد أن النجاشى أسلم ، ويدل على ذلك أنه حين مات صلى عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاة الغائب . والله أعلم

---

(٤) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢ ص ٣٠٩

الهجرة الثانية

أمر النبي - ﷺ - المسلمين بالهجرة الى الحبشة . فهناك ملك مؤمن يأمنون في جانبه ، ويتركون هذا الجوار الذى وسعهم ظلما وعسفا وتعذيبا .

على أن معاملة النجاشي للمسلمين لم تقابل من الأحباش بالرضا والتسليم ، ولكنهم خرجوا عليه وثاروا ضده وأجمعوا على حربه . فاستعدلهم .

ولكنه وفاءً منه لضيوفه من المسلمين لم يشأ أن يعرضهم للأذى وقد هاجروا إليه فرارا من الأذى . فأرسل إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، فهيأ لهم سفنا وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا . ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه : أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته القاها إلى مريم ، ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى أعدائه ، وقد صُفُّوا له . فقال : يامعشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟ قالوا : خير سيرة - قال : فمالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد . قال : فما تقولون أنتم فى عيسى ؟

قالوا : نقول : هو ابن الله .

فقال النجاشي وقد وضع يده على صدره قِبَلَ قُبائه - : وأنا أشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئا ، وهو يعنى ماكتب . فرضوا وانصرفوا . واستقر المسلمون آمنين وقد استقر الملك للنجاشي . .

اضطرابات فى الحبشة

ولم يخل الأمر من اضطرابات فى الحبشة ولكنها لم تمس المسلمين . . .

غير أنهم كانوا على نقاء ضمائرهم ووفائهم لمن أحسن إليهم يتمنون للنجاشى السلامة من أعدائه ، وتقص علينا أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها قصة منازعة النجاشى ملكه فتقول . . فيما يرويه ابن هشام فى سيرته :

قالت : وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار ، فوالله إنا لعلى ذلك ، إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه ملكه .

قالت : فوالله ماعلمنا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك ، تخوفا من أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى - فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ماكان النجاشى يعرف من ذلك . .

وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل . فقال أصحاب رسول الله - ﷺ - من الذى يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخير ؟

فقال الزبير بن العوام : أنا . وكان من أحدث القوم سنا .

فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها ، حتى خرج إلى ناحية ملتقى القوم . . . .

وأخذنا ندعو الله - تعالى - للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين فى بلاده . .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى ، فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشى وأهلك الله عدوه ، ومكَّن له فى بلاده - فوالله مافرحنا فرحة قط مثلها[٥] . . .

ولعلنا نتذكر الكلمة التى قالها النجاشى لأساقفته حين ذهب إليه عمرو بن العاص سفيرا من قريش ليردَّ معه المسلمين إليهم ، وأرسلوا معه بعض الهدايا التى أغرقوا بها حاشيته وأطرفوا بها الملك . .

---

(٥) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٨

إن النجاشى بعد المحاورة التى جرت بينه وبين المسلمين وتبين منهم حقيقة الدين الذى آمنوا به . رد الهدايا على عمرو وقال : ماأخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ ملكى . .

ولعله من المفيد أن نذكر هذه القصة التى أوردها الرواة فى مختلف كتبهم ، ورووها عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها . . قالوا :

كان أبو النجاشى ملكا على الحبشة ، ولم يكن له سوى ولد واحد هو النجاشى وكان أخوه ذا عقب كثير ، كان له اثنا عشر ولدا . .

فقال الأحباش : إن الملك ليس له سوى ولد واحد ، فإن مات تولى ابنه بعده ، وربما أدى هذا إلى ضعف الملك وهوان أمر الحبشة ، فزينوا للأخ أن يقتل أخاه ويتولى الأمر من بعده ، فإن له ذرية كثيرة يصلح بها أمر الملك ويقوى بها شأن الحبشة . ومازالوا به حتى وثب على أخيه فقتله وتولى الملك . .

ونشأ النجاشى مع عمه ، وكان لبيبا حازما حكيما ، فاستولى على قلب عمه ، حتى لم يعد يبرم أمرا إلا بمشورته .

ونظرت الحبشة فإذا بالذى كانت تحذره قد وقع . وعلمت أنه لابد أن يوصى له عمه بالأمر فيملك ، ولئن ملك ليثأرن لأبيه ، ولينتقمن له أشد انتقام .

وذهب أولو الرأى لعم النجاشى يقولون : إما أن تقتل هذا الفتى أو تنفيه من بلادنا فإنا نخافه على أنفسنا .

فقال الملك : ويلكم ، تقتلون أباه بالأمس ، وتقتلونه هو اليوم ؟ ؟

إن خروجه من بين أظهركم أهون .

واحتالوا لاخراجه ، فذهبوا به إلى السوق فباعوه لتاجر بمائة درهم ، وحمله فى سفينة له استعدادا للانطلاق به . .

وفى مساء ذلك اليوم نفسه هاجت سحابة من سحائب الخريف ، فخرج ملك الحبشة يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته .

وفزع الأحباش إلى أولاده يختارون منهم من يخلفه فى الملك فإذا كلهم حمقى لايصلحون للرياسة أو السياسة . فاختلط على الاحباش أمرهم ، واضطرب عليهم ملكهم .

فلما اشتد بهم الضيق قال بعضهم لبعض : اعلموا والله إن ملككم الذى يعودبكم إلى حسن السيرة ويأخذ بأيديكم الى طريق النجاة هو ذلك الذى بعتموه بالثمن البخس دراهم معدودة وكنتم كارهين له .. فإن كان لكم فى بلدكم خير فردوا الملك لصحابه لأن الله يؤتى الملك من يشاء .

وخرجوا يبحثون عن الرجل الذى اشتراه حتى عثروا عليه بعد حين ، فأخذوه منه وأجلسوه على العرش ، وعقدوا فوق رأسه التاج .. ولم يردوا على التاجر الثمن ..

وجاء التاجر يشكو هؤلاء المغتصبين الذين اغتصبوا عبده دون أن يردوا عليه ثمنه ..

ورفع أمرهم إلى الملك وقال : أيها الملك ابتعت غلاما من قوم بالسوق بمائة درهم ، فأسلموا إلى غلامى وأخذوا دراهمى ، حتى إذا سرت به أدركونى فأخذوا الغلام ولم يردوا الدراهم .

فقال النجاشى : لتعطُنَّ الدراهم أو ليضعن الغلام يده فى يده فليذهبن به حيث شاء ..

فرضخ القوم حينذاك ، لأنهم رأوا علامات العزم على التنفيذ فى وجه النجاشى وقالوا : بل نعطيه دراهمه ..

قالت عائشة رضى الله عنها : فلذلك يقول : ماأخذ الله منى رشوة حين

رد علىّ ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وماأطاع الناس فىّ فأطيع الناس فيه . وكان ذلك أول ماخبر من صلابته فى دينه وعدله فى حكمه[٦] . .

وأى عدل أعظم من أن يقبل طائعا أن يسلم نفسه للتاجر الذى اشتراه طالما أن البائعين له قد جحدوا حقه ؟

فإذا كان هذا الملك فى هذه الصورة المثالية من العدل فما للمسلمين لا يأمنون فى جواره ؟ وماللنبى - ﷺ - لايأذن لبقية أصحابه المستضعفين بالهجرة إليه فيلحقوا بأصحابهم هناك . ويعيشوا فى أمن معهم ؟

لقد شاء الله أن تكون الحبشة مأوى آمنا للمسلمين يفدون إليها مختارين ، وربما وفد إليها بعضهم مضطرين . .

ذلك أن أبا موسى الأشعرى أراد أن يهاجر إلى المدينة ليلحق بالنبى - ﷺ - فيها بعد أن بلغته هجرته اليها وكان معه خمسون رجلاً من قومه . . . ولكن الظروف اضطرتهم إلى تغيير وجهتهم إلى الحبشة .

وهناك وجدوا جعفرا وأصحابه ، فأمرهم جعفر بالاقامة فاقاموا ، حتى قدموا على النبى - ﷺ - وهو فى فتح خيبر . .

النبى فى شعب أبى طالب

وتمسك القرشيون بصحيفتهم الظالمة القاطعة . ويقال : إن الذى كتب نصوصها منصور بن عكرمة ، فشلت يده . وقيل : بل الذى كتبها بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى - كما قال بذلك ابن سعد فى طبقاته فشلت يده . ويكفى أن اسمه بغيض . .

---

(٦) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٩

ولم يكن انحياز كثير من بنى هاشم وبنى المطلب إلى النبى - ﷺ - حبا فى الاسلام ، ولكنه حمية وعصبية ، وأقاموا فى ذلك الشعب سنتين أو ثلاثا ، واشتد بهم الجهد ، فقد انقطعت عنهم الميرة والطعام إلا ماكان يجىء إليهم سرا من ذوى المروءة والرحمة من ذويهم . . ومن هؤلاء الذين كانوا يصلونهم حكيم بن حزام ، وهشام بن عمرو العامرى ، وكان أكثر الناس صلة لبنى هاشم . .

وكان أبو طالب بارا بالنبى - ﷺ - حريصا عليه ضنينا به ، فكان اذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله - ﷺ - فاضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد به مكرا أو اغتيالا .

فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش النبى - ﷺ - وأمر رسول الله - ﷺ - أن ينتقل إلى بعض فرشهم فينام عليها . .

وكان الذى يتولى أمر إحكام الحصار على بنى هاشم أبو جهل بن هشام ، وكان يراقب تصرفات بعض الموالين للنبى ومن معه حتى لايمدوهم بأى شىء .

ويقص علينا ابن هشام طرفا مما كان يحدث بين المشركين أنفسهم من مخاصمة فى شأن هذا الحصار الظالم .

قال : لقى أبو جهل بن هشام حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ، ومعه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة - رضى الله عنها - وهى عند رسول الله - ﷺ - ومعه فى الشعب ، فتعلق أبو جهل به ، وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . .

فجاء أبو البخترى بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال لأبي جهل : مالك وله ؟

فقال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم .

فقال أبو البخترى : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل .

فأبى أبو جهل ، حتى نال أحدهما من صاحبه . فأخذ أبو البخترى لحى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئا شديدا ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك . . . . وكان الكفار يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه فيشتموا بهم .

القرآن يقرع الكفار

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ لايكف عن التضرع الى الله أن ينقذه من هذه المحنة هو ومن معه . .

وفى الوقت نفسه كان لايكف عن الدعوة إلى الله ليلا ونهارا سرا وجهرا لايخشى أحدا إلا الله ـ تعالى .

وكان القرآن الكريم ينزل فيجد فيه النبى ـ ﷺ ـ البلسم الشافى والنور الهادى ، كما كان الكفار يجدون فيه السلاح البتار الذى يقضى على مؤامرتهم ودسائسهم ومكائدهم وسخريتهم وتحديهم للدعوة . .

كانت الآية تنزل فتسم الكافر بميسم الذل والهوان ، ويتلقفها الناس يقرءونها فسرعان ما تنتقل من فم إلى فم ومن مكان إلى مكان ، حتى تتردد فى الآفاق وتملأ الوديان . .

حين اشتد أذى أبى لهب وامرأته للنبى ـ ﷺ ـ أنزل اله سورة المسد وهى :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ (٧)

فكانت هذه الآيات أقسى عقاب نزل عليه هو وزوجته .. حتى فقدت زوجته صوابها فكانت تذهب الى الرسول - ﷺ - وهو فى المسجد وبيدها حجر تريد أن تلقيه عليه فيأخذ الله على بصرها فلا تراه .. وكانت تقول ردا على مانزل من القرآن

مذمما عصينا .. وأمره أبينا .. ودينه قلينا - أى كرهنا ..

وكان النبى - ﷺ - يقول : ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش ؟ يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد ؟

مانزل فى شأن النضر بن الحارث

ومامن كافر من الذين اشتدت عداوتهم للرسول - ﷺ - إلا نزلت فيه آيات تفضحه وتخزيه .. ومن أمثلة ذلك مايلى :

كان النضر بن الحارث يجلس فى نوادى قريش ويقول لهم : إن محمدا يقرأ عليكم كلاما ويذكر لكم أساطير اكتتبها وأنا أذكر لكم مثل ذلك ، ثم يحدثهم عن كسرى وملوك فارس . ويقول : والله مامحمد بأحسن حديثا منى . فأنزل الله - تعالى - فيه قوله :

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ (٨)

ونزل فيه أيضاً قوله - تعالى -

---

(٧) سورة المسد

(٨) الفرقان ٥ : ٦

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ ﴾ [9]

كما نزل فيه قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾ [10]

وكان النضر من أشد المعاندين لرسول الله - ﷺ - يسلك فى ذلك طرقا كثيرة ، وكان كثيرا مايتعرض لرسول الله - ﷺ - بالمحاجة والمجادلة .

عبد الله بن الزبعرى وموقفه من النبى - ﷺ -

وفى يوم جلس النبى - ﷺ - الى بعض المشركين ففى محاولة لانقاذهم وهدايتهم ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسولُ الله - ﷺ - حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ ﴾ [11]

وانصرف النبى - ﷺ - من المجلس ، وجاء بعد انصرافه عبد الله بن الزبعرى وهو أحد شعراء قريش . فجلس معهم فقال الوليد بن المغيرة معلقا على ماحدث من حوار - وكأنه قد أراد أن يغرى هذا الشاعر - بالحديث

---

(٩) الجاثية ٧ : ٨

(١٠) لقمان ٥ : ٧

(١١) الأنبياء ٩٨ : ١٠٠

ويثيره ضد النبى - ﷺ - :

والله ماقام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وماقعد - وقد زعم أنا ومانعبد من آلهتنا حصب جهنم .. ثم قص الوليد قصة ماحدث ، وبيَّن عجز النضر عن الرد على النبى - ﷺ -

فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدت محمدا لأسألنه : أكل مايعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟

فنحن نبعد الملائكة ، واليهود يعبدون عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فهل هؤلاء فى النار ؟

فعجب الوليد بن المغيرة من هذا المنطق وحجته ، وعلم هو ومن كان معه أنهم استطاعوا أن ينالوا من محمد ويغلبوه ويحاجوه

وتطوع من أبلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عَبَده إن الملائكة وعزيرا والمسيح لم يأمروا أحدا بعبادتهم ، ولكن الشياطين هى التى أوحت إلى هؤلاء الأقوام بذلك ثم أنزل الله - تعالى قوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١٢)

إن الملائكة لم تَدْعُ هؤلاء أن يعبدوها .. كما أن عزيرا لم يَدْعُ اليهود إلى عبادته ، والمسيح لم يطلب من النصارى أن يجعلوه إلها ..

---

(١٢) الأنبياء ١٠١ : ١٠٣

لقد افترى كل هؤلاء وضلوا ضلالا بعيدا . .

وقد عبد بعض المشركين الملائكة زاعمين أنها بنات الله - فنفى القرآن الكريم ذلك عنها ، وأثبت أن الملائكة عباد لله وأن الله لا ولد له - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١٣)

وحكى القرآن الكريم قصة فرح المشركين بحجة ابن الزبعرى التى ظن أنه بها يخصم محمدا فقد قالوا : كيف يرفع محمد من شأن عيسى ثم يقذف به فى النار مع من يعبده ؟ فقال الله تعالى :

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (١٤)

ومعنى قوله : يصدون : أى يضجون فرحا . . أى أنهم وجدوها فرصة سانحة لهزيمة النبي - ﷺ - وما علموا أن عيسى - عليه السلام - برىء ممن

---

(١٣) الأنبياء ٢٦ : ٢٩

(١٤) الزخرف ٥٧ : ٦١

اتخذوه إلها . . وما قال لهم يوما أنا إله بل قال : أنا عبد الله ورسوله . . وقد قرر القرآن الكريم ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١٥)

لقد كان القرآن يسجل ما يجرى من أحداث ، وكان يحصى على الكافرين أنفاسهم وما يجول فى خواطرهم ويتردد فى صدورهم . يرصده أولا بأول ثم ينزله الله آيات بينات تقرعهم وتلاحقهم وتفضح ضلالهم . . بل وتخزيهم وتسمهم بميسم عار أبدى لايستطيعون منه فكاكا . .

ما نزل فى شأن الأخنس بن شريق

كان الأخنس بن شريق من ألد المشركين الذين يؤذون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان الناس يعتقدون أنه من أشراف العرب وأعاظمهم الذين لايجرؤ أحد على مهاجتهم فلما كثر لجاجه ومخاصمته للنبى ـ ﷺ ـ نزل فيه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (١٦)

---

(١٥) المائدة ١١٦ : ١١٧

(١٦) القلم ١٠ : ١٣

فلما نزلت هذه الآيات تزلزلت الأرض تحت أقدام الأخنس ، فقد علم الناس أنه قد امتهن واحتقر وظهر على حقيقته بتلك الأوصاف القوية العنيفة ، لأن معنى « زنيم » أنه لصيق فى القوم وليس منهم . . وبعد أن كان يتعالى برأسه كبرا ويشمخ بأنفه ، إذ به يمشى منكس الرأس ذلا وخزيا . . هذا ما يراه بعض العلماء فى شأن من نزلت فيه تلك الآيات . . .

وقال آخرون : إن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة .

وقيل فى تفسير الزنيم أقوال أخرى ، وهى لاتخرج عن صفات الذم التى لايحمد صاحبها . وأيا كان من نزلت الآيات فى حقه فهى وصمة عار له ، ما زالت تلاحقه فى حياته وبعد مماته والى أن تقوم الساعة . .

أبو جهل يستهزىء

حين نزل قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١٧)

قال أبو جهل : يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟

قالوا : لا .

قال : عجوة يثرب بالزبد . والله لئن استمكنّا منها لنتزقمها تزقما . ـ حقا ما أجهلك يا أبا جهل ـ وهنيئا لك هذا الطعام الذى نزل فيه قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك :

---

(١٧) الواقعة ٥١ : ٥٣

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١٨)

لقد كانت هذه الآيات نارا كاوية على رأس أبي جهل ـ لعنه الله ـ فطالما أذى النبي ﷺ ـ بلسانه وفعله ، وطالما شجع السفهاء على النيل من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . وهو يزعم أنه سيد القوم وعظيمهم والكريم المقدم فيهم ، فقال له القرآن الكريم على سبيل السخرية والاستهزاء :

« ذق إنك أنت العزيز الكريم »

حكى القرطبي في مناسبة نزول هذه الآيات عن قتادة قوله : قال أبو جهل ما فيها ـ أي مكة ـ أعز مني ولا أكرم فنزل قوله :

« ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

وقال عكرمة : التقى النبي ـ ﷺ ـ وأبو جهل ، فقال النبي ـ ﷺ ـ : إن الله أمرني أن أقول لك

« أولى لك فأولى »

ـ وهي عبارة تقال في التهديد ـ فقال أبو جهل : بأي شيء تهددني ؟ والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه ، فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية . .

إن مفهوم « ذق إنك أنت العزيز الكريم »

---

(١٨) الدخان ٤٣ : ٥٠

أى أنت الذليل المهان . .

وهذا أسلوب يعرفه العرب ويستعملونه كثيرا ، يأتون بعبارات مدح لمن لايستحقه تهكما به وسخرية منه . ومثله قول الشاعر « الحطيئة »

دع المكـــارم لا ترحــل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فوصفه بالطاعم الكاسى على أنه مطعوم ومسكو . وضع اسم الفاعل موضع اسم المفعول سخرية منه واستهزاء به .

قصة الغرانيق

والاستطراد حول موقف الكفار ومناقشاتهم للنبى ﷺ ـ يقتضينا أن نشير إلى قصة الغرانيق التى ذكرها بعض المفسرين . . ثم التعليق عليها بما يليق بقداسة القرآن الكريم وعصمة النبى ﷺ ـ وهى لاتخرج بنا عن محور الأحداث التى نحن بصددها ـ وهى الحصار وهجرة الحبشة وتحدى الكفار للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقصة ذلك أن المهاجرين فى الحبشة نما إلى علمهم أن المشركين قد أسلموا بأسرهم فى مكة ، وصلوا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسجدوا معه ، فعادوا سراعا إلى مكة ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش ، فقالوا : ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم عاد فشتم آلهتهم ، فعادوا كما كانوا . .

فتشاور القوم فى الرجوع إلى الحبشة ، ثم قالوا : قد بلغنا مكة ، فندخل لننظر ما فيه قريش ، ونرى أهلنا ، ثم نرجع .

فدخلوا مكة ، ولم يدخل واحد منهم إلا بجوار . . . غير أن عبد الله بن مسعود ، لم يدخل معهم ، بل مكث يسيرا ثم رجع إلى الحبشة .

ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة . فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن ، رد عليه جواره .

فبينما هو فى مجلس لقريش ، جاء لبيد بن ربيعة قبل إسلامه ، فقعد ينشدهم من شعره ، فقال :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . .

فقال عثمان : صدقت .

فقال لبيد : وكل نعيم لامحالة زائل .

فقال عثمان : كذبت . نعيم الجنة لايزول .

فقال لبيد : متى كان يؤذى جليسكم يا معشر قريش ؟

فقام رجل منهم فلطم عثمان لطمة اخضرت منها عينه ، فلامه الوليد على رد جواره ، وقال له : قد كنت فى ذمة منيعة فرددتها .

فقال عثمان : والله إن عينى الأخرى إلى ما أصاب أختها فى الله لفقيرة .

فقال له الوليد : فعد إلى جوارك .

فقال عثمان : بل أرضى بجوار الله . .[19]

ولنعد إلى بيان ما قاله ركب كنانة من أن محمداً ذكر آلهة قريش بخير . .

فهل حقا حدث ذلك ؟

قال بعض المفسرين :

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ قوله ـ تعالى ـ

والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو الا وحى يوحى . . »

---

(١٩) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٨٠

حتى بلغ إلى قوله ـ تعالى ـ

« أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى »

قال هؤلاء المفسرون : إن الشيطان عندما وصل الرسول ﷺ فى قراءته إلى هذه الآية ـ قرأ محاكيا صوت النبى ـ ﷺ ـ قائلا :

« تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى »

واستمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القراءة حتى بلغ نهاية السورة ، فسجد سجدة التلاوة . . وسجد معه المسلمون والمشركون الذين كانوا يسمعون هذه القراءة . ما عدا أمية بن خلف فإنه أخذ قبضة من تراب ورفعها الى جبهته .

لقد ظن المشركون أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر هذه الآلهة بخير ، فسروا وفرحوا وسجدوا معه . . ثم قالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فأما إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك . .

لقد توهموا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى قرأ تلك العبارات السابقة ضمن ما قرأ . .

ولكن النبى ﷺ ـ لم يقرأ على الاطلاق تلك العبارة التى أفرحتهم ، وهى قولهم : تلك الغرانيق العلا . . وإن شفاعتهن لترتجى » . . ولهذا عظم عليه الأمر ودخله شىء من الهم والضيق حتى لزم البيت . قالوا : فنزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢٠)

قال هؤلاء المفسرون : إن تمنى بمعنى قرأ . . أى إذا قرأ ألقى الشيطان فى قراءته . . ومعنى كلامهم هذا أن الشيطان ألقى هذه العبارة فى نفس النبى ﷺ فقرأها

مناقشة هذه القصة

وقد ناقش المحققون من العلماء هذه القصة ، وتعقبوها بما فندها وأبطل وقوعها لأنها تتنافى مع إحكام القرآن وعصمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ إن هذه القصة بعيدة كل البعد ـ وهى لاتجوز على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو المعصوم فى التبليغ . .

وقال : الأحاديث المروية فى ذلك ليس منها شىء يصح وكذلك قال غيره من المحققين . . .

إن حجة المفسرين الذين جوزوا هذه القصة هى تلك الآيات التى نزلت فى سورة الحج ، أى قوله تعالى « وما أرسلناك من قبلك من رسول ولا نبى

---

(٢٠) الحج ٥٢ : ٥٤

إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته . . » على أن تمنى معناها قرأ . .
وقد ضيق هؤلاء المفسرون واسعا . فإن تمنى لايقتصر معناها على قرأ ،
ولكن التمنى هو ما يحدث به الانسان نفسه ويتمناه . .

وهذا تفسير أشار إليه بعض العلماء من أمثال ابن عباس فقد نقله عنه
على بن أبى طلحة . قال : إن قوله تعالى
« إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته »

أى إذا حدَّث ـ أى حدث نفسه ـ ألقى الشيطان فى حديثه . .
فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، أى يبطل ما يلقى الشيطان . .
قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأعلاه ، وقد قال أحمد
بن حنبل : بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل فيها
أحد إلى مصر قاصدا ـ ما كان كثيرا . يعنى بذلك الصحيفة التى فيها تفسير
ابن عباس المشار اليه . . والمعنى على هذا التفسير : ـ أن النبى ـ صلى الله
عليه وسلم ـ كان إذا حدث نفسه تمنى هداية قومه ، وربما دار فى نفسه أن
يسأل الله تعالى أن يزداد مال المسلمين ويتسع . وأن يهدى الله رؤساء
الكفر إلى الاسلام ثم يعلمه الله تعالى أن الصلاح فى غير ذلك وفيما قدره
الله . .

وروى عن ابن عباس ـ وقاله مجاهد والضحاك وغيرهما ـ : ليس هذا
التمنى من القرآن والوحى فى شيء ، وإنما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم
إذا صفرت يداه من المال ، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال ، تمنى أن تتسع
عليهم الدنيا وربما حاول الشيطان تغذية هذا التمنى ليجد فرصة ينفذ منها

إلى قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه لايلبث أن يرتد خائبا خاسرا لأن الله قد عصم رسوله منه . . ونحن نرفع قدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون للشيطان فى نفسه سبيل .

ولكن يمكن قياسا على هذا المعنى الذى ذكره القرطبى فى تفسيره استنباط المعنى الآتى الذى أشار إليه بعض العلماء المحدثين قالوا :

الأنسب فى فهم هذه الآية أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتمنى اهتداء أمته إلى الإسلام ، وكذلك كان كل نبى ورسول يتمنى هداية أمته . ولكن الشيطان لايكف عن ترصد طريق الحق ، ومحاولة إبعاد الناس عنه ، ويقف فى طريق تحقيق هذه الأمنية التى يتمناها كل نبى ، بما يقذفه فى قلوب أهل الزيغ والفساد ، وبما يزينه فى نفوسهم من ضلال وعناد .

ولكن ما يزينه الشيطان يتبخر أمام شمس الحقيقة الساطعة ، ويتبدد أمام منطق الحق الواضح ، فيقبل على الرغم من ذلك قوم أراد الله بهم الخير فيهتدون ، وبذلك يتبدد الوهم ويبقى الحق . . وهو ما يراد بقوله تعالى « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته »

وما يلقيه الشيطان فى نفوس الضالين إنما هو فتنة لهم وصرف لعقولهم عن متابعة الحق . ولكن المحبين للايمان يستعينون بالله فى رد كيد الشيطان فيعصمهم الله ويثبتهم على الصراط المستقيم . .

وهذا ما ينبغى فهمه من هذه الآيات الكريمة . . وهو الفهم الذى تنساق إليه الفطر السليمة والعقول القويمة ، ويلتقى مع عصمة النبى ـ صلى الله

عليه وسلم ـ الذى لم يجعل الله للشيطان عليه سبيلا ، وإذا كان فى أمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يفر منه الشيطان فما بالك بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه ؟ ألم يقل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حق عمر بن الخطاب : إن الشيطان ليفر منك يا عمر ؟ وقال لو سلك عمر طريقا لسلك الشيطان طريقا آخر ؟ . . . أفيستطيع الشيطان إذن أن يضع على لسان النبى ﷺ كلاماً ، أو يستطيع أن يضيف إلى كلام الله فى أثناء قراءة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلاما آخر فى مدح الأصنام ـ كما زعمت بذلك ـ بعض الروايات ؟ ؟ كلًا وألف كلًا

إن هذه القصة التى انزلق اليها بعض المفسرين موضوعة كما قال بذلك أئمة المحققين من المفسرين . .

ذلك أن سورة النجم مكية نزلت كلها فى مكة . .

روى أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : هى أول سورة أعلنها النبى ـ ﷺ ـ بمكة .

وفى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ ﷺ ـ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

وقال أيضا : قرأ النبى ـ ﷺ ـ سورة النجم فسجد لها ، فما بقى أحد من القوم إلا سجد ، فأخذ رجل من القوم كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال : يكفين هذا قال عبد الله : فلقد رأيته بعد ذلك قُتِل كافرا ـ متفق عليه ـ وهذا الرجل يقال إنه : أمية بن خلف . . كما ذكرت بعض الروايات . .

وهذه الأحاديث التى رواها الثقات لم يذكروا فيها قصة الغرانيق ولم يشيروا اليها . فمن أين جاءت هذه القصة ؟ إنها إضافة متعمدة هدفها الطعن فى الدين والتشكيك فيه . وهى تتعارض تماما مع ماجاء فى صدر هذه السورة الكريمة[٢١] من قوله تعالى

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ ﴾

فالنقل ينفى القصة والنظر أيضا ينفيها . لأن النبى ـ ﷺ ـ لايمكن أن يرد على لسانه تعظيم الأوثان ـ وهو الذى امتهنها قبل رسالته ، فكيف يعظمها بعد الرسالة ؟

ولو جاز أن يكون للشيطان سبيل إلى الاضافة أو التغيير أو التبديل فى آيات القرآن لانتفت بذلك حكمة التشريع ، وأمكن دخول الباطل فى الأحكام ، وفى شرع الله ، ولبطل قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾[٢٢]

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

جاء فى شرح المواهب اللدنية : إن هذه القصة وما جاء فى شأنها من حديث لا أصل لها ، وقال القاضى عياض فى الشفا : ما جاء فى تلك القصة لم يخرجه أهل الصحة ولارواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم »[٢٣] أما سجود الكفار مع النبى ـ ﷺ ـ عقب تلاوة السورة ،فيمكن تعليله بالانقياد لصولة القرآن والإعجاب بجلاله والانصياع لتلك المعانى الرائعة التى تضمنتها السورة ـ وكان كثير من المشركين

---

(٢١) أى سورة النجم

(٢٢) الحجر ٩

(٢٣) شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ ١ ص ٢٨٤

يسجدون حين تصافح قلوبهم روعة القرآن . سمع أحدهم قارئا يقرأ

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (٢٤)

نقض الصحيفة

ونعود إلى النبى - ﷺ - ومن معه فى شعب أبى طالب . .

فعلى الرغم من المحاورات التى كانت تدور بين النبى - ﷺ - والمشركين فإن ذلك لم يزدهم إلاعنادا وإمعانا فى الضلال ، وتصميماً على الوقوف من النبى - ﷺ - موقف العداء .

وقد علمنا فيما سبق أن النبى - ﷺ - لم يرد أن يعرض أصحابه لمزيد من الأذى ، فأمرهم أن ينطلقوا إلى الحبشة فى هجرتهم الثانية ، فانطلقوا . . ومن بقى منهم بقى فى جوار زعيم يحميه . ماعدا أبا بكر فإنه بعد أن كان فى جوار سيد القارة . . ابن الدغنة ، وهو الحارث بن يزيد أو مالك بن يزيد - . . بعد أن كان فى جواره فترة من الوقت رد عليه جواره وقد سبقت الاشارة الى ذلك . .

واستمر المحاصرون فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات فى أشهر الأقوال ، حتى بلغ بهم الجهد مبلغا كبيرا . حتى مشى رجال من قريش فى نقض هذه الصحيفة الظالمة . .

وكان أكبر المتحمسين لنقضها هشام بن عمرو بن الحارث العامرى . -

---

(٢٤) يوسف ٨٠

وقد أسلم بعد ذلك.

وكان هشام هذا يمد المحاصَرين بالطعام سرا . فقد أدخل عليهم فى ليلة ثلاثة أحمال من الطعام ، وحين علمت قريش بذلك مشوا إليه يلومونه على أنه خرج على الاجماع .

وكان لبقا فى محاورته لهم ، فقال : إنى لن أعود إلى مخالفة الاجماع فانصرفوا عنه . ثم عاد مرة أخرى فأدخل إليهم حملا أو حملين . فاغتاظت قريش وأغلظت عليه فى القول وهمت بأن تبطش به .

فقال أبو سفيان بن حرب : دعوه ـ رَجُلٌ وصل رحمه . فماذا تعيبون عليه ؟
أما إنى أحلف بالله لوفعلنا مثل مافعل لكان أحسن بنا . .

إنها بوادر الوهن فى صفوف المشركين ، بعد ثلاث سنين عجاف مرت بالنبى ـ ﷺ ـ ومن معه ولم يروه تراجع عن دعوته ، ولم يروا من آزروه تخاذلوا فى نصرته ، بل رأوا قوة الحق تترى تُقَوِّى من أزره وتثبت أقدام من معه وتزلزل الأرض تحت أقدام الكافرين ، وتبث الرعب فى جوانحهم وأوصالهم .

وسلك هشام بن عمرو بن الحارث مسلكا عمليا فى نقض هذه الصحيفة ، فمضى إلى زهير بن أبى أمية . فقال له : يازهير ، أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ؟
وقال له أخوالك لأن أم زهير هى عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم .

فقال زهير : ويحك ياهشام ، فماذا أصنع ؟ فإنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها .

فقال هشام : أنا معك .

قال زهير : ابتغ لنا ثالثا

فمشيا معا إلى المطعم بن عدى ، فقالا له : أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد ؟

فقال : إنما أنا واحد .

فقالا له : نحن معك

فقال : نريد رابعا فذهب أحدهم إلى أبي البخترى بن هشام . فوافق ولكنه قال : نريد خامسا ، فانضم إليهم زمعة بن الأسود . .

فقعدوا ليلا بأعلى مكة ، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة وحين أصبح الصباح واجتمعوا فى الحجر ، وأخذت قريش مجالسها . كان أول المتكلمين فى النقض على حسب ما اتفقوا فى ليلتهم زهير بن أبي أمية . .

فقد أقبل وعليه حلة جديدة فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال : ياأهل مكة ، أناكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لايباع ولايبتاع معهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

فكان أول من انبرى له أبو جهل أقبل عليه من ناحية المسجد يصيح به : كذبت والله لاتشق .

فقام زمعة يعضد زهيرا ويقول لأبي جهل : أنت والله أكذب ، مارضينا

بكتابتها حين كتبت .

ووقف أبو البخترى يقول : أجل ، صدق زمعة ، لانرضى ماكتب فيها ، ولانقربه وأيد هذا القول المطعم بن عدى فقال : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نحن نبرأ الى الله منها ومماكتب فيها .

وقال هشام بن عمرو بن الحارث كلاما يشبه ذلك .

وأسقط فى يد أبى جهل ، لقد ظن أن هؤلاء القوم وهم من زعماء قريش سيعضدونه فى رده على زهير . فإذا بهم يناصرون زهيرا ضده . وأدرك أن هناك إجماعا من هؤلاء على قول ما قالوا وعلى رأى ماراأوا . فقال : ـ وهو كالمغلوب على أمره ـ : هذا أمر قضى فيه بليل ، وتشوور فيه بغير هذا المكان . .

كل هذا وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد يرقب الموقف كله دون أن يتكلم ببنت شفة .

وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليستخرجها من المكان الذى كانت قد وضعت فيه ، فوجد الأرضة قد أكلتها ، إلا كلمة « باسمك اللهم »

النبى أخبر عمه أن الأرضة أكلت الصحيفة

ويروى العلماء أن النبى ـ ﷺ ـ كان قد أخبر عمه أبا طالب أن الله قد سلط على الصحيفة الأرضة فأكلتها ، ولم تترك فيها الا اسم الله . .

فقال أبو طالب للنبى ـ ﷺ ـ : أَرَبُّك أخبرك بذلك ؟

قال : نعم .

قال : فو الله مايدخل عليك أحد . .

فلما كان ما كان من أمر قريش وقام المطعم بن عدى ليستخرج الصحيفة وقف أبو طالب فقال : يامعشر قريش ، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا فهلموا إلى صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها ، وان يكن كاذبا فأنتم وشأنكم . . . .

فقال القوم رضينا . فتعاقدوا على ذلك . ثم نظروا ، فإذا هى كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ فزاد ذلك الكفار حسرة .

فعند ذلك صنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ماصنعوا(٢٥) وامتدح أبوطالب هؤلاء النفر الذين قاموا بنقض الصحيفة ـ بقصيدة ذكرها ابن هشام فى سيرته . . وانخذل أبو جهل ومن مالأه على حقده . .

ونجا هؤلاء المحاصرون مما كانوا فيه من عناء شديد قاسوا فيه الشدائد حتى اكلوا ورق الشجر . . .

تأملات فى هذه الأحداث :

لقد أرادت قريش بهذه المحاصرة الاقتصادية الرهيبة أن تفت فى عضد النبى ـ ﷺ ـ ومن يقف وراءه من قومه ـ وأن يعرضوا هؤلاء لمحنة الجوع القاسية . فى بلد لازرع فيه ولاضرع ، وإنما كل موارده المعيشية قائمة على الواردات التجارية أو الموسمية .

وهى تجربة جديدة على النبى ﷺ وصحبه ومن ناصره لقد تعرض قبل ذلك لضروب من الإيذاء والاستهزاء . ولكنه كان

---

(٢٥) سيرة ابن هشام جـ٢ ص١٢٣

يتعرض لذلك وحده أو يتعرض معه من آمن به . وكذلك تعرض لتجربة الإغراء بالملك والثراء ولكنها لم تجد شيئا

أما الآن فقد أصبح يتعرض هو وأقرباؤه الذين انحازوا اليه بدافع العصبية والحمية لتلك الحملة الضارية من المقاطعة والتجويع .

والأعجب من ذلك هو هذا الصبر المتحدى لحصار قريش .. ولقد عرضت قريش قبل ذلك على النبى - ﷺ - الملك والسلطان والثروة ، ولكنه نظر إلى عَرْضِهم باستخفاف وقال لهم : « لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

إن ما يدعو إليه أعظم من ذلك كله ، يهون فى سبيله كل صعب ، وتسهل كل مشقة .. والدليل على ذلك هو ذلك الصبر العظيم على هذه المحنة القاسية ، والتضحية بالأهل والمال والوطن والهجرة إلى بلاد نائية غريبة .

وأرادت قريش أن تفرد النبى - ﷺ - عن عشيرته حتى يتركوه لهم بعد أن يذوقوا شدة الجوع . ويسأموا شدة المحاصرة . ولكن قوم النبى كانوا أوفياء له .. على الرغم من أن دافعهم إلى ذلك كان هو الحمية والعصبية ، لأن معظمهم لم يكن قد دخل الاسلام بعد ..

ولابد أن نعلم أن حماية أقارب رسول الله - ﷺ - له كما يقول الدكتور محمد سعيد البوطى - « لم تكن حماية للرسالة التى بعث بها ، وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب ، فإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية ، من قِبَل

المسلمين ، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم ، فأنعم بذلك من جهد مشكور ، وسبيل يتنبهون إليها »[٢٦]

وعلى أي فقد كانت محنة امتدت زهاء ثلاث سنوات ـ إلا أنها مازادت النبي ـ ﷺ ـ إلا صلابة ، ومازادت المسلمين الا اصرارا . .

لقد كشفت عن جلال الايمان حين يستولى على القلوب ويتربع على عرشها ، فترى بعيون البصيرة مدى ماتملكته من سلطان تهوى الدينا بأسرها أمامه ، ويصغر كل سلطان دونه . . ولقد كانت عاقبة هذا الصبر الجميل هو الحصول فيما بعد على ثمرات الدنيا وخير الآخرة تحقيقا لوعد الله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[٢٧]

---

(٢٦) فقه السيرة ومحمد سعيد رمضان البوطى ص ٩٦

(٢٧) النور ٥٥

عَامُ الحُزْنِ

- أشد الناس بلاء الأنبياء .
- مرض أبي طالب .
- محاورة بين القرشيين والنبي حول فراش أبي طالب .
- النبي يطمع في إسلام عمه .
- أبو طالب يوصي قريشًا .
- معنى عدم إيمان أبي طالب .
- ما نزل من القرآن في شأن أبي طالب .
- وفاة خديجة - رضي الله عنها .
- لِمَ سُمي هذا العام عام الحزن ؟



عام الاحزان

مما يؤثر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »

وقد تحمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من البلاء مالا تستطيع تحمله الجبال الرواسى . . فلم يكد يفرغ من تجربة الحصار بأيام حتى فوجىء بوفاة عمه أبى طالب الذى كان بالنسبة له اليد الحانية المؤازرة والعضد المساعدة المناصرة . . .

كان الخروج من الشُعب فى الثانى عشر من رمضان سنة عشر من النبوة ومات أبوطالب فى شوال من هذا العام ، وقيل فى رجب سنة احدى عشرة من نبوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى بعد الخروج من الشعب بتسعة أشهر . .

وحزن النبى صلى الله عليه وسلم ـ لوفاة عمه ، وكان حزنه الأكبر لأن عمه مات قبل أن يسلم ولقد جهد فى أن يلقنه الشهادة قبل وفاته ، ولكن أبا طالب لم ينطقها .

محاورة فى بيت أبى طالب

وحين ثقل المرض على أبى طالب قال القرشيون : لقد أسلم حمزة وعمر ، وفشا أمر محمد فى القبائل كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ لنا من ابن أخيه وليعطه منا ، فإنا والله لا نأ من أن يغلبونا على أمرنا . أو أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شىء ـ يعنون قتل محمد ـ فتعيرنا العرب ، يقولون : تركوه حتى إذ مات عمه تناولوه .

فمشى أشراف قريش إلى أبى طالب ، واستأذنوا عليه فأذن لهم .

فقالوا له : يا أبا طالب أنت منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه وخذ له منا وخذ لنا منه . لينكف عنا وننكف عنه . وليدعنا وديننا ولندعه ودينه .
فبعث إليه أبوطالب فجاء .

وحين دخل ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بين أبى طالب والقوم فرجة تسع الجالسين فخشى أبو جهل أن يجلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها فيكون أدنى القوم إلى أبى طالب ، فوثب أبو جهل فجلس فيها ، فلم يجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجلسا قريباً من أبى طالب فقال : خلوا بينى وبين عمى .

فقالوا : ما نحن بفاعلين ، وما أنت بأحق به منا ، إن كانت لك قرابة فإن لنا قرابة مثل قرابتك . فجلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الباب ـ
وقال أبوطالب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، وقد اجتمعوا لك ليعطوك ويأخذوا منك ، وهم يطلبون أن تكف عن شتم آلهتهم وَيَدَعُوك . وإلهك

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم هل تعطوننى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟
فقال أبوجهل : نعم بل نعطيك عشر كلمات . . . فماهى ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تقولون لا إله إلا الله وتقلعون عما تعبدونه من دونه .

فصفقوا بأيديهم عجبا وقالوا : أتريد يامحمد أن تجعل الآلهة إلها

واحدا . . . إن أمرك لعجب . فنزل قوله ـ تعالى :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ (٢٨)

لقد عجبوا من أن يكون للكون إله واحد ، فقالوا : أيسع لحاجاتنا جميعا إله واحد ؟؟ ونظر بعضهم الى بعض ، منكرين على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يقول . ثم قالوا : هل من كلمة غيرها ؟ وقال أبو طالب : يابن أخى إن قومك قد كرهوا هذه الكلمة فاطلب منهم غيرها .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والله ، ياعم : لو جئتمونى بالشمس فوضعتموها فى يدى ما سألتكم غيرها .

فيئس القوم ، وقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل لن يعطيك مما تريدون شيئا . .

أجل ، وكيف يعطيهم ما يسألون ، وهم يريدون أن يرضى عن آلهتهم ويقرهم على عبادتهم ؟ فعلام كانت الرسالة إذن ؟ ولماذا كان هذا الجهاد الشاق المرير ؟

---

(٢٨) ص ١ : ٨

وانصرفوا وهم يتوعدونه بأن يسبوا إلهه كما سب آلهتهم . فنزل قوله - تعالى - :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[29]

فترك النبى - صلى الله عليه وسلم - سب آلهتهم .

قال العلماء : وحكم هذه الآية باق فى هذه الأمة ، فإن الكافر إذا كان فى منعة وخيف أن يسب الاسلام أو الرسول فلا يحل للمسلم سب دينه حتى لا يؤدى ذلك إلى تعريض الإسلام للأذى ، فإن الطاعة إذا كانت تؤدى إلى مفسدة خرجت عن أن تكون طاعة[30]

النبى - يطمع فى إسلام عمه أبى طالب

بعد هذه المحاورة التى جرت فى بيت أبى طالب - قال أبو طالب للنبى - صلى الله عليه وسلم - : والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا .

فلما قال ذلك طمع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى إسلامه . . فأقبل عليه فى رجاء وحب واشفاق : أى عم ، « فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » بمعنى إذا أذنبت بعد تلفظك بها ، ودخولك هذا الدين الذى أعتق الله رقاب أهله من النار - شفعت لك يوم القيامة - وإلا فالإسلام يَجُبُّ ما قبله . .

---

(٢٩) الأنعام ١٠٨

(٣٠) السيرة الحلبية جـ٢ ص ٤٥

ولكن الهداية بيد الله وحده « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا »[٣١]

فقد أمسك أبو طالب لسانه عن النطق بالشهادة المنجية ، وما أسهلها وأجملها على اللسان لو نطق بها بل وما أثقلها غدا فى الميزان . . . ولكنها إرادة الله . . .

لقد كبر على أبى طالب ـ على الرغم من منافحته عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأييده له ، ووقوفه معه ضد قريش كلها ـ كبر عليه أن ينطق بشهادة لا إله إلا الله ، وقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم :

والله ياابن أخى لولا مخافة السبة والعار عليك وعلى بنى عبدالمطلب من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعا من الموت لأقررت بها عينك ، لما أرى من شدة وجدك . . . ولكنى أموت على ملة الأشياخ عبدالمطلب وهاشم وعبدمناف . .

فحزن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك ، وكم كان يود أن يكون هذا الرجل الذى أحبه من الناجين من النار . وعلم الله مدى حزن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعدم إسلام عمه أبى طالب ، فنزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[٣٢]

وقيل : إن شيوخ قريش كانوا بجواره حينئذ فاستحيا منهم أن ينطق بالشهادتين . . .

---

(٣١) الكهف ١٧

(٣٢) القصص ٥٦

أبوطالب يوصي قريشا

ذكر الرواة أن أبا طالب حين حضرته الوفاة جمع إليه وجهاء قريش فأوصاهم فقال لهم :

يامعشر قريش ـ أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا آحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة أوصيكم بتعظيم هذه البنية ـ يقصد الكعبة ـ فإن فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل ، وزيادة فى العدد ، واتركوا البغى والعقوق فبهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل .

فإن فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام ، وإنى أوصيكم بمحمد خيرا ، فإنه الأمين فى قريش ، وهو الصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان[٣٣] وأنكره اللسان مخافة الشنآن ـ يعنى البغض ـ ، وأيم الله كأنى أنظر إلى ضعاف العرب وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أسيادا واذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أخطاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأعطته قيادها دونكم يامعشر قريش ، كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لا

---

(٣٣) أى العقل

يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد يهديه إلا سعد »
وقيل إنه قال لبنى عبدالمطلب خاصة : لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره ، فأطيعوه ترشدوا . .

عجبا . . إن كلام أبي طالب هذا ـ إن صح جميعه ـ كلام مؤمن صادق ـ ولكن المفتاح الذى يفتح به باب هذا الحصن الأمين قد فقد منه أو استعصى عليه . وهذه حكمة الله . .

معنى عدم إيمان أبي طالب

ولعل الحكمة فى عدم إيمان أبي طالب ووفاته قبل أن تستعلى كلمة الدين ويظهر شأن الإسلام ذلك الظهور الذى أصبح عليه فيما بعد ـ لعل الحكمة فى ذلك أن الله أراد أن يظهر للملأ أن النصر بيده هو وحده لابيد أحد من خلقه ـ فلو قُدِّر لأبي طالب الاسلام وطول العمر ، لربما نسب الناس إليه الفضل فى انتشار الإسلام وذيوع أمره . ولقد أشار إلى هذه الحكمة بعض العلماء ومنهم صاحب كتاب فقه السيرة حيث يقول : ـ

« ترى ما الحكمة فى أن يتعجل قضاء الله فى استلاب أبي طالب من الحياة قبل أن يشتد ساعد المسلمين فى مكة ويتكون لهم شيء من المنعة ؟ ومعلوم أنه قد كان يحمى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدر الإمكان ـ من كثير من المصائب والشدائد .

تبرز هنا ظاهرة هامة تتعلق بأساس العقيدة الإسلامية ، فلو أن أبا طالب بقى إلى جانب ابن أخيه يكلؤه ويحميه إلى أن تقوم الدولة الاسلامية فى المدينة ، وريثما ينجو الرسول من أذى المشركين وقبضتهم ، لكان فى ذلك ما

قد يوهم أن أبا طالب كان من وراء هذه الدعوة ، وأنه هو الذى يدفعها إلى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قوته ، ولجاء من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الذى تهيأ للرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الدعوة ، بسبب حماية عمه له ، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله ، فأوذوا وهو محفوظ الجانب ، وتعذبوا وهو مستريح البال(٣٤)

. . . . . . ومن هنا كانت حكمة الله فى أن يموت أبو طالب قبل أن يشتد ساعد الإسلام . . . .

أما حماية أبي طالب للنبى - صلى الله عليه وسلم - وهو على غير دينه فمردها إلى قدرة الله - تعالى - الذى يسخر قلوب من يشاء لمن يشاء - وقدرته - سبحانه - تتجلى فى أن يكون من بين هؤلاء الذين لم يؤمنوا من يعضد هذه الدعوة التى جاءت لتحطم حصون الشرك وتزلزل الأقدام تحتهم .

وقد استعان النبى - صلى الله عليه وسلم - فى هجرته بدليل غير مسلم وهو عبد الله بن أريقظ . واستعان فى دخول مكة بعد الطائف ببعض المشركين .

وكأن الله - سبحانه - يريد أن يقول للكفار : إن كلمتى هى العليا وستنفذ مشيئتى فى ظهورها بسواعد بعضكم وتحت أسماعكم وأبصاركم على الرغم منكم .

وهذا أمر ملحوظ فى كل زمان ومكان فمنذ سنوات أرادت بعض القلوب الحاقدة والأيدى الجاحدة تحريف القرآن . . . ويشاء الله أن يكون كشف

---

(٣٤) فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطى ص ١٠٥

هذا التحريف بواسطة دولة غير مسلمة هى ألمانيا الغربية ـ وذلك قبل أن يكتشف المسلمون ذلك بأنفسهم ـ لقد سخر الله عقول بعض العلماء إلى اكتشاف التحريف وضبطه وفضحه والتنبيه إليه وإعدام النسخ التى تحمله .. أليس ذلك تأييدا للدين بواسطة من لم يؤمنوا بهذا الدين ؟

إن رمز أبي طالب موجود فى كل عصر ، ليشهد العالم أن الله غالب ، سواء أراد الناس أم لم يريدوا ولينبه الأذهان إلى أن الله غنى بقدرته وحوله عن كل حول وقوة ، وليذكر المؤمنين بواجبهم وأنهم أحق من غيرهم فى المنافحة عن هذا الدين وتأييده ونصره .

هل نزل من القرآن شيء فى شأن أبي طالب ؟

ذكر العلماء أنه قد نزلت آيات عدة تشير إلى موقف أبي طالب من الاسلام ، وموقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه ..

(١) وأولى الآيات التى نزلت فى شأن أبي طالب ـ كما يقولون ـ هى قوله ـ تعالى :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣٥)

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : عن ابن عباس رضى الله عنه : هذه الآية خاصة بأبي طالب ينهى الكفار عن إيذاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتباعد عن الايمان به .

ويذكر فى ذلك خبرا عن ابن عباس أيضا ـ قال :

---

(٣٥) الأنعام ٢٦

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج إلى الكعبة يوما وأراد أن يصلى فلما دخل فى الصلاة قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ : من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ؟

فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثا ودما فلطخ به ثوب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانفتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صلاته ثم أتى عمه أبا طالب فقال : يا عم ألا ترى ما حدث لى

فقال أبو طالب : من فعل هذا بك ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يابنى من فعل بك هذا ؟

فقال النبى : عبد الله بن الزبعرى .

فقام أبو طالب ووضع السيف على عاتقه ، ومشى معه حتى أتى القوم ، فلما رأوه قد أقبل جعل القوم ينهضون .

فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لضربته بسيفى ، فقعدوا حتى دنا إليهم ، فقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يابنى من فعل بك هذا ؟ . .

فقال النبى عبد الله بن الزبعرى .

فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ وجوههم ولحاهم وثيابهم ، وأساء لهم القول ، فنزلت هذه الآية

« وهم ينهون عنه وينأون عنه . . »

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا عم نزلت فيك آية .

قال : وما هى ؟

قال : تمنع قريشا أن تؤذينى وتأبى أن تؤمن بى ـ وتلا الآية ـ

فقال أبو طالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار سبة لوجدتنى سمحا بذاك يقينا[٣٦]

وإن كان ابن كثير فى تفسيره يقول : إن الآية نزلت فى جميع عمومة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا عشرة ، فكانوا أشد الناس معه فى العلانية وأشدهم عليه فى السر ، وقد تكلم النقاد فى هذا الخبر الذى رواه ابن كثير عن سعيد بن أبى هلال .

ولكن المشهور عند الرواة أنها نزلت فى شأن أبى طالب ، لأنه الوحيد الذى ينطبق عليه الوصف الوارد فى الآية الكريمة .

وقد سأل الصحابة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل تنفع أبا طالب نصرته للإسلام ؟

قال : « نعم رفع عنه بذاك الغُلَّ ، ولم يقرن مع الشياطين ، ولم يدخل فى جُبِّ الحيَّات والعقارب ، وهو أهون أهل النار عذابا »

عبد الله بن الزبعرى يسلم بعد ذلك ويعتذر :

وقد أسلم عبد الله بن الزبعرى فى عام الفتح وحسن إسلامه ، واعتذر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقبل عذره ، ومدح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقصائد حسان . منها قوله :

---

(٣٦) تفسير القرطبى ـ سورة الأنعام ـ ص ٢٤٠٢ ط دار الشعب

يا خير من حملت على أوصالها عَيْرَانَةٌ سُرُح اليدين غشوم[37]
إنى لمعتذر إليك من الذى أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى خطة سهم وتأمرنى بها مخزوم
فاليوم آمن بالنبى محمد قلبى ، ومخطىء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها وأتت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداى كلاهما زللى فانك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه شرفا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق حقا وأنك فى العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى مستقبل فى الصالحين كريم

وحكى فى سبب إسلامه أنه لما فتحت مكة هرب عبد الله إلى نجران ، فقال حسان بن ثابت فى شأنه :-

لاتعدَمَنْ رجلا أحلك بغضه نجران فى عيشٍ أحذَّ لئيم

فلما سمع ذلك - عبد الله - رجع إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فاعتذر إليه وأسلم ، وقال :

يا رسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور
أذهَبَ اللّه ضِلَّةَ الجهل عنا وأتانا الرخاء والميسور[38]

---

(٣٧) عيرانة : ناقة
(٣٨) أسد الغابة لابن الأثير جـ٣ ص ٢٣٩

(٢) ونزل أيضا فى شأن أبى طالب قوله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣٩)

(٣) وقد نزلت فى أعقاب آية أخرى هى قوله ـ تعالى ـ

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ (٤٠)

فقد روى مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جاءه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا عم قل لاإله إلا الله أشهد لك بها عند الله .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ـ أترغب عن ملة عبد المطلب ؟

فلم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه ويعيد تلك المقالة حتى مات أبو طالب . .

---

(٣٩) القصص ٥٦
(٤٠) التوبة ١١٣ ، ١١٤

فكان آخر ما كلمهم : إنه على ملة عبد المطلب . .
وأبى أن يقول لا إله إلا الله محمد رسوا الله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فأنزل الله عز وجل قوله

« ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى . . »
وقوله

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

فكانت هذه الآيات ناسخة لاستغفار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمه ، فإنه استغفر له بعد موته ، على ما روى فى كتب الثقات .

وفاة السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ

بعد وفاة أبى طالب بقليل ، توفيت السيدة ـ خديجة بنت خويلد ـ رضوان الله عليها . قيل إنها ماتت بعده بثلاثة أيام .

وكانت بالنسبة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم المناصرة والمؤازرة والمواسية . .

وقد أنجبت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولاده كلهم ما عدا إبراهيم
قال ابن الأثير : اختلف العلماء فى أولاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خديجة .

فيقال : إنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر ، وولدت أيضا القاسم وبه كان

يكنى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال : إن القاسم عاش حتى مشى . أما الطاهر فمات صغيرا وقيل : إن الذكور الذين ولدتهم هم القاسم والطاهر والطيب وأما الإناث فهن : زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية . وقد مات الذكور قبل الإسلام ، أما الإناث فقد أدركن الإسلام وهاجرن معه واتبعنه وآمنَّ به . .

وذكر الرواة أن الطاهر لقب لعبد الله ـ ويقال إنه أيضا كان يلقب بـ « الطيب »

وقد علمنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزوج السيدة خديجة قبل البعثة بخمس عشرة سنة ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة .

وقد رأت علامات النبوة فيه ، وكان هذا هو ما رغبها فى الزواج منه ووقفت بجانبه حين أوحى إليه تشد من أزره وتساعده ، ويكفى أن تكون هى أول من آمن به من البشر على الاطلاق . .

بل لعلها قد آمنت به نبيا ورسولا قبل أن يبعث حين استيقنت بوجود العلامات التى أخبر بها علماء أهل الكتاب عن النبى المنتظر فيه .

ولذلك قالت له حين جاء يرجف من الغار بعد أن رأى المَلَكَ ، ويقول

دثرونى دثرونى ـ قالت له : والله لن يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . وقد ورد فى شأن خديجة ـ رضى الله عنها ـ آثار عدة تذكر فضلها ، وتبين منزلتها عند ربها ـ جل وعلا ـ

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ خير نساء

العالمين مريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ـ ﷺ ـ[٤١]

وروى أحمد فى مسنده عن ابن عباس قال : خط رسول الله ـ ﷺ ـ فى الأرض أربع خطوط ثم قال : أتدرون ماهذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون .[٤٢]

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ بشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .[٤٣]

لقد كان إسلام خديجة كما قلنا مبكرا جدا ، بل هى أول من أسلم . ذكر ابن سعد فى طبقاته قال : مكث رسول الله ـ ﷺ ـ وخديجة يصليان سرا ماشاء الله .

ويورد الخبر الآتى بعد ذلك ليدل على أن ثالث المسلمين هو على بن أبى طالب فيقول : ـ عن عفيف الكندى قال :

جئت فى الجاهلية إلى مكة ـ وأنا أريد أن أبتاع لأهلى من ثيابها وعطرها ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب .

---

(٤١) أخرجه ابن مردويه من طريق أبى جعفر الرازى ـ وذكره ابن كثير فى تفسيره عند قوله ـ تعالى ـ إن الله اصطفى آدمونوحاً ..... الخ

(٤٢) مسند أحمد ١ / ٣١٦

(٤٣) أسد الغابة جـ ٧ ص ٨٣

قال : فأنا عنده وأنا أنظر إلى الكعبة ، وقد حلقت الشمس فارتفعت ، إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة ، فرفع رأسه إلى السماء فنظر ، ثم استقبل الكعبة قائما فبينما هو مستقبلها ، إذ جاء غلام حتى قام عن يمينه ، ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما . ثم ركع الشاب ، فركع الغلام ، وركعت المرأة ، ثم رفع الشاب رأسه ورفع الغلام رأسه ورفعت المرأة رأسها .

ثم خر الشاب ساجدا وخر الغلام ساجدا وخرت المرأة ساجدة

قال : فقلت : ياعباس إنى أرى أمرا عظيما .

فقال العباس : أمر عظيم ، أتدري من هذا الشاب ؟

قلت : لا ، ماأدرى .

قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخى . هل تدرى من هذا الغلام ؟

قلت : لا ، ماأدرى .

قال : علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن أخى . هل تدري من هذه المرأة ؟

قلت : لا ـ ماأدرى .

قال : هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخى هذا ـ إن ابن أخى هذا الذى تراه ـ قد حدثنا أن ربه رب السموات والأرض ـ أمره بهذا الدين الذى هو عليه ، فوالله ماعلمت على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

قال عفيف : فتمنيت بعد أنى كنت رابعهم[٤٤]

توفيت خديجة ـ رضوان الله عليها ـ لعشر خلون من رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ، وسنها إذ ذاك خمس وستون سنة . .

وقد حزن النبى ـ ﷺ ـ على فقد خديجة ـ رضوان الله عليها ـ ولكنه حزن الانسان الوفى لزوجته الوفية ، وليس حزن الجازع من قضاء الله وقدره .

ودفنت بالحجون ، ولم تكن صلاة الجنازة قد شرعت بعد .

لم سمى هذا العام عام الحزن ؟

وقد أُطْلِق على العام الذى مات فيه أبو طالب وأم المؤمنين ـ خديجة ـ عام الحزن وسمى بذلك لوفاة هذين العضدين القويين فى وقت واحد ، فتتابعت على اثرهما أحداث جسام على النبى ـ ﷺ ـ

ولابد أن نلاحظ أن النبى ـ ﷺ ـ لم يطلق على هذا العام هذه التسمية ، ولكنها من تسميات الرواة وأصحاب السير . .

والتعليل السليم لهذه التسمية أن النبى ـ ﷺ ـ تعرض لأذى شديد كانت تخبئه قريش له ، لقد وجدتها فرصة سانحة للنيل منه ، فوقفت فى طريقه بكل قوتها ، بعد أن انزاح من طريقها الرجل الذى كانت تخشى بأسه ، وفقد النبى ـ ﷺ ـ بفقد عمه الصدر الحنون الذى كان يخفف عنه مايلقاه من شدة وبأس .

---

(٤٤) الطبقات جـ ٦ قسم ٢ ص ١١

لقد وَجَد بعد وفاتها كثيرا من المصاعب والمشاق تقف فى طريق دعوته ـ فمن هنا كان حزنه . . . . كان حزنه بسبب خوفه من العجز أو التقصير فى إبلاغ رسالة ربه التى كلف ابلاغها . فهو حزنٌ مبعثه الايمان القوى بربه ، والاخلاص فى تبليغ دعوته ، ولذلك كان القرآن الكريم لايكف عن مواساته وتخفيف لواعج الأسى التى تعتريه ويطلب منه الصبر ـ ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٤٥)

إن أهم ماكان يشغل بال النبى ـ ﷺ ـ هو الدعوة وابلاغها ، وأكثر ماكان يحرص عليه هو هداية قومه . . ولذلك كان يأسى حين يرى هذا الاعراض الشديد ، والتمادى فى الباطل والتحدى البالغ للدعوة . . حتى قال له الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (٤٦)

ولايمنع ذلك ان يكون قد حزن على فقد عمه وزوجته ، ولكن حزنه

---

(٤٥) الأنعام ٣٣ ، ٣٤

(٤٦) الكهف ٦

حزن المؤمن بقضاء الله وقدره الذى ينظر فيجد أحب الناس إليه قد ورى التراب .

فكان ﷺ ـ فى حزنه قدوة لأمته . . قد تدمع العين ويحزن القلب ولكن اللسان لا يلفظ إلا بالحق والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره .

ان الموت قدر الله الغالب ، لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب ، والنبى ـ ﷺ ـ يعرف تماما بل هو أصدق العارفين أن الموت نهاية كل حى ، وأن حكمة الحياة والموت تكمن فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (٤٧)

كان حزنه حزن الانسان المؤمن ذى القلب الكبير الذى يستوعب حقائق الدين وحكمته الغالبة . .

وقد أراد الله أن يبتليه لأن سنة الله جرت بأن يكون أشد الناس بلاء هم الأنبياء . .

ومع ذلكَ فلم يفت هذان الحدثان الجليلان فى عضده ، بل انطلق فى طريقه يبشر برسالة ربه ، وهو أشد مايكون مضاء وأقوى مايكون عزما ، فى الوقت الذى استجمعت فيه قريش كل بطشها وجبروتها فى محاولة القضاء على هذا الرجل الذى جاء ليهديها ويأخذ بيدها من الهلاك الى النجاة فصارت حاله مع قريش حال من يقول : أريد حياته ويريد قتلى . .

---

(٤٧) الملك ٢

الرحلة إلى الطائف

- تفكير النبي في الاستعانة بثقيف .
- سوء استقبال الثقفيين له .
- مناجاة وضراعة .
- مكاسب من الرحلة .
- إيمان الجن .
- الرجوع إلى مكة .
- المطعم بن عدي يجير الرسول - صلى الله عليه وسلم .
- دروس في هذه الرحلة .
- حراسة وتأييد من السماء .
- النبي يصرع ركانة أقوى رجل في قريش .
- إسلام الطفيل بن عمرو الأزدي .



سوء استقبال

وكان فى طريقة يدعو القبائل التى يمر بها إلى الاسلام ، ولكن تلك القبائل كانت ترفض دعوته . . واستمر فى سيره حتى وصل الى الطائف ـ وكان بها ثلاثة إخوة هم رؤساء ثقيف :

وهم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى . . وقد استقبله هؤلاء الأخوة أسوأ استقبال ، وتهكموا به وسخروا منه :

قال أحدهم : إنه يمرط ثياب الكعبة ـ أى يمزقها ـ إن كان الله أرسله .

وقال له الأخر : أما وجد الله أحدا غيرك يرسله ؟

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، إن كنت رسولا لأنت أعظم خطر من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فماينبغى أن أكلمك . .

فقال لهم ـ بعد أن يئس من استجابتهم له ـ : أمّا إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى .

لقد خشى ـ ﷺ ـ شماتة قريش به ، والشماتة مرة ، والشاعر العربى يقول :

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهـون غير شـماتة الحسـاد

ولكنهم لم يكونوا جديرين بالمروءة . . فقد اشاعوا ماقالوه للنبى ـ ﷺ ـ وأصبح النبى ـ ﷺ ـ ولا مقام له بين هؤلاء القوم الذين لم يرعوا حرمة القرابة ولا الضيافة ولا الانسانية . .

أما القرابة فقد قال بعضهم إن ثقيفا من أخوال النبى ـ ﷺ ـ وهم لم يراعوا ذلك .

أما الضيافة فهو وافد اليهم ضيف عليهم . وللضيف حق الاكرام مهما كان الخلاف معه هذا شأن العرب الكرام ..

وأما الانسانية ، فهو مستنجد بهم على قومه الذين اشتد ايذاؤهم له والعرف يقضى بأن يمد الإنسان يده لمن استجار به .. وهم لم يفعلوا ذلك .. بل فعلوا عكس ذلك ..

فقد أمعن هؤلاء الثقفيون فى سوء المعاملة ، وقبح الفعال ، فقد أغروا به سفهاءهم بعد أن قالوا له : اخرج من بلادنا . ـ ثم أغروا به وهو خارج من القرية وقعد الصبيان والسفهاء له صفين وأخذوا يكيلون له السباب ويقذفونه بالحجارة حتى دميت عقباه .. واختضبت نعلاه بالدماء ، وحاول زيد بن حارثة أن يقيه بنفسه فأصيب فى رأسه بالحجارة فشج وسال منه الدم .. ومازال كذلك حتى لجأ إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة على بعد ثلاثة أميال من الطائف .. فجلس فى ظله يستريح من التعب ، وعاد السفهاء يتضاحكون ويعبثون ، وكأنهم غنموا غنما ، وانتصروا على عدو جاء يغزو بلادهم ويسلب أموالهم ..

يالسوءة : هؤلاء من هذه الفعلة التى سودت وجوههم فى التاريخ ، وذكرت الناس بما فعله اسلافهم مثل : مسعود بن معتب الثقفى وغيره من رجال ثقيف حينما قالوا لأبرهة وهو فى طريقه لهدم الكعبة : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون وليس بيتنا هذا الذى تريد ـ يعنون بيت اللات التى يعبدها الثقفيون ـ انما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث

معك من يدلك عليه ، فبعثوا معه أبارغال حتى إذا بلغ المغمس ـ مكان بطريق الطائف ـ مات فرجمت العرب قبره[٤٩] . . .

لقد كان بامكانهم ان يرفضوا دعوة الرسول دون ان يسيئوا إليه . . وهو الذى جاء إليهم مستجيرا وداعيا . . ولكنهم ضربوا بالأخلاق العربية المتوارثة عرض الحائط ، وأعماهم التعصب الأعمى والحقد الأسود عن تبين وجه الرشد ، وكان الشيطان راكبا رءوسهم فسول لهم ماصنعوا . .

لقد كان فعلهم قاسيا على قلب المصطفى ـ ﷺ ـ ولم يكن يتوقع منهم هذه المقابلة السيئة التى لم يجربها عرف عربي ولا ذوق أدبي . . حتى قالت السيدة عائشة رضى الله عنها ـ للنبى ـ ﷺ ـ هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟

قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ماأردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق مما أنا فيه إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك ومارَدّوا به عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بماشئت ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم علىَّ ، ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك ومارَدُّوا عليك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى إليك ربى لتأمرنى بأمرك . . . إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .

---

(٤٩) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٨٢

قال النبى - ﷺ - بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لاشريك له .

ماأحلمك وماأرحمك يارسول الله .. لقد كان بوسعه بعد هذا اللقاء الشرس والمقابلة السيئة ان يدعو عليهم فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . ولكنه كان رحمة مهداة .. ولذلك قال له الملك : صدق من سماك الرءوف الرحيم .. أجل فقد سماه الله جل وعلا بذلك فى محكم كتابه - قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٥٠)

مناجاة وضراعة

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - عقب هذه المقابلة وجلوسه تحت حائط عتبة .. قد رفع يديه إلى الله فى ضراعة واسترحام ، وناجى ربه بهذه المناجاة الرائعة :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل

---

(٥٠) التوبة ١٢٨

عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

إنها قمة الاستكانة والرضا بقدر الله .

بل هي قمة الحب والاقبال على الله . .

فهو لا يبالى بما لقى من عذاب فى سبيل الله . . بل انه ليعتذر عن التقصير فى جنب الله وانه ليخشى أن يكون ما أصابه ذلك نتيجة فتور أو تقصير . . وما قصر وما فتر . ولكنه الاخلاص المفرط الذى يجعله يستهين بحياته ويستقل قصارى جهده فى سبيل الله . .

ولقد فجرت هذه المناجاة الصادقة الرحمة من الصخور الصماء . . فألانت قلبى صاحبى البستان ، وجعلتهما يستدعيان غلامهما النصرانى « عداساً » ويأمرانه بأن يحمل قطفاً من العنب فى طبق إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرغم من أنهما كافران .

لقد كان هذان الرجلان بالأمس القريب فى مكة من الذين يحملون أعباء المقاطعة الصارمة التى فرضت على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ـ ومن الذين يحملون لواء المعارضة الشديدة للدعوة ويشجعون على التنكيل بالمسلمين ـ فما بالهم الآن يغيران موقفهما وينظران إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغير العين التى كانا ينظران إليه بها ؟

إنه اللطف الالهى الذى يصاحب عنفوان الابتلاء ، وهو اليسر الذى يصاحب العسر ، وهو معنى الحكمة الرائعة التى تقول : « من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره »

وحمل الغلام الطبق الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقدمه إليه . ومد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده إلى القطف قائلاً : باسم الله ـ ثم أكل ـ

فتعجب الغلام وقال : إن هذا كلام ما يقوله أهل هذه البلاد فمن أين لك ذلك ؟

فأقبل النبى عليه الصلاة والسلام على الغلام وسأله قائلاً : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟

فقال عداس : أنا نصرانى من نينوى »

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلد الرجل الصالح يونس بن متى .

فقال عداس : وما أدراك ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه أخى ، هو نبى وأنا نبى .

فأكب عداس على رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويديه يقبلها . . وقد غلبته عبرة الايمان والصفاء الروحى التى تساعدها رقة القلب وبشاشة اليقين .

مكاسب من الرحلة

لم تكن الرحلة الى الطائف بدون فائدة على أى حال . .

لقد كسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خلالها رجلاً . . وهداية رجل واحد تعدل الدنيا بما فيها ـ كما جاء ذلك فى أثر شريف عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أهون المشقة إذن فى سبيل الله . . لقد تبدد تعب كل هذه الأيام ، وذهبت ضراوة تلك الآلام . وشعر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك البلسم الذى يشفى جراح الروح عقب المعارك القاسية التى كانت كثيراً ما تدور بينه وبين الخصوم . .

وعاد عداس إلى صاحبيه . . وقد قال أحدهما للآخر بعد أن رآه يقبل رأس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويديه لقد أفسد محمد عليك غلامك .

وكأنهما تذكرا خصومتهما الدفينة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن ذلك العطف المفاجىء على النبى كانت قد حركته الرحم والعصبية ، ولكنه سرعان ما تبدد حين رأيا شعاع الايمان يضىء ويظهر أثره على الغلام .

وأقبلا على الغلام يقولان له : ويحك ما هذا الذى صنعت ؟

فأجاب الغلام فى ثقة واعتداد : يا سيدى ما على الأرض أفضل من هذا الرجل لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى .

قالا له : ويحك يا عداس . لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فإن دينك خير من دينه .

ولكن عداسا كان فى واد وهما فى وادٍ آخر . . لقد انصرف إلى عمله دون أن يرد عليهما . .

ويدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحلة العودة من الطائف الى مكة . . وقلبه مملوء بالثقة فى الله واليقين الكامل بأن هذا الدين سوف يغزو الآفاق ، وسوف يظهره الله على الدين كله . إن الله معه ولن يتخلى عنه . . وها هو ذا قد رأى جبريل ينزل إليه بأمر ربه ويخبره أن الله معه ، وأنه يستجيب لدعائه ، وها هو ذا ملك الجبال يقول له : مرنى أن أطبق عليهم الأخشبين ، وهما الجبلان المحيطان بمكة . ويمكن أن ينصرف الضمير فى عليهم إلى أهل مكة لأنهم هم الذين آذوه أولاً واضطروه إلى اللجوء لأهل ثقيف .

ويمكن أن ينصرف أيضاً الى أهل ثقيف ، وذلك بأن يقتلع الجبلان من مكانهما ثم يطبقان عليهم فلا يبقى منهم أحد وما ذلك على الله بعزيز .

وليس ذلك أمراً غريباً أو مستبعداً فطالما أهلك الله المكذبين بالرسل بطرق مختلفة من العقاب . فأهلك عادا بالريح ، وقوم نوح بالغرق وحمل جبريل على جناحه قرى قوم لوط ورفعها إلى السماء ثم ألقى بها . . وسبق أن أُرْسِلت الصواعق والصيحات على المكذبين . .

إن إطباق الجبلين على هؤلاء القوم ليس أمراً غريباً ، بل هو الجزاء الوفاق لهذا التكذيب المتوالى طوال عشر سنوات ، ومع التكذيب إيذاء عنيف وحصار وتجويع ومقاطعة مما دفع المسلمين الى الهجرة الى الحبشة مرتين .

ولكن الغريب هو تلك الرحمة الشاملة ، والرفق العظيم ، والتسامح الكريم والحلم الذى لا حدود له . . ذاك الذى تجلى فى قول المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . .
ولعل الله أن يُخْرِج من أصلابهم من يوحد الله . .

وصدق توقع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد خرج من أصلابهم من أسلم وحسن إسلامه ، وآمن وصدق إيمانه ، وحمل راية الجهاد فى سبيل نشر هذا الدين الذى عارضوه فى البداية بكل ما أوتوا من قوة ، فإذا بهم يؤيدونه بكل ما أوتوا من قوة أيضاً .

إيمـــان الجـــن

ومضى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه زيد بن حارثة فى طريقهما الى مكة ، وهناك فى وادى نخلة أقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قليلاً ليستريح فى مكان به مسيل ماء وقام فى ليله متهجداً يعبد الله . وإذا بنفر من

الجن يقبلون عليه فينصتون إلى ما يتلو من قرآن فيسلمون ، ولنستمع الى هذه القصة كما وردت فى كتب التفسير :

قال القرطبى : حين يئس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل ثقيف انصرف حتى إذا كان ببطن نخلة قام من الليل يصلى ـ فمر به نفر من جن أهل نصيبين ، وكان سبب ذلك أن الجن كانوا يسترقون السمع ، فلما حرست السماء ورُموا بالشهب قال إبليس : إن هذا الذى حدث فى السماء لِشَيْء حدث فى الأرض ، فبعث جنوده ليعرفوا الخبر ، فانتشروا فى كل مكانٍ فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى صلاة الغداة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له ، وقالوا : أنصتوا(٥١).

وقصة إيمان هؤلاء النفر من الجن مذكورة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾(٥٢)

« وذكر بعض المفسرين أن هؤلاء النفر كانوا سبعة ، وقد أمرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إسلامهم أن ينذروا قومهم ، ويرى بعض

---

(٥١) تفسير القرطبى ـ سورة الاحقاف ـ ص ٦٠٣١ ـ ط دار الشعب

(٥٢) الاحقاف ـ ٢٩ : ٣٢

المفسرين أن إسلام الجن لم يكن فى هذه الليلة وإنما كان فى أول البعثة وقد عرضنا لذلك بالتفصيل فيما سبق .

كيف دخل النبى - صلى الله عليه وسلم - مكة ؟

عاد النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة وبلغ حراء ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل مكة على قريش وقد أخرجوك ، فذهبت تستنصر عليهم فلم ينصرك أهل الطائف .. فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

لم ييأس النبى - صلى الله عليه وسلم - لحظة .. بل كان فى أشد الساعات حلكة يرقب طلوع الفجر . وكيف ييأس وقد أنزل الله عليه قوله

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨ ﴾ (٥٣)

وأرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فيدخل مكة آمناً ، فقال له الأخنس : أنا حليف والحليف لايجير - وهذا حق .

ولكن من الأخنس هذا ؟

إنه الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب أصله من ثقيف ، فهو ثقفى ، ويكنى أبا ثعلبة .

---

(٥٣) سورة الشرح

فلم يكن قرشياً ، ولكنه كان حليفاً لبنى زهرة قوم خديجة ـ رضوان الله عليها ـ واسمه أبيّ ـ وإنما لقب بالأخنس فغلب عليه اللقب وسبب هذا اللقب أنه كان ذا دهاء وحيلة ومكر . . أشار على حلفائه بنى زهرة وكانوا ثلثمائة رجل يوم بدر بعدم الخروج مع قريش ، قال لهم : قد نجى الله عيركم التى مع أبى سفيان فلا حاجة لكم فى غيرها ، فعادوا فلم يقتل منهم أحد ببدر . فقالوا : خنس بهم الأخنس ـ ومعنى خنس : وسوس وزين .

وكان الأخنس من أشد المشركين على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان داهية فى لسانه حلاوة ، وفى منظره حسن وجمال . . . وبعد موقعة بدر ، جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأظهر الاسلام ، وقال : الله يعلم أنى صادق ، ثم هرب بعد ذلك ، فمر بزرع لقوم من المسلمين ، وبحمر ، فأحرق الزرع وعقر الحمر . فنزل فيه قوله ـ تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[٥٤]

وذكر بعض الرواة أنه لم يعد الى الاسلام بعد ذلك .

ولكن البعض يقول : إنه أسلم يوم الفتح وأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع المؤلفة قلوبهم وتوفى أول خلافة عمر ـ رضى الله عنه[٥٥] ـ والمهم هنا أن الأخنس رفض أن يجير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(٥٤) سورة البقرة ٢٠٤ : ٢٠٦

(٥٥) راجع أسد الغابة جـ ١ ـ ص ٦٠ وتفسير القرطبى جـ ٣ ، ص ١٤ ط دار الكتب

بحجة أنه ليس قرشياً ، وإنما هو حليف لبنى زهرة فقط ، فكيف يجير عليهم ؟

فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى سهيل بن عمرو يطلب جواره . .

فمن سهيل بن عمرو؟

هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس وهو أحد أشراف قريش وعقلائهم وخطبائهم وكان كثيراً ما يقوم بينهم خطيباً يهاجم الاسلام ونبى الاسلام . . وقد أسر يوم بدر . وكان مشقوق الشفة العليا ـ فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله ، أنْزِعُ ثَنِيَّتَيه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً نحمده عليه .

وصدق قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه بعد أن ارتد العرب بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ارتجت مكة ، واختفى عتاب بن أسيد أمير مكة . . . . فقام سهيل بن عمرو ـ خطيباً فقال : يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله إن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما . .

فثبت القرشيون على الاسلام ، وعاد عتّاب بن أسيد إلى عمله . ومما يحمد له قوله الآتى فى بعض مواقفه :

حضر الناس باب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بعد خلافته ، ومنهم سهيل بن عمرو ، وأبو سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ،

وأولئك الشيوخ من مسلمى الفتح ، فخرج آذن عمر ، فجعل يأذن لأهل بدر كصهيب ، وبلال ، وعمار وأمثالهم أولاً . .

فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلْتَفتُ إلينا .

فقال سهيل ـ ويا له من رجل ، ما كان أعقله ـ : أيها القوم ، إنى والله قد أرى ما فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذى تنافسون عليه .

ثم قال : أيها الناس ، إن هؤلاء سبقوكم بما ترون ، فلا سبيل والله إلى ما سبقوكم إليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه ، عسى الله أن يرزقكم الشهادة ثم نفض ثوبه وقام ـ فلحق بالشام .

وقد أسلم سهيل يوم الفتح ، وهو الذى كان يفاوض عن قريش مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الحديبية .

ذكر ابن سعد قال : لم يكن أحد من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم الى يوم الفتح أكثر صلاة ولا صوماً ولا صدقة ، ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الأخرة ـ من سهيل بن عمرو ـ حتى إنه قد شحب لونه . . وكان كثير البكاء ، رقيقاً عند قراءة القرآن ، وكان يختلف الى معاذ بن جبل يقرئه القرآن وهو يبكى ، حتى خرج معاذ من مكة ، فقال له ضرار بن الأزور : يا أبا يزيد ، تختلف إلى هذا الخزرجى يقرئك القرآن ؟ ألا يكون اختلافك الى رجل من قومك ؟

فقال : يا ضرار ، هذا الذى صنع بنا ما صنع ، حتى سُبِقْنَا كل السبق . . .

لقد وضع الاسلام أمر الجاهلية ، ورفع الله أقواماً بالاسلام كانوا فى الجاهلية لا يذكرون ، فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا ، وانى لأذكر ما قسم الله لى فى تَقدم أهل بيتى الرجال والنساء ، ومولاى عمير بن عوف فأسرُّ به ، وأحمد الله عليه ، وأرجوا أن يكون الله نفعنى بدعائهم ، وإلا فقد كان من الممكن أن أهلك على ما مات عليه نظرائى وقتلوا ـ فقد شهدت مواطن كثيرة وأنا فيها معاند للحق .. يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الخندق ، وقد وَليت أمر الكتاب يوم الحديبية يا ضرار إنى لأذكر مراجعتى رسول الله يومئذ ، وما كنت ألتزم به من الباطل ، فأستحى من رسول الله وأنا بمكة وهو يومئذ بالمدينة ، ثم قتل ابنى عبد الله يوم اليمامة شهيداً ، فعزانى به أبو بكر وقال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الشهيد ليشفع لسبعين من أهل بيته » وأنا أرجو أن أكون أول من يشفع له(٥٦) .

وقد خرج سهيل مجاهداً الى الشام ، ومات فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة فى خلافة عمر ـ رضى الله عنه ـ

سهيل هذا الذى أسلم فحسن إسلامه ، وآمن فصدق إيمانه ، هو الذى أرسل إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلب جواره عقب عودته من ثقيف ليدخل مكة آمناً فى جواره . . . ولكن سهيلاً رد عليه قائلاً : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب .

---

(٥٦) أسد الغابة جـ٢ ص ٤٨٠

انظر كيف بدل الاسلام نفوس الناس وأخلاقهم ؟ ؟

المطعم بن عدى يجير النبى

واضطر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يرسل الى المطعم بن عدى - ليجيره ، فأقبل المطعم ومعه بنوه وقد تسلحوا وخرجوا حتى أتوا المسجد . فقام المطعم على راحلته فنادى يا معشر قريش إنى قد أجرت محمداً فلا يتعرض له أحد منكم .

ودخل النبى - صلى الله عليه وسلم - مكة آمناً ودخل المسجد وطاف بالبيت وصلى عنده ، ثم انصرف الى منزله . .

وقيل : إن المطعم وبنيه كانوا مدة طواف النبى - صلى الله عليه وسلم - جلوساً محتبين بحمائل سيوفهم حول الكعبة محدقين بها . فأقبل أبو سفيان فقال للمطعم : أمجير أم تابع ؟ فقال : بل مجير .

فقال أبو سفيان : إذن لا نخفر جوارك ، قد أجرنا من أجرت . وجلس معه حتى قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طوافه . .

ولا عجب فى دخول النبى - صلى الله عليه وسلم - مكة فى جوار رجل مازال على الكفر - فحكمة الله هى التى تؤكد ذلك . . . وهذا يؤكد مضمون الحديث الذى يقول فيما معناه : إن الله يؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أتباعه ، وربما كانوا من المعادين له .

والحكمة تقضى بسلوك الأسباب التى تعين على تحقيق الغاية ، مادامت هذه الأسباب لا تجافى الشرف ولا تهتك حجاب الأخلاق . . وهذه الحكمة هى التى تفرض على المسلمين الآن أن يستعينوا بوسائل القتال التى يصنعها أعداء الاسلام . فى قتال أعداء الاسلام . . . وقد حفظ النبى - صلى الله عليه وسلم - للمطعم هذه اليد ، وكان النبى ﷺ ودوداً وفياً . . فقد وفد

جبير بن مطعم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكلمه فى أسارى بدر فقال له : « لو كان الشيخ أبوك حياً فأتانا فيهم لشفعناه » .

وكان المطعم من عقلاء قريش ، وهو أحد الذين قاموا فى نقض الصحيفة ، وقد مرت الاشارة الى ذلك .

تأملات فى رحلة الطائف

لو نظرنا الى هذه الرحلة الشاقة التى قام بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوجدنا أنه لم يقصر فى أى أمر يخدم الدعوة الاسلامية مهما كانت تبعاته . فقد كان يبذل قصارى جهده فى تبليغ رسالة ربه . . صابراً على ما يلاقيه من جهد ومشاق ، محتسباً ذلك عند ربه ـ جل جلاله .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلاً أعلى فى الجهاد والصبر والرضا واليقين ، ولا يظن ظان أنه حين ناجى ربه بعد خروجه من الطائف بهذه الصورة المؤثرة كان متبرماً أو يائساً أو جزعاً . . ولكنها كانت مناجاة مبعثها اللجوء الى جنب الله والتقرب إليه بالدعاء ليجد الراحة فى ذلك .

لقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الدعاء مخ العبادة ، وأن إظهار الشكوى الى الله هو قمة الايمان به والرضوخ له والاعتراف التام بالعجز أمام قوته وعظمته وقد أمرنا الله أن نتعبد بالدعاء إليه فقال فى كتابه

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (٥٧)

---

(٥٧) الفرقان ٧٧

ونعى على قوم أنهم لم يرفعوا إليه أكف الضراعة حين مسهم الضر فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٥٨)

قال ذلك بعد أن بين أنه بالدعاء تفرج الكروب وتذهب المكاره وتنزاح الضوائق قال تعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٥٩)

وقد وعد الله باستجابة الدعاء فقال :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٦٠)

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (٦١)

---

(٥٨) الانعام ٤٢ ، ٤٣

(٥٩) الانعام ٤٠ ، ٤١

(٦٠) غافر ٦٠

(٦١) البقرة ١٨٦

فالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مناجاته ربه متأدب بأدب القرآن ، لاجىء الى جناب الله القوى ، ضارع إليه بلسان الخضوع والانكسار اعترافاً بعزته واحتماء بكنفه . ومع ذلك فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قمة فى الصبر ، متلذذاً بما يلقاه فى سبيل مولاه من أذى وضر ، حتى لقد قال : إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى . . . وهو صلى الله عليه وسلم ـ فى مناجاته لربه ودعائه إياه يعلمنا كيف نقف أمام الله ، ونتأدب بأدب الاسلام بحيث نقف أمام امتحان الله موقف الضعيف المستغيث . . وإن من أعظم الدروس التى يجب أن نعيها فى هذه الرحلة ما تفيض به من دلائل الرحمة على الرغم مما صاحبها من عنف وقسوة . .

فهذان ابنا ربيعة وهما اللذان كانا من أشد المعارضين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن المشاركين فى حصار المسلمين وإيذائهم ، ومن الذين عرضوا على أبى طالب أن يسلمهم محمداً ليقتلوه وليأخذ من الدية ما شاء أو من البدل من يشاء ـ إذ بنا نراهما بالرغم من مشاركتهما فى كل ذلك يُسَخَّران بإرادة الله وقدرته ويرسلان الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الفاكهة ما يدفع عنه قسوة الجوع وشدته . . وقد كان بوسعهما التخلص منه ، أو الشماتة به على الأقل ، أو مظاهرة أهل ثقيف عليه . .

وما أروع نظر الله الى نبيه وإرساله الملكين ليكونا طوع أمره فى الانتقام من أعدائه ـ ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان كشأنه دائماً رحمة مهداة . . مصداقاً لقول الحق

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (٦٢)

---

(٦٢) الانبياء ١٠٧

وكان إيمان عداس النصرانى دليلاً ملموساً على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعد من رحلته هذه خالى الوفاض . بل انها كانت رحلة ناجحة بمختلف المقاييس ، فقد كشفت عن وجه ثقيف الكالح ، كما أضافت الى الاسلام عناصر جديدة تؤكد عالمية الاسلام ، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن رسولاً للعرب فحسب ، ولا للبشر فحسب ، ولكنه رسول للبشر جميعاً بل وللجن أيضاً .

أما موقف زيد بن حارثة ، فهو موقف الفدائى البطل الذى حاول الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم بكل ما عنده من جهد . . . وقد أوذى وشج رأسه فى سبيل ذلك . . . . . . وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا يودون لو فدوه بأرواحهم وجوارجهم . .

إن هذه الرحلة تعلمنا أن الجهاد فرض على كل مسلم ، وأن المبادىء لا يمكن أن تنتشر بمجرد الكلام أو الهتاف أو رفع الشعارات ، ولكنها تحتاج إلى كفاح عملى ، وسعى متواصل ، وبذل لكل ما يملك أصحابها من طاقات وجهود ، وقد وعد الله المجاهدين بالثمن الربيح والثواب العظيم فقال :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٦٣)

حراسة وتأييد

استمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة يدعو إلى الله ، ويعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج طالبا منهم الإسلام والنصرة . . وكانت قريش تقف ضد هذه الدعوة وتحذر الوفود من السماع إليه أو الاقبال على

---

(٦٣) العنكبوت ٦٩

دعوته ، ولكن المعجزات التى كان يُؤَيد بها من قبل الله كانت تساعده على تبيلغ هذه الدعوة وتضع له برهانا عمليا ملموسا ينطق بالحق والقوة .

حدَّث ابن هشام فى سيرته قال : كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب أشد قريش قوة وفتوة فخلا يوما برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض شعاب مكة .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك اليه ؟

فقال ركانة : لو أعلم أنك على حق لاتبعتك .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفرأيت إن صرعتك ، أتعلم أن ما أقوله حق ؟

قال ركانة : نعم .

قال : فقم حتى أصارعك .

فقام ركانة يصارعه ـ فصرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مرة بعد مرة .

وذهل ركانة ـ لقد كان يظن أنه لا يستطيع أحد مهما بلغ من قوة أن يصرعه . إنه بطل قريش غير منازع ـ فكيف يصرعه محمد ، وهو دونه قوة وجسما ؟

فقام ركانة وقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : عد يا محمد . .

لقد أراد أن يرد اعتباره ـ كيف يفقد لقب البطولة بهذه السهولة ؟ وكيف يمشى فى مكة يزهو بقوته بعد اليوم وهو مهزوم ؟ وماذا يقول عنه شباب قريش بعد أن علموا أن ركانة البطل قد هزمه محمد وصرعه .

عد يا محمد لاصارعك . هكذا قال ركانة متجديا .

ولم يتوان النبى - صلى الله عليه وسلم - فقام إليه - ولم يلبث أن صرعه مرة أخرى .

فقال ركانة : يا محمد والله ان هذا لعجيب أتصرعنى ؟

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم

وأعجب من ذلك أستطيع أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى .

قال ركانة : ماهو ؟

قال : أدعو هذه الشجرة التى ترى فتأتينى .

قال ركانة - فى تحد - : ادعها .

فدعاها النبى - صلى الله عليه وسلم - فأقبلت الشجرة حتى وقفت بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ثم قال لها النبى - صلى الله عليه وسلم - : ارجعى مكانك - فرجعت مكانها . .

إنها حراسة السماء للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتأييد الله له بالمعجزات حتى يبصر من كان ذا عينين ، ويعقل من كان ذا عقل . . .

ولكن هل أبصر ركانة وسمع ؟ وهاهو ذا قد لمس بنفسه معجزتين . . . إحداهما أنه على الرغم من قوته التى يفتخر بها قد هزم أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - .

لقد كان بين يدى النبى - صلى الله عليه وسلم - كالعصفور أمام نسر قوى جسور . . أية قوة هذه التى مُنحها النبى - صلى الله عليه وسلم - ؟ وأين ذهبت قوة ركانة التى اشتهر بها بين شباب قريش ؟ . . حقا إنه لعجب .

وأما الأخرى فهى تلك الشجرة الراسخة فى مكانها رسوخ الجبل إذ بها تنخلع بجذورها .

ثم تقبل مسرعة حينما صدر إليها الأمر من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمشى على الأرض وتسجد بين يدى النبى . .

كيف تمشى شجرة ؟ بل كيف تسمع وتعقل وتستجيب للأمر ؟ حقا إن هذا لشيء عجاب . .

ولكن الأعجب من ذلك أن ركانة على الرغم من أنه شاهد ماشاهد لم يزده ذلك إلا انصرافا عن الحق ولجاجة فى الشر ، وانصرف ركانة إلى قومه فقال :

يابنى عبد مناف ، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فو الله ما رأيت أسحر منه قط . ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع(٦٤) . .

ويقص ابن الأثير قصة هذه الشجرة فيقول :

لقد طلب ركانة من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريه آية ليسلم ، وقريب منهما شجرة ذات فروع وأغصان ، فأشار إليها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال لها :

أقبلى باذن الله ، وأقبلت حتى كانت بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ركانة : لقد أريتنى عظيما ، فمرها فلترجع ، فأخذ عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ العهد لئن أمرها فرجعت ليسلمن ، فأمرها فرجعت ـ وبالرغم من ذلك لم يسلم ركانة .

---

(٦٤) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٤

قال ابن الأثير : ثم أسلم بعد ، ونزل المدينة ، وأعطاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خيبر . وقيل انه من الذين أسلموا بعد الفتح[٦٥] .

إنها المعجزات المادية التى أيد الله بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكل نبى معجزاته ـ وسنقدم حديثا خاصا إن شاء الله تعالى ـ عن المعجزات ـ وقد كثرت معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت تواتيه بين الحين والحين لتكون شاهد صدق على مايدعو إليه . . . ومن ذلك ما تشير إليه قصة إسلام الطفيل :

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى

والطفيل ـ هو طفيل بن عمرو بن طريف بن العاص ينتهى نسبه إلى الأزد من قبيلة دوس ، الملقب بذى النور . .

ويقص علينا الرواة قصة إسلامه كما أخبر هو نفسه بها ـ فيقولون : قدم الطفيل مكة قبل هجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقف قريش منه هو موقف المعارضة وتحذير الناس ـ وبخاصة الوافدون إلى مكة ـ منهم ، فجاء إليه رجال من قريش يقولون له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل يعنون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أظهرنا ، وقد عضل بنا ـ أى اشتد وغلظ علينا ـ وفرق جماعتنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبينه وبين زوجه ، وإننا نخشى عليك وعلى قومك ، فلا تكلمه ولا تسمع منه .

---

(٦٥) أسد الغابة جـ٢ ص ٢٣٦

قال الطفيل : فو الله مازالوا بى حتى صممت على أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى لقد حشوت أذنى كُرْسُفا ـ أى قطنا ـ خوفا من أن يبلغنى من قوله شىء وأنا لا أريد أن اسمعه .

وكان إلحاح قريش على الطفيل لما كانوا يعرفون عنه من شرفه وعقله بالإضافة إلى أنه كان شاعرا ، وللشاعر منزلته الرفيعة بين العرب ـ

قال الطفيل : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يصلى عند الكعبة .

قال : فقمت قريبا منه . فأبى الله إلا أن يسمعنى قوله ، فسمعت كلاما حسنا . . فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل شاعر لبيب ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ـ فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل مايقول ، فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ؟

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه .

فقلت : يا محمد ، إن قومك قالوا لى كذا وكذا ، ثم أبى الله إلا أن أسمع قولك ، فسمعت قولا حسنا ـ فاعرض علىَّ أمرك .

فعرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه الإسلام ، وتلا عليه القرآن .

قال الطفيل : فو الله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت . وقلت : يارسول الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وسأدعوهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم إليه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم اجعل له آية .

قال : فخرجت إلى قومى ، حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على حاضر أهلى ، وقع نور بين عينى مثل المصباح .

فقلت : اللهم فى غير وجهى فإنى أخشى أن يظنوا أنها مُثْلَةٌ لفراقى دينهم . فتحول النور حتى جاء فى رأس سوطى . .

فجعل أهله يتراءون ذلك النور فى سوطه كالقنديل المعلق ، وهو يهبط إليهم من الثنية . فلما نزل أتاه أبوه ، وكان شيخا كبيرا فقال له الطفيل : إليك عنى يا أبت ، فلست منك ولست منى .

قال له أبوه : ولم يا بنى ؟

قال الطفيل : إنى أسلمت ـ ثم قص على أبيه قصة إسلامه ودعاه إلى الإسلام . .

فقال أبوه : يا بنى إن دينى دينك . فأسلم أبوه .

ثم أسلمت زوجته .

ودعا الطفيل قومه إلى الإسلام ، ولكنهم أبطأوا عليه ـ لقد كان لهم صنم يعبدونه اسمه « الشَّرَى » يخافون منه .

وظل الطفيل زمنا يدعوهم دون أن يستجيبوا له ، فعاد الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشكوهم إليه ـ وكان النبى مازال بمكة .

فقال له : يارسول الله إنه قد غلبنى على قومى حبهم الزنا فادع الله عليهم .

ولكن النبى الذى بعثه الله رحمة للعالمين رفع يديه الى السماء وقال : اللهم اهدهم الى الحق . . . لم يدع عليهم ولكنه دعا لهم .

ثم قال للطفيل : ارجع الى قومك فادعهم وارفق بهم . .
فعاد الطفيل . . . وبقى بأرض قومه يدعوهم الى الإسلام حتى هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة وحدثت غزوة بدر وأحد والخندق . .
قال :

ثم قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله بخيبر ، فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من قبيلة دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ فى خيبر ، فأسهم لنا مع المسلمين[٦٦] أى جعل لنا سهما من الغنائم . . .

لقد استجاب الله دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعطى طُفيلاً آيةً ، وهذه معجزة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكرامة لطفيل . . .

وهكذا كانت السماء ترقب خطوات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتمده بالآيات التى تعينه على تبليغ الدعوة وأداء الرسالة . حتى كانت المعجزة الكبرى التى تجلت فى الرحلة العظيمة التى اخترق بها ـ الرسول طباق الأرض وأجواز السماء . . . . رحلة الإسراء والمعراج .

فإلى الرحلة الكبرى

---

(٦٦) أسد الغابة جـ٣ ص ٧٩ ـ سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١٣٠

الرحلة الكبرى

- متى ومن أين بدأت الرحلة ؟
- سبب الرحلة .
- لماذا كان الإسراء من مكة ؟
- كيفية الإسراء .
- البراق .
- النبي في بيت المقدس .
- صلاته - صلى الله عليه وسلم - بالأنبياء .
- المعراج .
- فرضية الصلاة .
- الآيات الكبرى التي رآها النبي - صلى الله عليه وسلم .
- العودة من الرحلة .



الرحلة الكبرى
الإسراء والمعراج

متى ومن أين وكيف ؟

ورد ذكر الإسراء صراحة فى قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (٦٧)

ولم يختلف أحد من الرواة والعلماء فى ثبوت هذا الحدث ولكن الاختلاف كان فى كيفية حدوثه .. هل كان يقظة أو مناما ؟

والذى عليه جمهور العلماء أنه كان يقظة بالروح والجسد .

وقبل أن نناقش منطق المخالفين لذلك ـ نذكر الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه والذى يؤكد حدوث المعراج . حيث ان الإسراء ثابت بالآية الكريمة السابقة ، ولا مجال للاختلاف فى حدوثه ..

روى البخارى قال : حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا همام بن يحيى ، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ـ رضى الله عنهما ـ أن نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدثهم عن ليلة أسرى به قال :

« بينما أنا فى الحطيم ـ وربما قال فى الحجر ـ مضطجعا ، إذ أتانى آت ، فشق ما بين هذه الى هذه . وأشار الى مكان صدره .

فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار بيضاء فقال له الجارود : هو البراق يا أبا حمزة .

قال أنس : نعم .

---

(٦٧) الاسراء ١

فَحُمِلت عليه ، فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاسَتفتح ،

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل :

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : أو قد أرسل اليه ؟

قال : نعم

قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء .

ففتح ـ فلما خلصت فإذا فيها آدم ، فقال جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد السلام . ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : أو قد أرسل اليه ؟

قال : نعم

قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء .

ففتح ، فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى . . . قال جبريل : هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت ، فردًا علىَّ ثم قالا : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الثالثة ، فاستفتح . فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : أو قد أرسل إليه ؟

قال : نعم . .

قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء .

ففتح ، فلما خلصت إذا يوسف . قال : هذا يوسف ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : أو قد أرسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء .

ففتح ، فلما خلصت إذا إدريس ، قال : هذا إدريس ، فسلم عليه . فسلمت عليه فرد . ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى اتى السماء الخامسة فاستفتح .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : أو أرسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجىء جاء .

فلما خلصت إذا هارون . قال : هذا هارون ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد . ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى السماء السادسة ، فاستفتح .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : أو قد أرسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجىء جاء .

فلما خلصت إذا موسى . قال : هذا موسى ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد ﷺ

قيل : أو قد بعث اليه ؟

قال : نعم

قيل : مرحبا به فنعم المجيء جاء .

فلما خلصت إذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه . قال : فسلمت عليه فرد السلام .

ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر ، واذا ورقها مثل آذان الفيلة .

قال : هذه سدرة المنتهى . . . .

ثم رفع لى البيت المعمور ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل . فأخذت اللبن . فقال : هذه الفطرة أنت عليها وأمتك .

ثم فرضت على الصلوات ، خمسين صلاة كل يوم .

فرجعت فمررت على موسى . فقال : بم أمرت ؟

قال النبى ﷺ : أمرت بخمسين صلاة كل يوم .

قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وانى والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عنى عشرا .

فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشرا .

فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشرا .

فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم .

فقال موسى : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وانى قد جربت الناس من قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

قال النبى ﷺ : سألت ربى حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم .

هذا ما ورد فى شأن المعراج ، وغير ذلك كثير . . . أما فى شأن الإسراء فقد ورد بالاضافة إلى الآية القرآنية السابقة كثير من الأحاديث . منها ما أورده البخارى فى باب الاسراء قال : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث عن عقيل ، عن ابن شهاب حدثنى أبو مسلمة بن عبد الرحمن قال : حدثنى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول » « لما كذبتنى قريش قمت إلى الحجر ، فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر » .

وقوله :كذبتنى ـ أى كذبتنى فى إخبارى إياها عن الإسراء الى بيت المقدس .

وقد روى حديث الإسراء أكثر من عشرين صحابيا :

ومن الأحاديث التى أوردها القرطبى فى تفسيره ما رواه أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ فى قوله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . . . »

قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به قال : « أُتيت بدابة هى أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان ، وهو البراق الذى كانت الأنبياء تركبه قبل ـ فركبته ، فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره .

ثم استقبلتنى امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول : على رسلك يا محمد حتى أسألك ، فمضيت ولم أعرج .

ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقتها فى الحلقة التى كانت الأنبياء توثق بها . ثم دخلت المسجد وصليت فيه . فقال لى جبريل - عليه السلام - : ما سمعت يا محمد ؟

قلت : استقبلتنى امرأة عليها من كل زينة الدنيا ، رافعة يديها ، تقول : على رسلك ، فمضيت ولم أعرج عليها .

فقال : تلك الدنيا ، لو وقفت لاخترت الدنيا على الآخرة .

قال : ثم أُتيت بإناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر . فقيل لى : خذ فاشرب أيهما شئت ، فأخذت اللبن فشربته .

فقال لى جبريل : أصبت الفطرة ، ولو أنك أخذت الخمر غوت أمتك .

ثم جىء بالمعراج الذى تعرج فيه أرواح بنى آدم فإذا هو أحسن مارأيت .

هذه بعض الأحاديث الواردة فى الإسراء والمعراج وقد ذكر أصحاب السنن والمفسرون كثيرا من الأحاديث التى تقص هذه القصة بتفصيلاتها المختلفة . وما صاحبها من أحداث نعرض لها إن شاء الله - تعالى -

وفى ضوء هذه الأحاديث والأخبار يمكن استخلاص أحداث هذه القصة فيما يأتى :

سبب الرحلة

قال كثير من العلماء : إن الله أراد أن يسرى عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فقد عمه وزوجته . . . ولكن هذه العلة ليست كافية وحدها لتكون سبب القيام بهذه الرحلة الكبرى التى انتقل فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عرج به إلى السموات

السبع فما فوقها . . على أن هناك من الرواة من يذكر أن الإسراء والمعراج حدثا قبل وفاة أبي طالب . وخديجة ـ رضى الله عنها ـ بخمس سنوات أو ثلاث . . على اعتبار أن ذلك تم بعد مبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات أو سبع سنوات . .

والسبب الحقيقى لهذه الرحلة أشار إليه القرآن الكريم فى قوله « لنريه من آياتنا » .

وما يريه الله لأنبيائه من الآيات سنة درج عليها الأنبياء من قبل . . ففى حق إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول الله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾ (٦٨)

وفى حق موسى عليه السلام يقول الله تعالى :

﴿ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ﴾ (٦٩)

فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما هو معروف ـ يحدثون الناس عن أمور غيبية تتناول السماء والملائكة والجنة والنار وغيرها مما هو محجوب غير محسوس ، لذا يطلعهم الله على هذه الأمور ليكون إخبارهم عنها إخبارا يقينيا كما قال لابراهيم ـ عليه السلام » ـ « ليكون من الموقنين » .

ولهذا كان من أوجز وأعظم ماقيل فى تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى : « لنريه من آياتنا »

وهذه سنة الله فى الأنبياء .

---

(٦٨) الانعام٧٥

(٦٩) طه ٢٣

ذاك أنه بعد استناد علم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين مالا يقادر قدره ، وليس الخبر كالمعاينة .. لذا فانهم يتحملون فى سبيل الله مالا يتحمل غيرهم وتصبح الدنيا عندهم بكل ما فيها كجناح بعوضة لايعبأون بها ولا يركنون إليها على الاطلاق .

ولابد لمبعوث الله إلى العالم أجمع أن يطلعه الله على بعض أسرار الكون الكبرى وأن يريه بعض الآيات العظيمة حتى تتحقق بذلك عالمية رسالته .

وقد قال الله فى هذه العالمية :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٧٠)

.. وقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٧١)

وقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (٧٢)

وربما طلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ربه أن يطلعه على بعض الغيبيات كما سأل إبراهيم ربه قائلا :

﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (٧٣)

فقد ورد فيما يرويه ابن سعد فى طبقاته عن أبى بكر بن عبد الله وغيره من الذين يروى عنهم قالوا : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل ربه أن يريه الجنة والنار » .

---

(٧٠) الاعراف ١٥٨

(٧١) سبأ ٢٨

(٧٢) الأنبياء ١٠٧

(٧٣) البقرة ٢٦٠

وقد أشار فضيلة الشيخ الشعراوى الى حكمة القيام بهذه الرحلة فقال :

« ان حدث الإسراء والمعراج يعتبر حدثا ضخما من أحداث الدعوة الاسلامية سبقته البعثة وجاءت بعده الهجرة . وقد بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على فترة من الرسل ، وبعث بدين خاتم ، وبدين جامع يشمل الزمان كله والمكان كله ، لأن الرسالات السابقة كانت محدودة الزمان ومحدودة المكان ، ولكن الرسالة الاسلامية جاءت عالمية للناس كافة فى كل زمان ومكان .

واختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لانطلاق هذا الدين أول بيت وضع للناس ، ليكون هو المكان الذى تبعث منه الدعوة الجديدة . . ومن المعروف أن مكة قد أخذت على كل القرى فى الجزيرة العربية مكان الصدارة ومكان السيادة ، وبالتالى أخذ سكانها من قريش مكان السيادة والعزة والجاه . . . . وكان ـ صلى الله عليه وسلم فى حاجة مادية الى أن يُحمى حمايتين : حماية من الكفار فى الخارج ، وحماية له فى ساعة راحته وسكونه وهدوئه فى البيت . . .

فكانت السيدة خديجة ـ رضوان الله عليها ـ هى السكن الذى يلجأ إليه فى البيت . . وكان عمه أبو طالب يحميه فى الخارج من أذى الكفار . .

ولكنَّ قَدَر الله شاء أن تموت زوجه خديجة فى العام الذى يموت فيه عمه أبو طالب ، وهنا يفقد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السكن الذى كان يأوى الى حنانه وعطفه ، كما فقد الحماية الخارجية .

ومع أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلم تماما أن الله لا يُسلمه إلا أنه مع ذلك أخذ يُعْمل فكره وبصيرته ويخطط لينطلق بالدعوة

بالأسباب البشرية التى يقدر عليها .

فما كان منه فى هذا الجو الخانق فى مكة إلا أن يلتمس منطلقا للدعوة لعله يجد نصيرا خارجيا ، فقام برحلته إلى الطائف . ولكنه وجد خلاف ماتوقع ، فقد آذوه بالقول والفعل واضطهدوه وسلطوا عليه سفهاءهم حتى أدموا قدميه ـ كما علمنا ـ فوقف موقف الضارع الى الله يدعوه ويناجيه . .

كان دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحمل كل مقومات الايمان واليقين ، كما يعنى أنه استنفد الأسباب ، وأنه لم يجد إلا عدوا وإلا معاندا . . فلابد أن تتدخل السماء . .

سمع الله ضراعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد أن يبين له أن جفاء الأرض لا يعنى أن السماء تخلت عنه ، ولكنه سيعوضه عن جفاء الأرض بحفاوة السماء ، وعن جفاء عالم الناس بعالم الملأ الأعلى ، وأنه سيريه من آياته ومن قدرته ومن أسراره فى كونه ما يعطيه طاقة وشحنة .

إن الله الذى أراك يا محمد هذه الآيات قادر على أن ينصرك ولن يتخلى عنك .

ولكن الله تركك للأسباب أولا لتجتهد فيها حتى تكون أسوة لأمتك حتى لا تدع الأسباب وتكتفى بأن ترفع أيديها إلى السماء .

إذاً فقد كان حدث الإسراء وحدث المعراج بعده نتيجة لجفوة الأرض لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونتيجة لفقد النصير والمعاون من أهل الأرض ، فالله سبحانه وتعالى ـ شاء أن يجعل لرسوله هذه الرحلة العلوية حتى يثبت له تكريمه ، وحتى يثبت له أن فى عون الله وقدرته عوضا عن كل فاقد ، وأن الملكوت سيحتفى به حفاوة تمسح عنه كل عناء ، وتبدد عنه كل

هذه المتاعب ، وسيعطيه الله شحنة قوية لتكون أداته فى منطلقه الجديد باذن الله[٧٤] .

أما متى كان هذا الحدث فقد اختلف العلماء فى تحديد وقته .

فقيل إنه ليلة السابع عشر أو السابع والعشرين من ربيع الأول وقيل : إنه ليلة التاسع والعشرين من رمضان .

وقيل : إنه كان لسبع وعشرين ليلة خلت من ربيع الآخر ، وقيل من رجب ، وقيل فى شوال ، وقيل فى ذى الحجة . وذلك قبل الهجرة بسنة ، وبه جزم ابن حزم وادعى فيه الاجماع وقيل بسنتين ، وقيل بثلاث سنوات .

ولكن الشائع أن هذا الحدث كان فى ليلة السابع والعشرين من رجب قبل الهجرة بعام ونصف تقريبا .

وأما من أين بدأ ؟ فقد حدد القرآن الكريم المكان فقال « من المسجد الحرام » وروت أم هانىء بنت أبى طالب ـ خبرا فى ذلك قالت : « دخل علىَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُعيد الفجر .

فقال استشعرت أنى نمت الليلة فى المسجد الحرام . . أى عند البيت أو فى الحجر ، وهو الحطيم الوارد فى بعض الروايات .

وهناك روايات تفيد أنه كان نائما فى بيت عمته أم هانىء بنت عبد المطلب فهناك رواية عنها تقول فيها : « ما أسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وهو فى بيتى ، نائم عندى فى تلك الليلة ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبل الفجر أيقظنا وأقامنا من نومنا ـ فلما صلى الصبح

---

(٧٤) الأسراء والمعراج للشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٣١

وصلينا معه قال : يا أم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين .

والمقصود بالصلاة هنا هما الركعتان اللتان كان يصليهما بالغداة والعشى ، وإلا فالصلاة المعروفة لم تفرض إلا فى تلك الليلة .

وفى رواية أخرى : « أنه أسرى به من شعب أبى طالب » .

والجمع بين هذه الروايات أن منطقة المسجد الحرام تجمع كل هذه الأماكن ، وبيت أم هانىء عند شعب أبى طالب . . . . ففرج عن سقف البيت الذى هو نائم فيه ، وهو بيت أم هانيء ونزل الملك وأخرجه إلى المسجد ، وأضجعه عند الحجر .

وشُقَّ صدره الشريف ، واستُخرج قلبه ، وغسل بماء زمزم ، وقد سبق أن ذكرنا أن شق صدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد حدث مرة قبل ذلك ، ومرة أخرى عند المبعث . .

ولعل الهدف من الشق فى هذه المرة تقويته على تحمل ما سوف يراه فى رحلته القدسية المباركة .

لماذا كان الاسراء من مكة ؟

كان الاسراء من مكة بلد « المسجد الحرام » لأنها ـ كما قال فضيلة الشيخ الشعراوى فيما سبق ـ المكان الذى انبعثت منه الدعوة الجديدة العالمية التى اختار الله لها رسولا هو خاتم الأنبياء والمرسلين « سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » .

والمقام يقتضى الاشارة الى أن هذا المكان بالذات هو قلب العالم كله وهو

بالنسبة للكون المكان الوسط الذى يشير اليه قول الحق - سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٧٥)

وقد أشار إلى ذلك كثير من المفسرين . .

ويمكن الاسترشاد فى ذلك بما توصل اليه الدكتور « حسين كمال الدين » من كشف يثبت أن مكة المكرمة هى مركز اليابسة فى العالم . وأنه تمكن بواسطة الرسم الدقيق أن يكتشف أن الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة توزيعا منتظما ، وأعد خريطة للعالم قبل وبعد اكتشاف أمريكا واستراليا ، وكرر المحاولة فاذا به يكشف أن مكة هى أيضا مركز الأرض اليابسة حتى بالنسبة للعالم القديم يوم بدأت دعوة الاسلام . والرسم التوضيحى(٧٦) المرفق يبين حقيقة هذا الاكتشاف ، ويؤكد حقيقة أن مكة هى مركز الأرض - قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٧٧)

إكتشاف علمى مثير لباحث مصرى بالعقل الألكترونى :

مكة مركز اليابسة فى الكرة الأرضية الاكتشاف الذى يجيب على سؤالين ظلا ١٤ قرناً بلا إجابة :

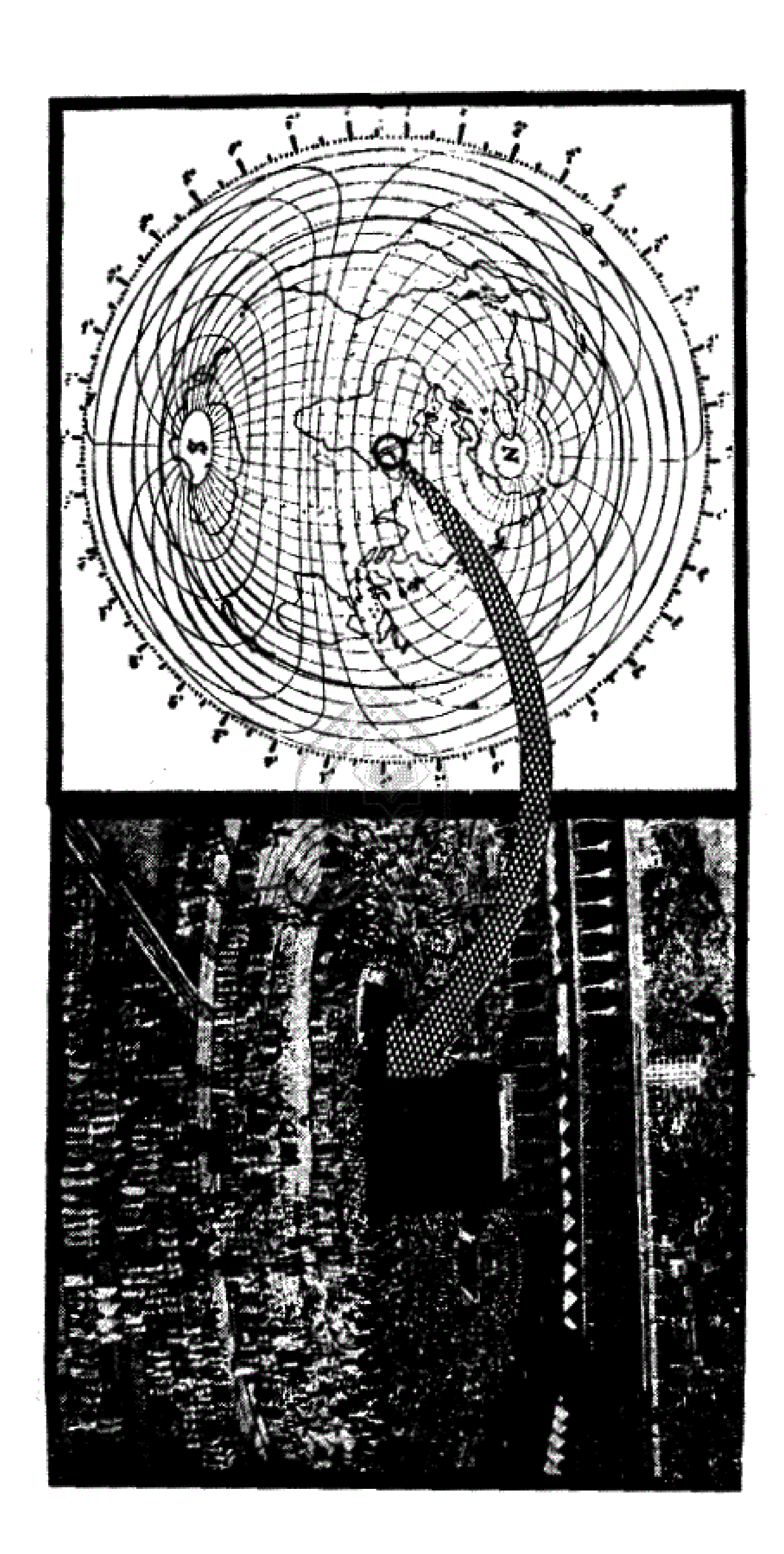
لماذا اختار الله مكة لتكون مقراً للبيت الحرام . . وتبدأ منها الدعوة إلى الرسالة العالمية .

---

(٧٥) البقرة ١٤٣

(٧٦) نشر هذا الرسم مع مقال فى صحيفة الأهــرام بتاريخ ١٥ المحرم ١٣٩٧ هـ - ٥ يناير ١٩٧٧ م

(٧٧) الشورى ٧



الاكتشاف العلمى الجديد الذى يشغل العلماء الآن توصل إليه عالم مصرى ، والحقيقة العلمية التى اكتشفها ، وأعلنها أخيرا تقول إن مكة المكرمة هى مركز اليابسة فى العالم الآن ، وأنها كانت ايضا مركز اليابسة فى العالم قبل اكتشاف امريكا واستراليا . . هذه الحقيقة الجديدة لعبت الصدفة دورها فى الوصول اليها ، واستغرقت سنوات من البحث العلمى ، واعتمدت على مجموعة من الجداول الرياضية المعقدة استعان فيها العالم المصرى بالكمبيوتر . .

والعالم المصرى صاحب هذا الاكتشاف هو الدكتور حسين كمال الدين الذى يعمل الآن فى السعودية رئيسا لقسم الهندسة المدنية بكلية الهندسة بجامعة الرياض منذ عام ٧١ ، وقبل ذلك كان أستاذ كرسى المساحة بجامعة اسيوط ثم استاذا فى جامعتى القاهرة والأزهر .

والدكتور حسين كمال الدين عمره الآن ٦٢ سنة ، وتاريخه العلمى طويل ، فقد حصل على بكالوريوس الهندسة مع مرتبة الشرف من جامعة القاهرة منذ ٣٨ سنة ، وبعدها حصل على ماجستير المساحة التصويرية منذ ٣٣ سنة ، وعلى الدكتوراه فى المساحة التصويرية أيضا منذ ٢٦ سنة . . وكان عضوا فى عدة لجان علمية فى مصر ، وله ٧ كتب معروفة تعتبر من المراجع الأساسية فى المساحة والفلك ومساحة المناجم والمساحة التصويرية بالاضافة الى أبحاث علمية عديدة ، عن استخراج الطاقة الكهربائية من منخفض القطارة فى مصر . وخرائط البحث عن المنجنيز . .

خريطة جديدة للأرض

ويروى الدكتور حسين كمال الدين قصة هذا الاكتشاف الغريب ، يقول : إنه بدأ البحث وكان هدفه مختلفا تماما ، كان يجرى بحثا ليعد وسيلة

تساعد كل شخص فى اى مكان من العالم على معرفة وتحديد مكان القبلة ، لانه شعر ـ فى رحلاته العديدة للخارج ـ أن هذه هى مشكلة كل مسلم عندما يكون فى مكان ليست فيه مساجد تحدد مكان القبلة ، أو يكون فى بلاد غريبة كما يحدث لمئات الآلاف من طلاب البعثات فى الخارج .

وقبل ذلك قام الدكتور حسين كمال الدين بتصميم أكثر من جهاز صغير يستطيع الانسان ان يضعه فى جيبه أو يحمله معه فى اى مكن ، ليساعده على تحديد اتجاه القبلة فى اوقات الصلاة ، لكنه ـ كما يقول ـ لم يوفق حتى الآن فى تصنيع أى واحد من هذه النماذج ليكون فى متناول ايدى الناس بثمن معقول ، وذلك لعدم وجود رأس المال اللازم للبدء فى التصنيع . . لذلك فكر الدكتور حسين فى عمل خريطة جديدة للكرة الارضية لتحديد اتجاهات القبلة عليها ، وكان يتصور ان طبع مئات الآلاف من هذه الخريطة لن يكلف كثيرا . . وبعد أن وضع الخطوط الأولى فى البحث التمهيدى لاعداد هذه الخريطة ، ورسم عليها القارات الارضية ظهر له فجأة هذا الاكتشاف الذى أثار دهشته .

فقد وجد العالم المصرى ان موقع مكة المكرمة فى وسط العالم ، وامسك بيده « برجلا » وضع طرفه على مدينة مكة ، ومر بالطرف الآخر على أطراف جميع القارات فتأكد له ان الأرض اليابسة على سطح الكرة الارضية موزعة حول مكة توزيعا منتظما ـ ووجد ان مكة ـ فى هذه الحالة ـ هى مركز للأرض اليابسة . .

وأعد خريطة للعالم القديم ـ قبل اكتشاف امريكا واستراليا ـ وكرر المحاولة ، فاذا به يكتشف ان مكة هى ايضا مركز الأرض اليابسة حتى بالنسبة للعالم القديم ، يوم بدأت الدعوة للاسلام . .

الصدفة لعبت دورها

ويدهشة العالم حين يكتشف شيئا جديدا ، يقول الدكتور حسين ، لقد بدأت بحثي برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الارض عن مدينة مكة ، ثم وصلت بين خطوط الطول المتساوية مع بعضها لاعرف كيف يكون اسقاط خطوط الطول وخطوط العرض بالنسبة الى مدينة مكة ، وبعد ذلك رسمت حدود القارات وباقى التفاصيل على هذه الشبكة من الخطوط ، واحتاج الأمر الى اجراء عدد من المعادلات والعمليات الرياضية المعقدة بالاستعانة بالكمبيوتر لتحديد المسافات والانحرافات المطلوبة ، وكذلك احتاج الأمر الى برنامج آخر للكمبيوتر لرسم خطوط الطول وخطوط العرض لهذا الاسقاط الجديد ، وأعد البرنامجية للكمبيوتر عالم مصرى متخصص هو الدكتور محمد الشافعى عبد اللطيف . .

وبالصدفة وحدها اكتشفت أنى أستطيع أن أرسم دائرة يكون مركزها مدينة مكة وحدودها خارج القارات الارضية الست ، ويكون محيط هذه الدائرة بدور مع حدود القارات الخارجية . .

ويقول العالم المصرى . . حسين كمال استطعت ان افهم بعض آيات القرآن فهما جديدا ، مثل الآية التى تقول :

وكذلك جعلناكم أمة وسطا ،

والآية التى تقول :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا

وعرفت الحكمة الآن من اختيار مكة بالذات ليكون فيها البيت الحرام ، واختبار مكة بالذات لتكون نواة لنشر رسالة الاسلام للعالم أجمع .

جريدة الأهـــــرام ـ الأربعاء ١٥ من المحرم ١٣٩٧ هـ ـ ٥ يناير ١٩٧٧ م . . .

كيفية الإسراء

أما كيفية الإسراء فقد كان بالروح والجسد معا خلافا لمن يقول إنه بالروح فقط أو أنه كان رؤيا منامية .

ويتكفل فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى بمناقشة منكرى الاسراء بالروح والجسد فيقول : لقد استهل الله هذا الحدث بقوله ـ تعالى « سبحان »

ومعنى « سبحان » أول ماتقع على الذهن أنها تعطى الانسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبه للمقارنة بين قانون المادة الأرضى الانسانى البشرى ، وبين قانون الله .

فمعنى سبحان الله أن الله منزه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، عن قوانين البشرية . . والله هو الذى أسرى بعبده ، ومحمد ـ ﷺ ـ لم يسر بنفسه . ومادام الفعل منسوبا إلى الله فعلينا أن نستبعد قانون البشرية . .

إن شبهة الذين يزعمون أن الإسراء كان مناما هو طول المسافة بين مكة وبيت المقدس . تلك المسافة التى قدروها بقولهم : نحن نضرب اليها أكباد الإبل شهرا .

ولو كان الاسراء رؤيا منامية ماكان هناك مماراة فيها ، لأن المنام لايمارى فيه فإذا رأى أحد فى منامه أنه قد ذهب إلى لندن مثلا فى هذه الليلة وعاد ، فإن أحدا لايناقشه فى ذلك . .

لأن المسألة مسألة رؤيا منامية . . ولكن الإسراء لم يكن رؤيا منامية وقد فهم المشركون أنها ليست رؤيا منامية ولذلك ردوا على النبى بذلك الأسلوب الانكارى : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرا ؟ . . ومادموا قد ناقشوا فيها ووقفوا هذه الوقفة الانكارية فهذا

دليل على أنهم قد فهموا أن ماحدث كان يقظة وليس مناما .

من أين جاءت شبهة الرؤيا ؟

وشبهة الذين يقولون إنها رؤيا منامية جاءت من قوله ـ تعالى ـ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (٧٨)

والرد على ذلك سهل . . ذاك أنه إذا كانت رؤيا منامية فكيف تكون فتنة للناس ؟

لأن معنى فتنة أن بعض الناس يصدق وبعضهم يكذب ، ولو كانت رؤيا منامية ماناقشها أحد لا تصديقا ولا تكذيبا .

إن الذى يقول إنها رؤيا منامية يقف عند حدود لفظ « رؤيا » ويفسره بأن هذا اللفظ بهذه الصورة لايكون إلا لما يراه النائم ، أما مايراه المستيقظ فيقال له رؤية .

وهذا الفهم وإن كان شائعا بين الناس إلا أنه لايتفق مع حقائق اللغة . فالرؤيا فى اللغة الفصيحة وردت على ألسنة العرب القدامى بمعنى الرؤية البصرية أيضا . وقد نقل ذلك ابن منظور فى لسان العرب عن ابن برى العالم اللغوى المشهور واستشهد على ذلك بقول الشاعر العربى :

فَكَبر للرؤيا وهش فؤاده

وبشر نفسا كان قبل يلومها

قال : وعلى ذلك فُسِّر قوله ـ تعالى ـ

« وماجعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس »

---

(٧٨) الاسراء ٦٠

وعليه أيضا جاء قول أبي الطيب المتنبى :

ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض[79]

وإذن فقد استعملت الرؤيا بمعنى الرؤية البصرية وبمعنى الرؤيا المنامة ، فلماذا تنصرف إلى المنامية فقط فى هذه الآية ، مادام يمكن فهمها على أنها بصرية ؟

أما إيثار استعمال كلمة « الرؤيا » فى الآية على كلمة « الرؤية » التى لايوهم استعمالها ، فلذلك علته . وهو الاشارة إلى أن هذا الحادث أمر عجيب غريب يصعب إدراكه حسا حتى كأنه رؤيا منامية . . ولذلك جاء بعدها قوله سبحانه : « فتنة للناس » والرؤيا المنامية لا تفتن الناس بأى حال . . ولم يحدث على الاطلاق أن اختلف الناس مع واحد رأى فى منامه رؤيا مهما كانت هذه الرؤيا مغرقة فى البعد والاستحالة . . . وذكر بعض العلماء أنه لا يمتنع أن يكون الرسول - ﷺ - رأى مارآه مناما ثم رآه بعد ذلك يقظة مما أحدث هذه الفتنة بين الناس ، واستدل على ذلك بالمعنى اللغوى الذى تؤديه كلمة « جعل » فإن « جعل » التى تتعدى إلى مفعولين تقتضي وجود شيئين : مجعولا ومجعولا منه والمجعول كان موجودا ثم تحول إلى شيء آخر . .

فإنك تقول مثلا : جعلت الخشب مكتبا ، فالخشب كان موجودا ثم صار بكلمة « جعل » إلى شيء آخر هو المكتب .

وقوله - تعالى

« وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة » يقتضى أن الرؤيا كانت موجودة ، ثم

---

(٧٩) لسان العرب جـ٣ ص.١٥٤١ مادى رأى

انقلبت إلى حقيقة حتى تكون فتنة ـ ولو ظلت الرؤيا على مفهومها المنامى لم تصبح فتنة للناس . .

وقد رأى النبى ـ ﷺ ـ أشياء كثيرة فى منامه ثم تحولت إلى حقائق ، وذلك مثل فتح مكة الذى أشار اليه الحق بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾ (٨٠)

لقد كان فتح مكة رؤيا ثم أصبح حقيقة واقعة . .

فكذلك الأمر بالنسبة للاسراء ، كان رؤيا سابقة للنبى ﷺ . . ثم أصبح حقيقة واقعة . .

واذن فلا مانع من أن يكون الرسول ـ ﷺ ـ قد تعرض لحدث الإسراء مناما ، وتعرض له روحا ثم تعرض له بعد ذلك يقظة ، والسيدة عائشة رضى الله عنها تقول : « إنه ـ ﷺ ـ ماراًى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح »

من تذوقات اللغة

ويلفتنا فضيلة الشيخ الشعراوى ـ حفظه الله ونفعنا بعمله ـ إلى معنى جميل فى استعمال لفظ « بعبده » فى قوله ـ تعالى ـ

« سبحان الذى أسرى بعبده »

فيقول : إن الله أتى بصفة العبودية لله التى هى باب العطاء من الله . لأن كل الديانات جاءت لكى تصحح عبوديتنا لله ، وكل رسول من الرسل قدوة لنا ، فلابد أن يكون قدوة فى العبودية .

---

(٨٠) الفتح ٢٧

والعبودية لفظ قد يمقته الناس ، ولكنهم يمقتونه إذا كان مستعملا فى استعباد مخلوق لمخلوق ، لأن عبودية الخلق تعطى خير العبد لسيده . فالسيد يمتص خير عبده ويستغله أسوأ استغلال .

ولكن عبودية الخلق لله ـ سبحانه وتعالى ـ تعطى الخير كل الخير للعبد ، فالعبودية له شرف ، وكلما زادت العبودية زادت منن العطاء من الله ـ تعالى ـ لعبده ، وكلما أخلص العبد فى عبوديته أفاض عليه المولى أكثر وأكثر . .

وكلمة العبد لا تطلق الا على الروح والجسد معا ، فلايقال للروح وحده عبد ، ولا للجسد وحده عبد ، وإنما يطلق هذا اللفظ على الانسان حينما توجد فيه المادة والروح .

البراق

واستخدم النبى ـ ﷺ ـ فى انتقاله فى رحلته هذه ـ البراق . .

وفى كتاب « حياة الحيوان للدميرى » وصف للبراق ، نذكر منه مايأتى : ـ

البراق هو الدابة التى ركبها سيد المرسلين ـ ﷺ ـ ليلة الاسراء ، وركبها الانبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهى مشتقة من البرق الذى يلمع فى الغيم . وفى ذلك إشارة الى سرعته الخاطفة

وفى الصحيح أنه دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، يضع خطوه عند أقصى بصره ـ ويؤخذ من هذا أنه قطع المسافة من الأرض إلى السماء فى خطوة ، وإلى السموات السبع فى سبع خطوات ، وبه يرد على من استبعد احضار عرش بلقيس أمام سليمان ـ عليه السلام ـ فى لحظة واحدة .

وقد شمس[٨١] البراق حين امتطاه النبى - ﷺ - فقال له جبريل - عليه السلام - أما تستحيى يابراق ؟ فماركبك عبد قبل محمد أكرم على الله منه .
أما سبب شموسه فى رأى بعضهم فقد كان لبعد عهده بالانبياء ، وطول الفترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام .

ويقال : إن البراق يبعث يوم القيامة ليركبه النبى - ﷺ - فقد روى الحاكم وغيره عن سويد بن عمرو أن النبى - ﷺ - قال : حوضى أشرب منه يوم القيامة أنا ومن استسقانى من الانبياء عليهم السلام ، ويبعث الله لصالح ناقته يحلبها ويشرب هو والذين آمنوا معه ، ثم يركبها حتى يوافى بها الموقف ولها رغاء . فقال له رجل : يارسول الله وأنت يومئذ على العضباء ؟ - اسم ناقة رسول الله - قال - ﷺ - : « تلك تحشر عليها ابنتى فاطمة ، وأنا أحشر على البراق به أُخَصُّ به دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام »[٨٢]

أما سرعة البراق فهى قياسية ، بل هى فوق القياس ، انها تدخل فى نطاق القدرة الالهية التى تفوق مقاييش البشر .
لقد خرق الله له قانون الزمن وقانون المسافة ، وطوى له الأرض وطوى له الفضاء ، وطوى له السماء ، فجعل ينقله بين طبقاتها كلما اجتاز سماء أدخله سماء أخرى حتى جاوزها جميعا الى ماوراء ذلك من غيب لا يعلمه الا الله . .

وإنه لمن الجهل ان تخضع هذه الرحلة للمقاييس البشرية والزمنية العادية - إن بشرية محمد - ﷺ - ملغية فى هذا الحدث - كما قال الشيخ

(٨١) استعصى على الانقياد
(٨٢) حياة الحيوان جـ ١ ص ١٩٦ ط التحرير

الشعراوى - إنه محمول فى هذه الرحلة على قانون خالقه - جل وعلا -

وإذا نظرنا إلى القوة فى العقل وإلى المسافة والزمن وجدنا ان الزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً ، بمعنى أن القوة اذا زادت قل الزمن ، فقطع أى مسافة على بعير مثلا يختلف عن قطعها فى سيارة أو طائرة أو صاروخ ، فاذا كان الحدث بقوة الله فانسب الزمن الى قوة الذى فعل وهو الله ، واذا نسبت الحدث اليه لا تحتاج لزمن أبداً . . . لأن قوة الله قوة القوى . كن فيكون »[٨٣]

النبى فى بيت المقدس

اتجه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى رحلته وجبريل فى صحبته - الى بيت المقدس حتى وصلا اليه . .

وفى الطريق كما يروى بعضهم - قال جبريل للنبى - ﷺ - : انزل فصل هنا . وكانت أرضا ذات نخل .

فنزل النبى - ﷺ - وصلى ، ثم ركب .

فقال له جبريل : أتدرى أين صليت ؟

قال : لا .

قال : صليت بطيبة واليها المهاجرة .

ثم سارا ، حتى بلغ أرضا فقال له جبريل : انزل فصل هنا ، ففعل ، ثم ركب .

فقال له جبريل : أتدرى أين صليت ؟

قال : لا .

---

(٨٣) الإسراء والمعراج - الشيخ الشعراوى ص ٦٣

قال : صليت بمدين .

ثم ركب وانطلق بهما البرق ، حتى قال جبريل ـ عليه ا لسلام ـ انزل فصل .

ففعل ثم ركب . فقال له : أتدرى أين صليت ؟

قال : لا .

قال : صليت ببيت لحم . وهى قرية تلقاء بيت المقدس ـ ولد فيها المسيح ـ عليه السلام ـ وقيل انه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر على قبر ابراهيم ـ عليه السلام ـ ونزل فصلى ركعتين .

لقد كانت رحلة روحية الى جانب أنها رحلة إيناسية استطلاعية . .

وانتهى النبى ـ ﷺ ـ الى بيت المقدس ، فأوثق جبريل البراق بالحلقة التى بالباب ، والتى كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يوثقون بها البراق وقيل إن جبريل عليه السلام خرق الصخرة باصبعه وشد فيها البراق . .

صلاته بالأنبياء

ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « فنشر لى رهط من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيهم ابراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فصليت بهم وكلمتهم »

وقال العلماء فى ذلك : أرسل الله ملكا فنادى بالأذان ثم أقام .. فقام الأنبياء صفوفا ـ ينتظرون من يؤمهم ، فأخذ جبريل بيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقدمه فصلى ركعتين .

وفى هذه الصلاة نزل قوله تعالى :

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٨٤)

جاء فى تفسير القرطبى : قال ابن عباس وابن زيد : لما أسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بعث الله له آدم ومن ولد من المرسلين ، وجبريل مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ثم أقام الصلاة ، ثم قال : يامحمد تقدم فصل بهم ، فلما فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له جبريل : سل يامحمد من أرسلنا قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا أسأل قد اكتفيت . قال ابن عباس : كانوا سبعين نبيا منهم ابراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ فلم يسألهم لانه كان يعلم ذلك .

وفى غير هذه الرواية : فصلوا خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبعة صفوف المرسلون ثلاثة صفوف ، والنبيون أربعة . كانْ يلى ظهر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل ، وعلى يساره إسحاق ثم موسى ، ثم سائر المرسلين فأمهم ركعتين .

فلما انفتل من صلاته قام فقال : إن ربى أوحى إلىَّ أن أسألكم هل أُرْسِل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله ؟

---

(٨٤) الزخرف ٤٥

فقالوا : يامحمد إنا نشهد أنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة هى أنه لا إله إلا الله ، وان ما يعبد من دونه باطل ، وأنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بامامتك إيانا ، وإنه لانبى بعدك الى يوم القيامة[٨٥]

وصلاته بالانبياء لايمنعها عقل المؤمن . . . ولم لا ؟ وقد حرم الله على الأرض أجساد الأنبياء وفى قدرته تعالى أن يعيد الحياة الى الأجسام متى شاء . والمشهور أن صلاته بالانبياء قبل العروج الى السماء - ولا معنى للسؤال عن أى صلاة كانت هذه الصلاة التى أبهم فيها - فهى صلاة نفلية تهجدية فإن الصلاة الفرضية المعروفة لم تكن قد فرضت بعد فقد فرضت بعد صلاته بهم ، وعقب عروجه الى السماء - وكان قد سبق وصلى ركعتى العشى اللتين كان يصليهما قبل فرضية الصلاة . . . وذلك فى مكة قبل بدء الرحلة ، وسوف يصلى ركعتى الغداة وهى صلاة الصبح عقب عودته من الرحلة ، كما سنعلم ، وكما جاء فى حديث الإسراء . .

« وأخبرنا الرواة أنه قدم للنبى - صلى الله عليه وسلم - قدحان أحدهما من لبن والآخر من خمر ، فتناول إناء اللبن وشربه ، وترك إناء الخمر . . فقال له جبريل - عليه السلام - الحمد لله الذى هداك للفطرة . . إن اللبن هو رمز الفطرة ، وقد قال الله ممتنا به على عباده .

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [٨٦]

روى ابو داود وغيره عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أُتِىَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلبن فشرب ، فقال رسول الله - صلى الله

---

(٨٥) تفسير القرطبى - سورة الزخرف

(٨٦) النحل ٦٦

عليه وسلم ـ : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، واذا سقى لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن .

وقال علماؤنا ـ فيما يرويه القرطبى فى تفسيره ـ : وكيف لايكون ذلك وهو أول ما يتغذى به الانسان وتتكون به الأبدان ؟

فهو قوت خلى من المفاسد . . به قوام الأجسام ، وقد جعله الله ـ تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التى هى خير الأمم . . جاء فى الصحيح : « فجاءنى جبريل بإناء من خمر واناء من لبن ، فاخترت اللبن ـ فقال لى جبريل : اخترت الفطرة ، أما انك لو اخترت الخمر لغوت أمتك » ثم إن فى الدعاء بالزيادة منه ـ علامة الخصب وظهور الخيرات والبركات ، فهو مبارك كله(٨٧)

المعراج

ثم عرج به ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى السموات العلا . . ووسيلة المعراج قيل : هى البراق ايضا ـ وقيل هى آلة العروج ، وقد ورد فى خبر رواه ابن كثير فى حديث عن أبى سعيد الخدرى قال فيه : ـ « ثم أُتيت بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم ، لم ير الخلائق أحسن من المعراج ، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا الى السماء ، فإنما يشق بصره طامحا الى السماء عجبه بالمعراج .

قال : فصعدت انا وجبريل الى سماء الدنيا . . فاستفتح جبريل باب السماء فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

---

(٨٧) تفسير القرطبى ـ سورة النمل ص ٣٧٤٣ ط دار الشعب

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : أوقد بعث اليه ؟

قال : نعم [٨٨]

وفى السماء الاولى آدم ـ عليه السلام ـ وقد وصفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : فإذا أنا بآدم ـ كهيئته يوم خلقه الله تعالى ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ـ فيقول : روح طيبة ونفس طيبة ، اجعلوها فى عليين . . ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة ، اجعلوها فى سجين .

أما السماء الثانية فكان فيها يوسف عليه السلام . . وقد وصفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا :

فاذا أنا برجل من أحسن ما خلق الله عز وجل ، قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قلت : ياجبريل : من هذا ؟ قال : اخوك يوسف ، ومعه نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم علىَّ .

وفى السماء الثالثة كان يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ

وفى السماء الرابعة كان ادريس الذى قال الله تعالى فى حقه .

﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ ﴾ [٨٩]

وفى السماء الخامسة كان هارون ـ عليه السلام ـ وقد وصفه النبى صلى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله : نصف لحيته أبيض ونصفها أسود ، تكاد تصيب سرته من طولها ، قلت : ياجبريل من هذا ؟ قال : هذا المحبب فى

---

(٨٨) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢١ ط دار الشعب

(٨٩) مريم ٥٧

قومه ، هارون بن عمران ومعه نفر من قومه ـ فسلمت عليه وسلم عليَّ .

كما وصف موسى ـ عليه السلام ـ الذى وجده فى السماء السادسة قائلا : كان رجلا آدم كثير الشعر ، لو كان عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص ـ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلت لجبريل من هذا ؟

قال : هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ـ ومعه نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم عليَّ .

أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكان فى السماء السابعة مسندا ظهره الى البيت المعمور ، وهو كأحسن الرجال . .

وقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته شطرين : شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد . . ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ البيت المعمور ودخل معه أصحاب الثياب البيض ، وحجب أصحاب الثياب الرمد ـ قال : وهم الى خير ـ ولعل الثياب الرمد اشارة الى أولئك المقصرين من الناس الذين يدخلون فى شفاعة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشير إلى ذلك بقوله « وهم الى خير » وقد أوضحت الآيات الكريمة الآتية أحوال أمة النبى ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يدعو الى التفاؤل بشأنهم ، والفرح بهذا النبى الكريم الذى أكرم الله أمته بسببه فقد قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٩٠) »

ويؤكد هذه البشرى الطيبة ما رواه أسامة بن زيد ، أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ هذه الآية وقال : كلهم فى الجنة ، وقرأ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية ثم قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له (٩١) »

ثم صلى هو ومن معه فى البيت المعمور . .

قال : ثم رفعت الى سدرة المنتهى فإذا فيها عين تجرى يقال لها سلسبيل ، ينشق منها نهران ، أحدهما الكوثر ، والآخر يقال له ؛ نهر الرحمة . فاغتسل فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وعاين الجنة وأنهارها التى وصفها القرآن الكريم بقوله :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (٩٢)

ولقد وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انهارها وثمارها وطيرها وعقب على ذلك بقوله : « إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لاعين رأت ولا

---

(٩٠) فاطر ٣٢ : ٣٥

(٩١) تفسير القرطبى ـ سورة فاطر ص ٥٤٢٨ ط دار الشعب

(٩٢) محمد ١٥

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »

وبشر بعض أصحابه بما اعد لهم من طيبات .

فرضية الصلاة

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : فدفعت الى سدرة المنتهى ، فتغشاني النور - ونزل على كل ورقة - من اورق سدرة المنتهى - ملك من الملائكة

قال : وفرضت عليّ خمسون - صلاة - وقال الله تعالى - له : لك بكل حسنة عشر ، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة فإذا عملتها كتبت لك عشرا ، واذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء ، فإذا عملتها كتبت عليك سيئة واحدة . . وهذا إعلام لأمته - صلى الله عليه وسلم -

محاورة بين النبي وموسى عليهما السلام :

وعاد - صلى الله عليه وسلم - فاستقبله موسى - عليه السلام - فقال له : بم أمرك ربك ؟ قال النبي - صلى الله عليه وسلم - بخمسين صلاة .

قال : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، وقد بلوت الخلق قبلك . .

فرجع النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارب خفف عن أمتي - فانها لا تطيق ذلك . فوضع الله عنه عشرا ، وجعل الصلوات أربعين .

واستقبله موسى ايضا بمثل ما استقبله في المرة الاولى . . وطلب منه مناشدة ربه التخفيف .

فعاد النبي - صلى الله عليه وسلم - الى الله ورجاه أن يخفف عن امته ، فحط عنه عشر صلوات ، فأصبحت الصلوات ثلاثين .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمازلت اختلف بين ربى وموسى ، كلما أُتيت عليه قال لى مثل مقالته ــ الأولى ـ حتى رجعت إليه فقال لى ؛ بم أمرت ؟

قال : فقلت : أمرت بعشر صلوات .

قال : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك .

فرجع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى ربه فقال ؛ أى رب خفف عن أمتى . . .

فوضع الله عنه خمس صلوات .

وسمع نداء يقول له :

« تممت فريضتى ، وخففت عن عبادى ، وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها »

ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم ـ إلى موسى . فقال له : بم أمرت ؟

فقال : أمرت بخمس صلوات .

قال موسى : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : رجعت إلى ربى حتى استحييت .

ولنا أن نقف وقفة تأمل أمام هذه المحاورة . .

ولنتأمل أولا : لماذا فرضت الصلاة فى هذا المكان بالذات ، وفى هذه الليلة المباركة ومن فوق سبع سنوات ؟

ان هذا يدل على أهمية الصلاة ، وأنها هى الصلة بين العبد وربه ، وأن الله ما خلق الانسان إلا لعبادته ، ومظهر العبادة العملى هو الصلاة أولا ثم بقية الشعائر بعد ذلك . . فالصلاة تجمع كل العبادات ، ثم هى الذكر الخالص

لله ـ قال ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ ﴾(٩٣)

وقد قال فضيلة الشيخ الشعراوى فى ذلك : فرضية الصلاة كانت بالمباشرة لأهميتها ولم تكن عن طريق جبريل كما كانت العبادات الاخرى ، لأنه ليس للصلاة عمل إلا أن تقربك من الله . . ان الانسان هو صناعة الله ، فالله هو صانعه ، وصنعة تقف أمام الذى صنعها كل يوم خمس مرات فلابد ان تكون على أوفى شىء من الضبط ، واذا كان المهندس من البشر يصلح الآلة بشىء مادى يصنعه فيها فان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يصلح عبده الذى يقف بين يديه فى لحظة القرب بأمر غيبى ، وليس بعملية مادية ، ولذلك يخرج المصلى من بين يدى ربه وقد استراح وتبددت همومه واكتسب طاقة ايمانية (٩٤)

فعظمة الصلاة اقتضت ان يستدعى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الحضرة الالهية ليتلقى الأمر بها . . ولجلالها ولروعتها ولعظمتها ولحسن أثرها كان الاكثار منها يقرب العبد من ربه . . لأن العبد يقف فى الصلاة بين يدى ربه مفرغا لخدمته ومناجاته ، وما ذلك إلا لحبه لله وحب الله له . . ولنتأمل بعد ذلك فى هذه المحاورة التى تمت بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين موسى ـ عليه السلام ـ ولماذا طلب موسى ـ عليه السلام ـ من النبى ﷺ أن يسأل ربه التخفيف عن هذه الأمة ؟ وهذا سؤال قد أورده البعض ، وقد تكفل الشيخ الشعراوى ـ حفظه الله ونفعنا بعلمه ـ بالإجابة عن ذلك فقال : الرواية التى قالت لنا : إن الله قد فرض علينا خمسين

---

(٩٣) طه ١٤

(٩٤) الاسراء والمعرج ـ الشيخ الشعراوى ص ١١٠

صلاة وبعد ذلك ذهب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى موسى ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، وتكرر ذلك حتى صارت خمسا .

هنا كلام أحب أن يلتفت اليه المسلمون جيدا ، وهو ان كراهيتنا لليهود نجمت من حبنا لموسى عليه السلام ـ فقد أوذى من اليهود أشد الايذاء ، ورفضوا تنفيذ ما أمرهم به ، وغيروا وبدلوا . وطلبوا ما لا يصح ان يطلبه عاقل ، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ـ ولذا فان موسى عليه السلام ـ طلب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف لأنه خبر طبائع البشر ، وعرف ان التكاليف تشق على الناس ، وليس ذلك لوصاية منه على هذه الأمة . . لأن الوصاية تكون من الانسان الذى يأتى ليفرض عليَّ أكثر مما فرض عليَّ .
أما الذى يأتى للتخفيف فلا يوصف بالوصاية ، لأنه يريد ان يخفف عنى أمورا يعلم أننى لا أطيقها .

وقد جرب موسى ـ عليه السلام ـ الأمم قبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يكن الله قد فرض على قوم موسى الا صلاتين : صلاة بالغداة وصلاة بالعشى ، ومع ذلك فلم تقم أمته بها . ولهذا طلب من رسول الله ان يعود ويسأل ربه التخفيف حتى تستطيع الأمة المحمدية ان تقوم بما كلفت به خير قيام . . فهذا دليل على أنه يحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحب أمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو لا يريد ان تفعل هذه الأمة مثل ما فعلت أمته فقد أراد ـ عليه السلام ـ لأمة محمد الاستقامة على الطاعة والمواظبة عليها ، لان التكاليف إذا كثرت شقت على النفس ، وصعب عليها

المداومة على فعلها ، وانقطعت عنها . وهذا ما خشيه موسى عليه السلام ـ على أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم [٩٥]

ويأتى تساؤل آخر هو :

إذا كان الله قد أراد أن تكون الصلاة خمسا فلماذا فرض خمسين أولا ؟

لعلنا نكون قد أشرنا إلى الاجابة على هذا السؤال قبل ذلك حين قلنا : ان الله قد أراد بذلك صالح الأمة الاسلامية . . فالتكليفات من الله ليست لحاجة الله إلى فعلنا وانما هى لصالحنا نحن ولما يعود علينا من جزاء وثواب نظير هذا التكليف .

ومع ذلك فان الله لم ينقص من الأجر بانقاص الصلاة إلى خمس ، فقد جعل ثواب الخمس هو ثواب الخمسين ، واذاً فالعطاء غير متناسب مع العمل ، بل العطاء أجل وأعظم . .

لقد خفف الله العمل الموصل إلى الثواب ، ولم ينقص الثواب . .

قال الشيخ الشعراوى : ولقائل ان يقول : كيف ينسخ الله الحكم قبل ان تُمكَّن من الفعل ؟

والرد عليه : أن الناس يفهمون أن مراد التكليف من الله إنما هو فعل الشيء المكلف به فقط . . ولكن المراد من كل تكليف من الله لخلقه أمران ، الأمر الأول الايمان بالتكليف وعدم رده .

والأمر الثانى فعله .

فاذا قبلت الأول فقد أخذت شقا من الأمر بالتكليف ويبقى الثانى وهو فعله .

ولتوضيح ذلك نضرب هذا المثل :

إبليس عصى ربه ، وآدم عصى ربه ، فلماذا طرد إبليس من رحمة الله ؟ ولماذا

---

(٩٥) انظر المرجع السابق ص ١١٤

تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ؟

والاجابة : هى ان ننظر إلى معصية كل منهما . . فمعصية إبليس كانت فى انه رد الأمر التكليفى على الله ، فقال :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ (٩٦)

وكأنه قال : أنا لا يعجبنى هذا التكليف ، فأنا خير منه . .

ولكن آدم ـ عليه السلام ـ لم يرد التكليف على الله ، بل اتهم نفسه وقال :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٩٧)

فحين كلف الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاة خمسين قبلها رسول الله ، وانصاع لأمر التكليف ولم يعارض فيه . ولكنه رجع على سبيل الرجاء لا الاعتراض . فالمنسوخ ليس قبول التكليف ولكنه أداء الخمسين التى صارت الى خمس منّةً من الله ورحمةً بعباده .

ويشبه هذا أمر ابراهيم ـ عليه السلام ـ بذبح ولده . . فقد انصاع ابراهيم واسماعيل ـ عليهما السلام ـ ولم يردا على الله التكليف . . فنسخ الله أمره تكريما لابراهيم وولده ، وفدى الولد بذبح عظيم .

واذن فالأمر التكليفى يتطلب شيئين : الايمان به وقبوله . ثم فعله ، فاذا جاء واحد لا يصلى ، يقال له : أنت لا تصلى ، فهل أنت منكر للصلاة أو

---

(٩٦) الاسراء ٦١

(٩٧) الأعراف ٢٣

كسلان ؟ فان كان منكرا يقال له كفرت ـ لأنه رد الفعل على الله . وان كان متكاسلا فهو عاص يوجه نظره إلى وجوب أدائها .

كيف يلتقي الأحياء بالأموات ؟

لقد رأينا كيف التقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الرحلة الكبرى بالأنبياء ودارت بينه وبينهم أحاديث . والمعروف ان هؤلاء الأنبياء الذين التقى بهم قد ماتوا . . وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حيا . فكيف التقى بهم اذن ؟

وقد رأينا ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفهم بصورتهم الجسمية التى كانوا بها فى الدنيا ، فكيف يكونون بهذه الاجساد فى السماء ؟

وهذه تساؤلات لابد ان تثور فى عقل القارىء المفكر ، ولابد من إجابة عليها حتى يطمئن قلبه وتهدأ نفسه ويهتدى عقله .

والاجابة تتمثل فى وجوب الرجوع إلى الآيات القرآنية التى لو وقف الانسان عندها بإمعان لأمكنه ان يأخذ الأصل الذى يعتمد عليه فى إيمانه بتلك الرحلة وما حدث فيها .

ان لروح كل منا اتصالات مختلفة تحكمها قوانين ثابتة .

واتصال الروح بصاحبها فى حالة اليقظة لها قانون ، واتصالها به فى حالة النوم لها قانون آخر ، واتصالها به فى عالم البرزخ لها قانون ثالث .

ونحن فى الحياة لنا حالتان فقط ، حالة النوم وحالة اليقظة . . ففى حالة النوم ، قد يرى لانسان فى منامه ان فلانا يرتدى ملابس حمراء ، وآخر يرتدى ملابس خضراء . وهو يرى هذه الالوان مع ان عينيه مغمضتان . فكيف تمكن من رؤية الألوان من غير آلة رؤية ؟

فهناك اذن وسيلة من وسائل الادراك غير التى نعرفها ، ووسائل من وسائل الاحساس بالاشياء غير الحواس الخاصة بنا .

فبمجرد خلود مادة كل منا للنوم تبتدى الروح إشراقاتها وتجلياتها مع الجسم ، وتعطى له معاز أخرى ، وليس للزمن سيطرة فى هذه الحالة .

والمرائى التى يراها النائم ليست لها سيطرة ايضا ، ولكن لها قانون خاص . فقد يكون هناك شخصان ينامان متجاورين ، فيرى أحدهما فى نومه أنه يأكل ويشرب ويضحك ويرى الآخر انه يُضرب ويُعذب ، وكلاهما لا يشعر بالآحر مع أنهما متجاوران ، ولو كانا فى اليقظة لأحس كل منهما بحالة الآخر .

قانون الروح فى النوم أخف وأشف وأقوى من قانونها فى اليقظة ، فاذا كان ذلك مع بقاء الحياة ، فما بالك لو ان هذه الروح تجردت كلية عن هذه المادة . . ؟

ماذا يكون القانون الذى يأتى بعد ذلك ؟ أيكون أكثف من قانون النوم أم أشف ؟ لابد ان يكون أشف من قانون النوم ، وتكون فيه المرائى ، وفيه الصور وفيه الالتقاءات .

لكن من الذى يستطيع أنْ يجرد روحه من ماديته لتتفوق روحانيته حتى يلتقى بمثل هؤلاء ؟

هذا ما فعله الله مع رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جرده من بشريته فجعل الاشياء التى

لم يرها وهو يقظ يراها فى هذه الحالة . .

لقد أحدث الله سبحانه فى نبيه تغييرا مكنه من مجابهة هذه الرحلة ومن رؤية مالا يمكن أن يراه وهو بشر على الأرض . .

وإذا كان الإنسان العادى فى حالة الغرغرة يرى أشياء لا يمكن أن يراها قبلها مصداقا لقوله ـ تعالى :

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (٩٩)

فلماذا لا يكون الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطى نبيه صلاحيات خاصة يرى بها أنبياءه ورسله فى رحلته هذه ؟ ويكلمهم ويحادثهم ويصلى بهم ؟ . . وبقدرة الله كانوا فى الصورة التى كانوا عليها فى حياتهم الدنيا . .

مارآه النبى صلى الله عليه وسلم ـ فى رحلته

لقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أثناء رحلته ، كثيرا من الآيات العجيبة . . وقد أورد ابن كثير فى تفسيره حديث أبى هريرة وفيه ـ ثم أتاه جبريل بفرس فَحُمِل عليه ، كل خطوة منه منتهى بصره ، فسار وسار معه جبريل ـ عليهما السلام . .

● فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياجبريل ، ماهذا ؟

قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

● ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يُفَتَّر عنهم من ذلك شىء . فقال : ماهؤلاء ياجبريل ؟

---

(٩٩) ق ٢٢

قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

● ثم أتى على قوم يسرحون كما تسرح الإبل والنعم ، ويأكلون الضريع والزقوم ونار جهنم وحجارتها . قال : ما هؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء الذين لايؤدون صدقات أموالهم وماظلمهم الله شيئا ، وما ربك بظلام للعبيد .

● ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر حسن ، ولحم آخر نىء فى قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النىء الخبيث ، ويدعون النضيج الطيب ، فقال : ماهؤلاء ياجبريل ؟

فقال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يُصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح .

● ثم أتى على خشبة على الطريق ، لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شىء إلا فرقته . قال : ما هذا ياجبريل ؟

قال : هذا مثل أقوام من أمتك ، يقعدون على الطريق يقطعونه ، ثم تلا

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ (١٠٠)

●ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .

فقال : ماهذا ياجبريل ؟

---

(١٠٠) الأعراف ٨٦

فقال : هذا رجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يزيد أن يحمل عليها .

● ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يُفَتَّر عنهم من ذلك شيء . قال : ماهؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

● ثم أتى على جُحْر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع . فقال : ما هذا ياجبريل ؟

فقال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

● ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صوتا ، فقال : ياجبريل ، ماهذه الريح الطيبة الباردة ؟ وماهذا المسك ؟ وماهذا الصوت ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : يارب ، آتنى ماوعدتنى فقد كثرت غُرَفى وإستبرقى وحريرى وسندسى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأباريقى ومراكبى وعسلى ومائى وخمرى ولبنى ، فآتنى ما وعدتنى .

فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحا ولم يشرك بى شيئا ولم يتخذ من دونى أندادا . . .

● ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ، ووجد ريحا منتنة ، فقال : ماهذا الريح ياجبريل ؟

وماهذا الصوت ؟

فقال : هذا صوت جهنم ، تقول : يارب آتنى ماوعدتنى[١٠١] . . . .

وهناك مرائى أخرى رآها أيضا فى عروجه . . . ففى رواية أخرى ذكرها ابن كثير أيضا ، يقول بعد أن عرج به صلى الله عليه وسلم - إلى السماء :

● ثم مضيت هُنَيَّة فإذا أنا بأخونه عليها لحم مُشَرَّح ليس يقربها أحد ، وإذا أنا بأخونه أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن ، عندها أناس يأكلون منها . فقلت : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام .

● قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خرَّ . . يقول : اللهم لاتقم الساعة - قال : وهم على سابلة آل فرعون ، فتجىء السابلة فتطؤهم . قال : فسمعتهم يضجون إلى الله عزوجل . قلت : ياجبريل . من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا من أمتك قال تعالى

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَـٰنُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[١٠٢]

قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك جرجهنم ثم يخرج من أسافلهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله - عز وجل - فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى من أمتك قال تعالى (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)

---

(١٠١) تفسير ابن كثير حـ ٥ ص ٣١

(١٠٢) البقره ٢٧٥

● قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بنساء يعلقن بثُديهن ، فسمعتهن يصرخن إلى الله ـ عز وجل ـ قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء الزناة من أمتك .

● قال : ثم مضيت فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه ، فيقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك . قلت : ياجبريل ، من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء الهمازون من أمتك

● قال : ثم صعدنا إلى السماء الثانية . . .

وهذه كلها أمور أراها الحق ـ سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ـ ويريد بذلك أن يلفت أنظار الناس إلى ما أعده الله تعالى للعاصين والمخالفين لأوامره ونواهيه . . .

أو بتعبير الشيخ الشعراوى هى وسائل إيضاح ـ كما يقول رجال التربية ـ ووسائل الإيضاح هذه تنقل الكلام النظرى إلى ترجمة عملية . . هى أمور مادية معملية ترينا صدق القضية النظرية . . .

والدين يأتى بتشريعات تحتاج إلى ضرب الأمثال التى تصدقها وتؤكدها وتثبتها فى الأذهان .

وقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الرحلة أمورا تعطى له واقع الأوامر المنهجية التى أتى بها التكليف .

فأول شىء يعرضه لنا مسألة الفطرة وتغيرها . فعرض عليه كوب اللبن وكأس الخمر .

فلما اختار كوب اللبن قال له جبريل : هديت إلى الفطرة . .

ومعنى ذلك أن الفطرة بطبيعتها نقية ، لأن اللبن الذى نشربه من أمهاتنا أو اللبن الذى نشربه من البهائم لا صنعة للإنسان فيه أبدا ، إننا نشربه كما ينزل فهذه هى الفطرة .

لكن فى الخمر نحن نأخذ رزقا من الرزق الحسن وهو العنب فنتلفه حين نخمره ونجعله يتتن ويتحلل فيخرج بذلك عن فطرته ..

أما منظر القوم الذين يزرعون ويحصدون فى وقت واحد مع تكرر هذه العملية عدة مرات فهو رمز للجهاد ، لأن الجهاد فى سبيل الله هو الوسيلة الناقلة لهدى الله إلى خلق الله ، فالجهاد فى سبيل الله هو الانسياح بالدعوة المنهجية التى جاءت من الله إلى الناس كى يهتدوا إليها ، فلابد لهؤلاء المجاهدين أن يكون لهم ثمرات متعددة ، لأنهم يجودون بأموالهم وأرواحهم فلابد أن يخلف الله عليهم خلقا يناسب عظمة الله فى العطاء ..

أما منظر الذين تُقَصُّ شفاههم وألسنتهم وهو رمز لخطباء الفتنة . فإنما ذلك لأن الشفتين واللسان هما الأداتان اللتان تتعاونان فى إخراج الكلام ..

وخطباء الفتنة هم الذين يقولون مالايفعلون ، لهم ألسنة أحلى من العسل ، وأفعال أمرُّ من الحنظل ، وهم يروجون الفتنة ، وآفة كل دعوة هم خطباء الفتنة فيها ... فالناس ينظرون إلى كلام هؤلاء فيجدونه يخالف فعلهم ، وإذا انفصلت الكلمة عن السلوك انقلبت المناهج رأسا على عقب ..

ومثال ذلك أننى إذا جلست أحدث ابنى عن مضار الكذب وفضائل الصدق ثم رآنى هذا الابن أكذب بعد ذلك .

كان ذلك هدما لما أردت أن أعلمه إياه .. لأن سلوكى مخالف لقولى .

وهكذا الأمر بالنسبة لخطباء الفتنة الذين يجعلون من الدين مبررا لتصرفاتهم ، والدين ليس دين تبرير ، ولكنه دين تمسك بالفضائل ، وارتفاع بالمستوى الخلقى والسلوكى للناس . .

فهذه المرائى إذن كانت وسائل إيضاح بالنسبة للمنهج التشريعى الذى اختاره الله للبشر . .

وهذا المنهج يقرر لهم حياتهم الدينية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية والمعيشية . . . . .

لقد جاءت هذه المشاهد التى رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتوضح له - ثم يوضح هو للناس - حقيقة المنهج وخطورة الخروج عليه . .

فقد أراه الله أكلة الربا - مثلا - فى صورة الذين يسبحون فى بحر من الدم ثم بعد ذلك يلقمون الحجارة . .

وهذا رمز لقلب الأوضاع . لأن المرابى يقلب الأوضاع والقوانين التى سنها الشرع ، والتى فطر الله عليها الناس . .

فهو ليس فى حاجة إلى المال ، ولكنه يستغل فقر الفقير ليزيد هو فى ثرائه ويزيد الفقير فقرا . . وهو بذلك يقلب أوضاع التنظيم الاقتصادى الذى يجب أن يكون على وفق ما شرع الله ليستريح الناس ويسعد غنيهم وفقيرهم على السواء .

كما عرضت صورة المغتابين الذين يتناولون أعراض الناس فى صور عدة : منها صورة القوم الذين يخدشون وجوههم بأظفار من نحاس .

ومنها صورة الذين يأخذون قطعا من لحمهم فيأكلونها .

وما ذلك إلا للتنفير من هذا الداء الوبيل الذى يقوض سلامة المجتمع ويعرض بنيانه للانهيار . . . .

وهكذا بقية المرائى إنما كانت أمثلة توضيحية لبيان وتقريب المنهج الإلهى إلى أذهان البشر . وتقريره فى عقولهم ، ليقتنع الناس بضرورة تطبيقه وخطورة الخروج عليه . . . ولعلنا نلاحظ أن هذه المرائى قد تناولت تشريعات لم تكن قد فرضت بعد ، فقد فلاضت الصلاة مثلا فى تلك الليلة . . . أما بقية التشريعات الأخرى فقد نزل بها جبريل ـ عليه السلام . بعد الهجرة . وذلك بعد هذه الليلة بسنوات وكأن هذه الأمثلة التوضيحية عرضت لتتقرر فى الأذهان عمليا قبل أن يقررها الشرع الحكيم . . . وقد أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يطلع نبيه على ماسيكون عليه عقاب المخالف للمنهج الذى سيقرر على الناس ، حتى إذا ما حذّر النبى صلى الله عليه وسلم ـ من مخالفته يكون تحذيره نابعا من عين اليقين الذى عاينه وحققه .

العودة من الرحلة

عاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذه الرحلة العظيمة إلى مكة ، ولم تستغرق هذه الرحلة سوى جزء من الليل ، لأن الزمن ملغى فى جناب الله الذى أسرى بعبده . . . . وأقبل ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدث الناس عن رحلته ، فتعجبوا من ذلك وكذبوه . . . ولقد طالبوه بالدليل على صدقه ، فأتى لهم بالدليل تلو الدليل ، فمازادهم ذلك إلا تكذيبا وضلالا . .

قال لهم : لقد مررت بعير لقريش بمكان كذا وكذا ، وقد أضلوا بعيرا لهم . . . وإنهم ينزلون بمكان كذا وكذا ، ثم يأتون إليكم يقدمهم جمل آدم عليه غرارتان سوداوان . .

وأسرع المشركون إلى أبى بكر يقولون له : هل لك إلى صاحبك . . يزعم أنه أسرى به الليلة الى بيت المقدس ؟ . فقال أبوبكر : أوقد قال ذلك ؟

قالوا : نعم .

قال : لئن قال ذلك لقد صدق . .

قالوا : تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟

قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة وروحة . . .

وأقبل المطعم بن عدى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : يا محمد صف لنا بيت المقدس .

وإنما أراد بذلك أن يتحداه ، ويبين أمام الناس أن رحلته هذه لم تكن إلا من وحى خياله فحسب وأنه لم يغادر مكة فى ليلته . .

صفه لنا يامحمد إن كنت قد ذهبت إليه حقا . . .

فإذا ببيت المقدس يجلى بقدرة الله أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذا به ينظر إليه ويصفه لهم بابا بابا ، ومكانا مكانا حتى أتى على أوصافه كلها . . وأبوبكر يقول له : صدقت . . . ومع ذلك لم يصدق الكفار بل أمعنوا فى تكذيبه .

لقد طلبوا منه وصف المسجد ، لأن كثيرا منهم ذهب إلى بيت المقدس ، ورآه . .

ولكنهم لم يستوصفوه السماء التى عرج إليها مع أنه أخبرهم أيضا بعروجه إليها : ذلك لأن أحدا منهم لم يعاين السماء ولذا فلن يستطيعوا معارضته فيما يقول ـ أما بالنسبة لبيت المقدس ففى إمكانهم لو أخطأ الوصف أن يعارضوه . .

ولم يسرع إلى تصديقه إلا أبوبكر ـ رضى الله عنه ، ومن ذلك الوقت لقب بالصديق ـ قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياأبابكر إن الله تعالى قد سماك الصديق .

هل رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - ربه ؟

اختلف العلماء فى ذلك .. فالذين نفوها استندوا إلى قوله تعالى :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣ ﴾ (١٠٣)

كما استندوا إلى ما روته عائشة رضى الله عنها . قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله ... فالله تعالى يقول :

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ويقول « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء(١٠٤) »

أما الذين أثبتوها فاستندوا إلى ماروى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - حين سئل عن ذلك فقال : نور أنى آراه ..

واستشهدوا على ذلك بما فهموه من قوله - تعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ ﴾ (١٠٥)

وعلى كل فلا معنى للخوض فى هذا المجال الذى اختلف العلماء حوله .. ذاك أنه أمر غيبى بالنسبة لنا ، وليس لنا أن ندلى فيه برأى لأن هذا شىء بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وربه جل وعلا ..

فلئن كان أطلعه على الرؤية فقد شرفه بذلك ، وهو جدير بذلك الشرف

---

(١٠٣) الانعام ١٠٣

(١٠٤) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٥٠

(١٠٥) النجم ١٣ ، ١٤

- واكثر المفسرين على ان المرئى فى قوله « ولقد رآه نزلة اخرى » هو جبريل عليه السلام

وإن لم يطلعه عليها فهذا شان ـ الحق ـ جلت قدرته وتعالت كلمته . . على أنه يمكن التوفيق بين ما ورد عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، وبين ما ورد عن ابن عباس وغيره ، من أن الرسول قد رأى ربه . . بأن الرؤية المنفية عند عائشة هى رؤية البصر الذى يحد ما يدركه ، والرؤية المثبتة عند ابن عباس هى رؤية الفؤاد والبصيرة التى انكشفت أمامها الحجب ، والله تعالى أعلم ، وهو على كل شىء قدير .

تذوق لغوى

قال الله ـ تعالى ـ بالنسبة للإسراء « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا »

وقال بالنسبة للمعراج « لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

فقد عبر فى الإسراء بقوله « لنريه » فكأنه لم ير بنفسه ـ وعبر فى المعراج بقوله « لقد رأى » فكأنه رأى بنفسه . فما السر فى هذا التعبير ؟

يتولى فضيلة الشيخ الشعراوى الإجابة عن هذا السؤال فيقول ـ ونحن ننقل رأى فضيلة الشيخ الشعراوى هنا ليستفيد القارىء معنا من مصاحبة القرآن الكريم وإدراك الدقة اللغوية فى استعمالاته وجمال التعبير اللفظى فى كشف الحقائق الغائبة عن الأذهان ـ :

يقول فضيلة الشيخ الشعراوى :

هناك فرق بين الإراءة والرؤية . .

فالإراءة هى أن تجعل من لا يرى يرى ، وذلك إما بتحويل المرئى إلى قانون الرائى ، أو بنقل الرائى لأن ينفذ إلى قانون المرئى .

والمثال التوضيحى لذلك هو المريض ببصره ، فالطبيب ينصحه باستعمال نظارة حسب مقاس عينه ، أو يجرى له عملية جراحية إذا وجد فى العين ما

يستدعى ذلك ، وبذلك يتمكن المريض من الرؤية التى لم تكن متاحة له من قبل .

ففى حادث الإسراء كان النبى - صلى الله عليه وسلم - على الأرض ، وكان بشريا يخضع لقانون البشر ، وقانون الإبصار فيه خاضع لقانون الضوء ، وقانون الضوء لا يختلف فيه أحد .

فإذا كانت هناك آيات من غيب الله فى الأرض فلابد أن يحدث للنبى - صلى الله عليه وسلم - إراءة ، لأنه بطبيعته لا يرى هذه الأشياء . . ومن أجل ذلك جاء الفعل « لنريه » .

أما حينما عرج به فقد انتقل - صلى الله عليه وسلم - إلى الملأ الأعلى ، وهناك التقى بالملائكة والأنبياء السابقين ، فلابد أن تتغير ذاتيته أو يتغير شىء فى ذاتيته ، وكأنه طرح البشرية وأخذ شيئا من الملائكية التى ترى بنفسها ، ولذلك جاء فى هذه الحالة الفعل « رأى » أى رأى بنفسه . . فقال تعالى :

« لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

المراحل التى مربها الرسول - صلى الله عليه وسلم -

لقد مر النبى - صلى الله عليه وسلم - فى هذه الرحلة بثلاث مراحل . . المرحلة الأولى كان بشرا ، وجبريل - عليه السلام - يريه الأشياء ، وهو يسأل جبريل : ما هذا يا أخى ياجبريل ؟ وجبريل عليه السلام - يرد عليه فيقول : هذا كذا وهذا كذا .

المرحلة الثانية : كان يرى بنفسه دون أن يسأل جبريل ، فكأنه قد تغير فى ذاتيته شىء ، وخلص من عالم البشر إلى عالم الملائكية ، وأصبحت له ذاتية

فاهمة بدون وساطة جبريل ، ورائية أيضا بلا واسطة .

المرحلة الثالثة وهو التى دخل فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سبحات النور ولم يكن جبريل معه فى هذه الحالة ، لأنه صلى الله عليه وسلم ارتقى ارتقاء آخر ونقل من الصفة الملائكية التى لا قدرة لها على ما وراء سدرة المنتهى ، إلى صفة أخرى تستطيع أن تتحمل رؤية ما وراء سدرة المنتهى دون مصاحبة جبريل .. عليه السلام .

وإذن فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى الأرض بشرا مع جبريل .

وبعد ذلك كانت له صفة ملائكية مع الرسل والملائكة فى السماء . . .

وبعد ذلك كان له وضع آخر ارتقى به عن الملائكية حتى ان جبريل ـ عليه السلام ـ قال له : لو تقدمت أنا لاحترقت . أما أنت إذا تقدمت اخترقت(١٠٦)

دلائل وعبر

لقد اعتبر العلماء أن الإسراء والمعراج من معجزات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن دلائل نبوته ومن خصائصه التى اختص بها دون غيره من الأنبياء والرسل . .

والمعجزات أمر لازم للأنبياء ، وهى سلاح يؤيدهم الله به ليقهر خصومهم ، وينصرهم فى شدائدهم على أعدائهم .

وقد لقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قومه ألوانا من الأذى والشدة التى لا يستطيع أحد من البشر تحملها . فكان لابد أن يؤيده الله بما يشد أزره ، ويثبت قلبه ، ويقوى جنانه ، وبخاصة بعد أن توجه إلى ربه متضرعاً شاكيا له تكذيب قومه وايذاءهم الشديد له بعد رحلة الطائف .

---

(١٠٦) الاسراء والمعراج الشيخ الشعراوى ٦٦

لقد كانت رحلة الاسراء والمعراج بالنسبة له تكريما وتشريفا ، وكأن الله أراد أن يقول له : لقد عوضتك عن تكذيب الأرض تأييد السماء ، وعن إيذاء البشر حفاوة الملائكة . . فلا تظنن أن الله قد تخلى عنك أو تركك وشأنك ، وما عداء قومك لك إلا حلقة فى سلسلة عداء المكذبين الضالين لأنبيائهم عبر الأزمان والأجيال .

لقد أراد الله أن يعلى من قدر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكما أرسله إلى أهل الأرض إرسال تكليف ، فقد أحضره كذلك إلى أهل السموات إحضار تشريف كى يعلو مقامة الكريم ، ويعرف الجميع شأنه عند ربه ـ جل وعلا ـ

ولقد كان الاسراء إلى بيت المقدس للإشارة إلى ما لهذا البيت من منزله وقداسة ، وهو ثانى بيت بنى فى الأرض لعبادة الله بعد البيت الحرام ـ وقد أفردنا عددا خاصا للحديث عن المسجد الأقصى سبق نشره . . . . وفى رحلة الإسراء أيضا دلالة على هيمنة الإسلام على ما سبقه من ديانات مع بيان العلاقة الوثيقة التى تربط بين ما جاء به كل من موسى وعيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

وربما أشار هذا الحادث إلى ضرورة الحفاظ على هذا المكان المقدس الذى جمع بين المقدسات المختلفة ، وحمايته من أى اعتداء يهدد حرمته وأمنه وسلامته ، ويصد الناس عن زيارته والصلاة فيه

ولعلنا لا نغفل عن تلك المرائى والآيات التى حفلت بها هذه الرحلة المباركة . فهى تشير إلى أن الإسلام دين الفطرة .

كما تشير إلى وجوب الجهاد فى سبيل الله ، والانفاق من الطيبات ، والابتعاد عن الرذائل بأنواعها التى أشارت المرائى المختلفة إليها من ربا

وغيبة ونميمة وزنا وإشاعة للفتنة والفساد بين الناس وغير ذلك مما تضمنته تلك المشاهد التى رآها النبى - صلى الله عليه وسلم وسأل عنها جبريل - على السلام . . فأعلمه بما تشير إليه وتوحى به . واستلزم ذلك من النبى - صلى الله عليه وسلم - تحذير الأمة وتنفيرها من ارتكاب هذه الموبقات . . . . . وفى قصة الاسراء تمجيد للحق ووجوب المسارعة إلى مظاهرة أهله والدفاع عنهم ضد الكفار وأعداء الحق . . وقد رأينا صورة واضحة للتصديق فى سيدنا أبى بكر - رضى الله عنه - الذى لقب بالصديق لتصديقه النبى - صلى الله عليه وسلم - دون إبطاء أو تأخير . .

ولعل من أجلّ ما حدث فى تلك الرحلة هو حشد الأنبياء والرسل ليؤمهم - النبى صلى الله عليه وسلم - فى صلاة جامعة تشهد بإمامته لهم وإيمانهم به ومبايعتهم إياه تصديقا لقول الحق

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١٠٧)

وتشريف النبى - صلى الله عليه وسلم - بهذه المنزلة تشريف لأمته وإشهاد بفضلها على الأمم واعلاء لقدرها فى الآفاق ، فهى أمة النبى الخاتم التى يقول الحق فى وصفها

---

(١٠٧) آل عمران ٨١

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (١٠٨)

كل نبى يفيض على أمته من علمه

ولا شك فى أن كل نبى يفيض على أمته من العلوم والمعارف والهدى على مستوى المعين الذى ارتوى منه ، وعلى قدر ما أعطاه الله من التشريف والتكريم والاجتباء ، والأنبياء يتفاضلون على حسب ما ذكر القرآن الكريم

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ (١٠٩)

ومنزله نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العلم أسمى منزله وقد منحه الله العلم من أبواب كثيرة .. منها باب الهبة ـ من الله ـ قال تعالى :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (١١٠)

---

(١٠٨) آل عمران ١١٠
(١٠٩) البقرة ٢٥٣
(١١٠) النساء ١١٣

ومنها باب الطلب امتثالا لقوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

ومنها باب المشاهدة التى استطلعها فى ليلة الاسراء والمعراج

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (١١٢)

ومن ذلك أيضا باب الوحى

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١١٣)

وباب الجهاد

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ومن هنا كان العلم الذى ورثه النبى - صلى الله عليه وسلم - لأمته زائدا على علم غيرها من الأمم فاستحقت بذلك أن تتبوأ به من المنازل الرفيعة مالم تصل إليه أمة آخرى

عالمية الدعوة

لقد كان الاسراء إلى بيت المقدس إشعارا بأن الاسلام ليس مقصورا على الجزيرة العربية ، وليست دعوته مقصورة على أمة معينة كما كانت الرسالات

(١١١) طه ١١٤
(١١٢) النجم ١٨
(١١٣) الشورى ٥٢
(١١٤) العنكبوت ٦٩

السابقة . . . ولكنه رسالة شاملة عامة ـ قال تعالى ـ

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [١١٥]

فلابد أن تشمل فيا تشمل المكان الذى انبثقت منه الرسالات السابقة . خصوصا اليهودية والمسيحية . لأنهما الرسالتان اللتان نزلت رسالة الإسلام على أثرهما . . . وذلك لإثبات أن رسالة الله لا تتعدد فى جوهرها ، ولقد جاء الإسلام متمما لمكارم الأخلاق ، ومصححا للانحرافات التى وقع فيها أتباع الرسل السابقين ومصوبا للأخطاء التى أضيفت عن عمد إلى النصوص المقدسة السابقة . . .

ما تثيره الذكرى من أحاسيس

إن ذكرى الاسراء والمعراج تثير فى نفوس المسلمين اعتزازا بدينهم ، وتبعث فيهم قوة اليقين الذى يضىء جوانب النفس ، ويطلق الروح إلى عوالم الكون فترتاد منها مايبعث الشوق إلى الملأ الأعلى وما يزخر به من نور ومثل .

وتذكر المسلمين بواجبهم نحو هذا المسجد الأقصى الذى جعله الله مسرى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبلة له فى أول فرضية الصلاة قبل أن تتحول القبلة إلى الكعبة المشرفة ، ولعلهم يستطيعون بانطلاقة روحية قوية أن يخلصوه من أسره ، ويعيدوه حرا طليقا كما كان ، يتردد عليه الزائرون المتعبدون من كل مكان .

---

(١١٥) سبأ ٢٨

لقد رسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحديثه عن مشاهداته الراقية الطريق لأمته نحو التأمل الصافى ، والتفكر فى خلق السموات والأرض ، ليصل منه الانسان إلى حقائق لم يكن ليصل إليها لو وقف جامد الفكر بليد الحس خامل العقل . . . .

والإسلام من بين الأديان جميعا حث الإنسان على التفكر والتأمل . . . وآيات القرآن العديدة تشهد بذلك . . منها قوله تعالى

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (١١٦)

فهو يحث على التفكر فى السموات ويدعو إلى النظر إليها ، وتوجيه القلب والفكر نحوها لعل الإنسان يستطيع عن طريق تأمله أن يصل إلى بعض أسرار الكون المستكنة ، فيدرك عن يقين عظمة الله وقدرته . .

بل إن سورة النجم التى تحدثت عن المعراج بدأت بالقسم بالنجم إذا هوى لتلفت النظر من المشاهدة الحسية إلى التفكر فيها وراءها من أسرار حكيمة ودقائق عظيمة . وإنها لتنعى على الجامدين وقوفهم عند ظواهر من العلم أضلتهم فتقول

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ (١١٧)

---

(١١٦) آل عمران ١٩٠ / ١٩١

(١١٧) النجم ٢٨

وتقول

﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١١٨)

ثم إنها تختم آياتها باستنكار موقف من يقابل هذا الحديث بالعجب والسخرية دون أن يفطن لما فيه من آيات وعبر

﴿ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١١٩)

لقد ارتاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم السماء بجسمه واطلع على ما فيها بحسه .... وميراث أمته من ذلك أن يمعنوا فى النظر ويوجهوا الفكر إلى أسرار الكون . طالبين من الله أن يفتح بصائرهم ، وأن يلهمهم من فيضه ـ جزاء وفاقا لجهودهم ـ وهذه هى السياحة الفكرية التى فهمها بعض المتذوقين من قوله تعالى ـ

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (١٢٠)

ليس غريبا أن يفتح الإسراء والمعراج للمسلمين آفاقا جديدة من المعرفة ويتطلعون إلى السماء ، التى عرج إليها نبيهم صلى الله عليه وسلم ـ بمعجزة خرقت قوانين الأرض ومنطق الحياة ، وهذه المعجزة تنبيه لأمته وتشريع لهم لأن يجولوا بأفكارهم ويبحثوا بعقولهم فى أسرار هذا الكون العظيم ـ

---

(١١٨) النجم ٣٠

(١١٩) النجم ٥٩ ـ ٦١

(١٢٠) التوبة ١١٢

ولا يتأتى ذلك إلا بالجهاد ، الجهاد الأكبر ، جهاد النفس والهوى . . إنهم بذلك يكونون مع الله ، ومن كان مع الله كان الله معه يعلمه ويهديه ويرشده إلى طريق الحق والرشاد فى دنياه وآخرته . . إن طاعة الله تفتح أمام المسلمين جميع الأبواب المغلقة فتتكشف أمامهم أسرار العلم والمعرفة . . وما أحوج المسلمين اليوم إلى العلم والعمل . . وما أعظم أن نختتم هذا الموضوع بآيات المعراج كما بدأناها بآية الاسراء » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ (١٢١)

ولنستأنف معاً حديثنا مع جهاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومثابرته فى تبليغ رسالة ربه ، وليكن حديثنا القادم عن عرض نفسه على القبائل تمهيداً للهجرة المظفرة .

---

(١٢١) النجم ١ : ١٨



مقدمات الهجرة

- ضيق أهل مكة بالنبي .
- النبي يعرض نفسه على القبائل .
- التقاؤه بقوم من الأوس والخزرج .
- إقبالهم عليه واستبشارهم بأنه النبي المنتظر .
- بيعة العقبة الأولى والثانية .
- أول سفير في الإسلام .
- موقف المشركين من الأنصار .
- النبي يأذن لأصحابه بالهجرة .
- حرص المسلمين على الهجرة .
- هجرة الرسول .

ضيق أهل مكة بالنبىﷺ

كان لحديث الاسراء والمعراج دوى كبير فى أرجاء مكة ، وكانت له آثاره المتعددة الجوانب . . ومن ذلك أن الكفار أمعنوا فى تكذيبهم واستهزائهم وسخريتهم ، وارتد بعض ضعاف النفوس من المسلمين الذين لم يثبت فى قلوبهم الإيمان ، قال ابن هشام فى سيرته :

لما أصبح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر . فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر الغريب ، والله إن العير لتسير شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب محمدﷺ ذلك فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة . فارتد كثير ممن كان أسلم .

قال الحسن : وأنزل الله ـ تعالى ـ فيمن ارتد عن إسلامه قوله

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (١٢٢)

ومن الآثار الايجابية : ازدادت طمأنينة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واكتسب طاقات جديدة وإشراقات كثيرة بما رآه من آيات ربه الكبرى . . وبما شاهده من أنوار العزة والجلال ، وبما أفيض على قلبه من علوم ومعارف . . وبما زكاه به ربه من ثناء . . . فقد زكى يقينه بقوله

« ما ضل صاحبكم وما غوى » ،

وزكى لسانه وحديثه فقال

---

(١٢٢) الاسراء ٦٠

« وما ينطق عن الهوى »

وزكىٰ علمه فقال :

« علمه شديد القوى »

وزكى فؤاده فقال

« ما كذب الفؤاد ما رأى »

وزكى بصره فقال

« ما زاغ البصر وما طغى »

وزكاه جملة وتفصيلاً فقال

« وإنك لعلى خلق عظيم » . .

لقد ثبّتت هذه الرحلة المباركة قلبه . وملأته ثقة ويقيناً . . . . وخصوصا بعد رحلة الطائف التى لقى فيها من كفار ثقيف ما لقى . . لقد بدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجابه قريشاً بروح جديدة وقوة خارقة ، وكأنهم فى نظره لا شىء .

أما هؤلاء المسلمين الذين ارتدوا فلم يؤثروا فى موقفه ، لأنهم انكشفوا على حقيقتهم ، وهو ليس فى حاجة إلى هذا الصنف من الناس الذين يعبدون الله على حرف ، فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم . . خسروا الدنيا والآخرة .

إن الاسلام ليس فى حاجة إلى أمثال هؤلاء ، ولكنه فى حاجة إلى قوم لهم صلابة فى دينهم ، وقوة فى يقينهم ، ورسوخ فى عقيدتهم ، لا تزلزلهم النوائب ولا تهزهم العواصف ، ولا تصرفهم الفتن أياً كانت عن دينهم . .

قال ـ تعالى ـ

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (١٢٣)

إن الاسلام فى حاجة إلى مثل أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ الذى ما إن سمع أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر عن رحلته حتى قال : صدق . .

وإلى مثل عمر وحمزة وعلى وأحزابهم من الذين لم يزدهم هذا الخبر إلا يقيناً وثقة فى نبيهم ، وحباً له وتمسكاً بدينهم وإقبالاً عليه وتصديقاً به ، وإيماناً بأن الله زاد نبيهم رفعة وتكريماً وتشريفاً وتعظيماً . .

وأصبحت قريش بعد هذا الحادث ولا هم لها إلا السخرية بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنكاية به ، والايذاء له . .

ولكن ذلك لم يثن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المضى فى دعوته ، والدأب فى تبليغ أمر ربه ـ « صابراً محتسباً مؤدياً إلى قومه حق النصيحة . . . بالرغم مما يلقى من التكذيب والأذى والاستهزاء . .

النبى ﷺ يعرض نفسه على القبائل

ولم يجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد تكذيب قومه له بُداً من طلب النصرة من غيرهم . فأخذ يعرض نفسه على القبائل العربية الوافدة فى موسم الحج إلى مكة . .

كان يتبع الحجاج فى منازلهم بمنى وغيرها من المواقف يسأل عن القبائل قبيلةً قبيلةً ، ويأتى إليهم فى أسواقهم المشهورة .

---

(١٢٣) العنكبوت ٢ ، ٣

وكان للعرب أسواق ثلاثة هى عكاظ ومجنة وذو المجاز .

أما عكاظ فهو نخل فى واد بين نخلة والطائف ، وهو إلى الطائف أقرب ، بينهما عشرة أميال . . .

ولعل هذا السوق هو أشهر أسواقهم ، لأنه إلى جانب ما فيه من سلع تجارية كان منتدى لمفاخراتهم ومحاوراتهم ومناشدتهم الأشعار وإلقائهم الخطب وقد قال حسان بن ثابت فيه :

سأنشر إن حييت لهم كلاماً ينشر فى المجامع من عكاظ

وكان كل شريف يحضر سوق بلده . . والجميع يحضرون سوق عكاظ . . . . كانوا يتوافون به من كل جهة . فكان يأتيه من قريش وهوازن وسليم والأحابيش وعقيل والمصطلق ومختلف طوائف العرب[١٢٤] »

أما مجنة ، فهى فى موضع قرب مكة ، كانت تقام فيه سوق قرب أيام موسم الحج من كل عام ويحضرها كثير من قبائل العرب .

وسوق ذى المجاز كانت بناحية عرفة إلى جانبها ، وقيل : إنها كانت لهذيل على فرسخ من عرفة .

وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تجىء إلى سوق مجنة فتقيم بها عشرين يوماً ، ثم تجىء إلى سوق ذى المجاز فتقيم بها إلى أيام الحج .

فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتى القبائل فى هذه الأسواق يدعوهم إلى ربه ، ويطلب منهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه .

---

(١٢٤) مختصر بلوغ الارب للالوسى ص ٥٦

ذكر الحلبى فى سيرته قال : عن جابر - رضى الله عنه - قال : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يعرض نفسه على الناس فى الموقف ويقول : ألا رجل يَعْرِضُنى على قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى ؟ »

وقد مر بنا أن أبا لهب كان يتبعه ويصد الناس عنه فقد روى عن بعضهم أنه قال : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يهاجر إلى المدينة يطوف على الناس فى منازلهم[١٢٥] ، يقول : يأأيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ووراءه رجل يقول : يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم فلا تسمعوا له . . فسألت : من هذا الرجل ؟ فقيل : أبو لهب . .

ومما روى فى ذلك عن بعضهم قال : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسوق ذى المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب يقول : يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، وخلفه رجل له عذيرتان ، يرميه بالحجارة حتى أدمى كعبه ، يقول : يأيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب . قال : فسألت عنه فقيل : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . . . فقلت : ومن الرجل الذى يرميه بالحجارة ؟ فقيل : هو عمه عبد العزى - أبو لهب . .

لقد تعهد أبو لهب أن يتبع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى كل منزل ، وكأنه لا عمل له إلا ذلك . فما يقوله النبى - صلى الله عليه وسلم - من إصلاح يفسده أبو لهب ، حتى إن العرب ليقولون : قوم الرجل أعلم به . . . أترون رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ؟

---

(١٢٥) اى الاماكن التى ينزلون بها

وقد كانت قريش وراء أبى لهب تسانده فى تكذيب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقريش إذ ذاك فى يدها سدانة البيت ، وزمام الآلهة التى يرونها بعيونهم ، ويطوفون حولها ويتمسحون بها ، أما محمد ﷺ فهو يحدثهم عن شىء غير مرئى ، ويعدهم بشىء غير موجود ، ولن ينالوه إلا بعد الموت ، وكيف ينالونه وهم لا يعتقدون أن هناك بعثاً أو حساباً أو جزاء ؟ وليس وراء محمد ﷺ قوة مادية تظاهره ، ليس معه إلا حفنة من المستضعفين أو العبيد الأرقاء الذين لا يملكون الدفع عن أنفسهم ، وقد سامهم سادتهم سوء العذاب .

فكيف لا يصدق العرب أبا لهب ؟ أم كيف يصدقون محمداً ؟

قال الحلبى فى سيرته : لما قدمت بكر بن وائل مكة للحج ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى بكر : ائتهم فاعرضنى عليهم .

فأتاهم فعرضه عليهم .

فقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم : كيف العدد فيكم ؟

قالوا : كثير مثل الثرى .

قال : كيف المنعة ؟

قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس ، فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم .

قال : لو آمنتم بالله ، وأتبعتمونى على ما جئت به فسوف تهزمون فارس ، وتنزلون منازلهم ، ويفتح الله أمامكم أبواب الخير . .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا رسول الله .

ثم مربهم أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟

قال : نعم . فأخبروه بما دعاهم إليه ، وأنه زعم أنه رسول الله .

فقال لهم : لا ترفعوا بقوله رأساً ، فإنه مجنون يهذى من أم رأسه .

فقالوا : والله لقد صدق ما أخبرنا به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورأينا بعد ذلك من أمر فارس ما ذكر[١٢٦] ! »

اشتراط بعض القبائل

لقد كانت بعض القبائل ترفض ما يعرضه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رفضاً باتاً ، وكان منهم من يشترط لنفسه . .

ومن القبائل التى رفضت رفضاً باتاً بنو ثقيف كما رأينا من موقفهم حين ذهب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطائف ودعاهم إلى نصرته . فخذلوه . . وبنو حنيفة ـ فقد أورد ابن سعد فى طبقاته قال : لقد أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنى عبس وبنى سليم وغسان وبنى محارب ، فكانوا يردون عليه أقبح الرد ، ويقولون له ، أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك[١٢٧] . ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه من بنى حنيفة ، وهم أهل اليمامة قوم مسيلمة الكذاب ، ومن ثم جاء : شر قبائل العرب بنو حنيفة وثقيف .

ومن القبائل التى اشترطت بنو عامر بن صعصعة . . فإنه حين عرض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه عليهم قال له رجل منهم : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظفرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

---

(١٢٦) السيرة الحصبية جـ ٢ صـ ١٥٨

(١٢٧) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ صـ ١٤٥

فقال - صلى الله عليه وسلم -: الأمر لله يضعه حيث شاء .

فقال الرجل : أنقاتل العرب دونك ، ونهدف نحورنا للعرب دفاعاً عنك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ، وأبوا عليه .

فلما رجع بنو عامر إلى منازلهم وكان فيهم شيخ أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم الموسم - فسألهم عما كان فى موسمهم ، فقالوا له : جاءنا فتى من قريش من بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى يدعونا أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

قال الشيخ ؛ وماذا كان ردكم عليه ؟

قالوا : فرفضنا دعوته لأنه رفض أن يكون الأمر لنا من بعده ...

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال : يا بنى عامر هل لها من تلافٍ ؟ هل لها من مطلب ؟ والذى نفسى بيده ما يقولها كاذباً أحد من بنى إسماعيل قط ، وإنها لحق ، وإن رأيكم غاب عنكم[١٢٨] .

لقد أدرك هذا الشيخ صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - ولام قومه على أنهم لم ينتهزوا هذه الفرصة ولو أنهم أطاعوه ومنعوه لملكوا رقاب العرب ، ولكن الله أراد أمراً آخر . وادخر لهذه المهمة قوماً آخرين . .

وقد أدرك بعض العرب بثاقب فكرهم وفطنتهم ما عليه أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - من صدق ، حتى لقد اتخذ من اسمه شعاراً يقاتل به عدوه . . ذكر : أن بكرا حين عرض النبى - صلى الله عليه وسلم - نفسه

---

(١٢٨) السيرة الحليفة جـ ٢ / سيرة ابن هشام جـ ٢ صـ ١٧٤

عليها قال بعضهم : لا نقول شيئاً حتى يجيء شيخنا حارثة - فلما جاء قال : إن بيننا وبين الفرس حرباً ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول .

فلما التقوا مع الفرس قال شيخهم : ما اسم الرجل الذى دعاكم إليه ؟

قالوا : محمد .

قال : فاجعلوه شعاركم

فجعلوا اسمه - صلى الله عليه وسلم - شعاراً لهم فنصروا على الفرس فى قتالهم معهم ، وكانت هذه اول مرة ينصر فيها العرب على الفرس ، حتى قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك : وبى نصروا - أى نصروا بذكرهم اسمى .

وهذه المعركة تسمى موقعة « ذى قار » وقد سجلها الأعشى فى شعره وهو من بكر فقال :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا

وفيها يقول :

لو أن كل معد كان شاركنا *** فى يوم ذى قار ما أخطأهم الشرف . .

ولقد كان العرب يخشون بأس الفرس ، وكان الفرس يتخذون من القبائل المجاورة لهم مناطق نفوذ ، وقد رأينا فيما سبق كيف قال بعضهم إنا لا نجير على الفرس أحداً .

محاورة طريفة

ذكر الحلبى فى سيرته راوياً عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قصة الحوار

الذى دار بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى شيبان بن ثعلبة .

قال : لقى النبى - صلى الله عليه وسلم - جماعة من بنى شيبان بن ثعلبة ، وكان معه أبو بكر وعلى - رضى الله - تعالى - عنهما - فسألهم أبو بكر : ممن القوم ؟

فقالوا : من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله - هؤلاء غرر - أى سادات قومهم - وكان أبو بكر - رضى الله عنه - نسَّابة يعرف أصول العرب وفروعهم . . وكان فى القوم مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة - حكيم العرب وخطيبها ، والمثنى بن حارثة الشيبانى - الفارس المشهور ، والنعمان بن شريك .

وكان مفروق بن عمرو قد غلب الوفد جمالاً ولساناً ، وله ذوابتان من شعر ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - فقال أبو بكر لمفروق : كيف العدد فيكم ؟

قال مفروق : إنا لنزيد على الألف ، ولن تغلب الألف عن قلة .

فقال أبو بكر : كيف المنعة فيكم ؟ - أى القوة والنصر .

قال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جَدّ ، أى حظ يعنى أن علينا أن نجتهد وليس علينا بأس أن يكون لنا الظفر أولا لأن ذلك من عند الله يؤتيه من يشاء .

فقال أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

قال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلتقى ، وإنا لأشد ما نكون

لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ، ويديل علينا مرة[١٢٩] . . ثم قال لأبى بكر : لعلك أخو قريش .

فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فها هو ذا وأشار إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال مفروق : بلغنا أنه أتى بدين جديد . ثم التفت مفروق الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : إلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ـ وأنى رسول الله ، وإلى أن تؤوونى وتنصرونى ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (١٣٠)

---

(١٢٩) يديلنا : ينصرنا ، ويديل علينا : ينصر علينا

(١٣٠) الأنعام ١٥١

قال مفروق : ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم عرفناه .

ثم قال : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله ـ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١٣١)

فقال مفروق : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك(١٣٢) قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وأراد مفروق أن يشاركه فى رأيه هانىء بن قبيصة ، فقال : هذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هانىء : قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى أن تَرْكنا ديننا ، واتباعنا إياك على دينك بمجلس واحد جلسته إلينا لزلة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً ، ولكن نرجع وترجع ، وننظر وتنظر .

وكأنه أحب أن يشاركه فى الكلام المثنى بن حارثة ، فقال : هذا المثنى بن حارثة صاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب

---

(١٣١) النحل ٩٠

(١٣٢) افك : انصرف عن الحق

هانىء بن قبيصة : ان فى تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا . لزلة فى الرأى وقصر فى النظر . وإنما يجب أن ننظر فى الأمر دون عجلة . . .

وإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب دون ما يلى أنهار كسرى فعلنا ، فإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ، وأن لا نؤوى من أحدث حدثا ، وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه هو مما نكرهه الملوك .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه . . . وسوف يورثكم الله أرض الفرس وأموالهم إذا آمنتم برسالتى . .

ثم تلا النبى - صلى الله عليه وسلم - قوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ (١٣٣)

ثم نهض رسول الله - صلى الله عليه وسلم(١٣٤) .

وقد ذكر ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة أسماء ثلاثة من الصحابة هم : مفروق بن عمرو ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وأشار فى تراجمهم إلى المحاورة التى ذكرناها آنفاً .

---

(١٣٣) الاحزاب ٤٥ : ٤٧

(١٣٤) السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ١٥٥

من مفروق بن عمرو

قال ابن الأثير : هو مفروق بن عمرو الأصم بن قيس بن مسعود بن عامر من بنى ذهل بن شيبان . قيل : إن اسمه النعمان ، وهو بمفروق أشهر . .

روى أبان بن تغلب عن عكرمة عن ابن عباس عن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه قال : تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم »

على بنى شيبان . .

وذكر طرفا من المحاورة التى أوردناها آنفاً . .

ولكن أبا نعيم الأصفهانى يقول : لا أعرف لمفروق إسلاماً[١٣٥] .

ولكن قول مفروق لرسول الله ﷺ فى المحاورة أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك ، يدل على أنه مال إلى الاسلام إن لم يكن أسلم فعلاً بعد ذلك .

المثنى بن حارثة

أما المثنى بن حارثة الشيبانى ، فقد أسلم فعلاً ، ولم يختلف فى ذلك أحد وهو المثنى بن حارثة بن سلمة بم ضمضم ينتهى نسبه إلى ذهل بن شيبان .

وفد على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة تسع مع وفد قومه ، وسيَّرة أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ فى صدر خلافته الى العراق ، قبل مسير خالد بن الوليد ، وهو الذى أشار على أبى بكر بقتال الفرس ، وهوَّن أمر الفرس عند المسلمين ، وكان شهماً شجاعاً حسن الرأى . . وقد أبلى فى قتال الفرس بلاء لم يبله أحد .

---

(١٣٥) اسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٥ صـ ٢٥٠

ولما تولى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ الخلافة ـ سيَّر أبا عبيد بن مسعود الثقفى فى جيش لمساعدة المثنى فى قتال الفرس ، فاستقبله المثنى ، والتقيا بالفرس معاً فى موضع بقرب الكوفة اسمه : قسّ الناطف . واقتتلوا اقتتالاً شديداً ، فاستشهد أبو عبيد ، وجرح المثنى ، فمات من جراحته قبل القادسية .

وكان المثنى كثير الاغارة على الفرس قبل أن يكلفه أبو بكر ذلك ، وكانت أخباره تأتى أبا بكر فيقول : من هذا الذى تأتينا أخباره ووقائعه ؟

فقال له قيس بن عاصم : يا خليفة رسول الله ، أما إنه غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا قليل العدد ، ولا ذليل الغارة ، ذلك المثنى بن حارثة الشيبانى . ثم لم يلبث بعد ذلك أن قدم المثنى على أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ فقال لأبى بكر : يا خليفة رسول الله ، اجعلنى على قومى أقاتل بهم أهل فارس ، وأكفيك أهل ناحيتى من العدو ، ففعل أبو بكر .

وأخذ المثنى يغير على سواد العراق من جهة الفرس ، وطلب من أبى بكر المدد ، فأمده بخالد بن الوليد . .

فكان المثنى هو الذى شجع المسلمين على قتال الفرس[١٣٦] . .

النعمان بن شريك

وقد أشار ابن الأثير أيضاً إلى النعمان بن شريك الشيبانى ، ولكنه لم يشر إلى إسلامه ، وكل ما قاله عنه :

انه أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع صاحبيه مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة فدعاهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى دين الله وتوحيده[١٣٧] . .

---

(١٣٦) أسد الغابة جـ ٥ صـ ٥٩

(١٣٧) المرجع السابق ص ٣٣٤

واستمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى لقاء الوفود . . وبالرغم مما كان يلقاه منهم من تكذيب فلم يكن يزيده ذلك إلا اصرارا على تبليغ رسالة ربه .

إنه لا يكره أحداً على الاسلام ، ولكنه يدعو بالرفق واللين ، استجابة لأمر ربه

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ (١٣٨)

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ﴾ (١٣٩)

كان ـ كما يقول الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية ـ يكلم كل شريف من القوم فى قبيلته ، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شىء بل أريد أن تمنعوا عنى من يؤذينى حتى أستطيع تبليغ رسالتى . . . وكان يعاضده فى ذلك أبو بكر وبعض أصحابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن ماذا تستطيع أن تفعل تلك القلة القليلة أمام هذا الطغيان الجارف من الضلال ، والطاغوت الجاثم فوق القلوب والأبصار ؟ حقاً ، إن الغلبة ليست بالكثرة ، وإن الكلمة الطيبة لتغنى غناء السيوف البتارة والجيوش الجرارة فى بعض الأحيان ، ولكن الله لم يأذن بعد فى وجود الأرض الخصبة التى تحسن استقبال الكلمة الطيبة لتثمر فيها شجرة طيبة تؤتى أكلها بإذن الله . .

لم يحن الوقت بعد ، ولكنه سيحين بإذن الله . .

---

(١٣٨) النحل ١٢٥

(١٣٩) البقرة ٢٥٦

لقاؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجال من الأوس والخزرج

وأخيراً حان الوقت . ووجدت الأرضُ الخصبة التى استقبلت البذرة الطيبة ممثلة فى كلمة ألله . .

والتقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأنصار الذين أحسنوا استقبال الكلمة فقدروها حق قدرها ، ووجدت من آذانهم مسمعاً ، ومن قلوبهم موضعاً .

أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقى بإسناد حسن عن ابن عباس قال : حدثنى على بن أبى طالب قال : لما أمر الله نبيه أن يعرض أمره على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى ـ منى ـ حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، وتقدم أبو بكر وكان نسابة فقال : من القوم ؟

قالوا : من ربيعة

قال : من أى ربيعة أنتم ؟

قالوا : من ذهل . .

ثم ذكر حديثاً طويلاً فى محاورتهم وتوقفهم أخيراً عن الاجابة . . قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج . قال : فما نهضنا حتى بايعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أما قصة هذه المبايعة فهى :

قال على ـ كرم الله وجهه : فبينما هو ـ أى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند العقبة الأولى لقى رهْطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

فقال لهم النبى ـ صلى اللبه عليه وسلم ـ :من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج

قال : من موالى يهود ؟

قالوا : نعم

والمقصود بمواليهم حلفاؤهم ، فقد تحالفوا معهم على التناصر والتعاضد .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى

فجلسوا معه ـ فدعاهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الله وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . . فاستأنست قلوبهم به ومالت إليه . . وكانوا قد سمعوا من اليهود ـ قبل ذلك ـ عن النبى المنتظر . . وقد أخبر القرآن عن اليهود أنهم كانوا يستفتحون بهذا النبى ، أى ستنصرون به فينصرهم الله .

تذكر هؤلاء النفر ماكان يتحدث به اليهود ونظر بعضهم الى بعض ، وحين كلمهم النبى ـ ﷺ ـ عرفوا الوصف الذى كانوا يسمعونه من اليهود ، فقالوا لأنفسهم : تعلموا والله انه النبى الذى تتحدث عنه اليهود ، فلايسبقوكم اليه .

فأجابوه الى مادعاهم إليه وصدقوه وقبلوا منه ماعرضه عليهم من الاسلام . . وأسلم ستة نفر منهم كانوا طليعة مشرقة لغيرهم وكانوا كلهم من الخزرج وهم :

أسعد بن زرارة من بنى النجار

وعوف بن الحارث بن رفاعة بن عفراء من بنى النجار

ورافع بن مالك بن العجلان من بنى زريق

وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سلمة

وعقبة بن عامر بن نابى من بنى حرام بن كعب

وجابر بن عبد الله بن رئاب من بنى عبيد بن غنم . .

كان هؤلاء الستة من عقلاء يثرب أنهكتهم الحرب الأهلية التى اشتعلت بين الأوس والخزرج والتى مايزال لهيبها مستعرا ، ومايزال اليهود ينفخون فيها حتى تزداد اشتعالا ، فقد كانوا ومايزالون يؤججون الفتن ، ويعيشون على حساب مايراق من دماء الأبرياء فى كل مكان يوجدون فيه ، بسبب مايوسوسون به من شر ، ويذيعون من باطل ، ويفسدون من علاقات ، ويروجون من أسلحة الفتك والدمار . .

لقد أمل هؤلاء القوم ان تكون هذه الدعوة التى دعاهم اليها النبى - ﷺ - سببا فى وضع هذه الحرب ورأب الصدع وإغلاق باب الفتنة ، وقالوا فى أمل واستبشار : إنا قد تركنا قومنا ، بينهم من العداوة والشر مالا نظير له بين قوم آخرين ، فعسى أن يجمعهم الله بك . . و سوف نقدم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك[١٤١]

ثم انصرفوا عن رسول الله - ﷺ - راجعين الى بلادهم ، قد آمنوا وصدقوا ، فلما قدموا إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله - ﷺ - ودعوهم الى الاسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها من يذكر رسول الله - ﷺ -

---

(١٤٠) البقرة ٨٩

كان هذا هو اللقاء الأول بين النبى - ﷺ - وأهل يثرب ، ولم يكن هناك بيعة فيه ، ولكن كان فيه تعريف بالاسلام - ونبى الاسلام ، وإقبال من هؤلاء النفر عليه واستبشار به . أما بيعة العقبة فسيأتى خبرها بعد .

وإن كان بعض الرواة يذكر أن هناك لقاءً بين النبى - ﷺ - وبين أهل يثرب سبق هذا اللقاء وربما لقاءات

لقاء سويد بن الصامت

ذكر الرواة أن هناك لقاء كان بين النبى - ﷺ - وبين سويد بن الصامت . وهذا الخبر رواه البيهقى فى دلائل النبوة ، قال : قدم سويد بن الصامت أخو بنى عمرو بن عوف إلى مكة حاجا أو معتمرا ، وكان سويد يسميه قومه الكامل ، لسنه وجلده وشِعْرِه الجيد الذى منه :

الارب من تدعو صديقا ولو ترى مقالته بالغيب ساءك مايفرى
مقالته كالشهد ماكان شاهداً وبالغيب مأثور على ثغرة النحر
يسرك بادية وتحت أديمه نميمة غش تبترى عقب الظهر
تبين لك العينان ماهو كاتم من الغل والبغضاء بالنظر الشزر
فرشنى بخير طالما قد بريتنى وخير الموالى من يريش ولايبرى[142]

---

(١٤١) الرحيق المختوم لصفى الرحمن الباركفورى صـ ١٥٣

(١٤٢) هذه الأبيات اوردها ابن هشام فى سيرته حـ ٢ صـ ١٧٥ ، واسد الغابة حـ ٢ صـ ٤٨٩

ومعنى يفرى : يختلق كذبا - ومعنى مأثور : سيف - واديمه : جلده وتبترى : تنحت ، والعقب : العصب - والنظر الشزر : النظر بمؤخر العين فى حالة الغضب وهو نظر العدو - رشنى : قونى واعنى

فلقيه النبى - ﷺ - ودعاه الى الله - عز وجل - والى الاسلام . فقال سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .

فقال رسول الله - ﷺ - : وماالذى معك ؟

فقال : حكمة لقمان

فقال رسول الله - ﷺ - اعرضها علىّ .

فعرضها عليه . فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه :

قرآن أنزله الله - عز وجل - علىّ هو هدى ونور .

فتلا عليه النبى - ﷺ - القرآن ، ودعاه إلى الاسلام ، فلم يبعد عنه ، وقال : إن هذا القول حسن .

ثم انصرف فقدم المدينة على قومه . فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، وكان رجال قومه يقولون : إنا لنرى انه قتل وهو مسلم .

موقعة بين الأوس والخزرج

وكان قتله يوم بعاث .

وقد ذكر ابن الأثير سويد بن الصامت فى كتابه أسد الغابة فى معرفة الصحابة ولكن ذلك لا يؤكد إسلامه ، فقد ذكر ابن الاثير قول أبى عمر بن عبد البر : أنا أشك فى إسلام سويد بن الصامت كما شك فيه غيرى . .

ولكن هذا الخبر الذى ذكرناه يشير الى أن خبر الاسلام كان قد نما الى المدينة عن طريق سويد ، كما نما عن طريق غيره . مثل إياس بن معاذ .

خبر إياس بن معاذ

يروى ابن هشام والبيهقى وابن الاثير قصة إسلام إياس بن معاذ فيقولون : قدم أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج .

فسمع بهم النبي - ﷺ - فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟

فقالوا له : وماذاك ؟

قال : أنا رسول الله ، بعثني إلى العباد ، أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل الله عليَّ القرآن ، ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ - وكان حدثا صغير السن : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له .

فأخذ أنس بن رافع - كبيرهم حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا من ذلك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس ، وقام رسول الله - ﷺ - وانصرفوا راجعين الى المدينة .

وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ، ثم لم يلبث إياس أن هلك .

فأخبر من حضره من قومه عند موته ، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات .

فماكانوا يشكون انه قد مات مسلما . .

ومن هذه اللقاءات أيضا ماذكره ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب - وذلك في حديثه في ترجمة أسعد بن زرارة قال : انه أول من قدم المدينة بالاسلام هو وذكوان بن عبد قيس . . . . خرجا يتنافران الى عتبة بن ربيعة ، فسمعا برسول الله - ﷺ - فأتياه فاسلما ، فلم يقربا عتبة ، ورجعا بالاسلام الى المدينة(١٤٣)

---

(١٤٣) سيرة ابن هشام حـ ٢ صـ ١٧٥ - دلائل النبوه حـ ٢ صـ ٤٢٠ - اسد الغابة حـ ١ صـ ١٨٦

وأورد ابن الاثير فى كتابه هذا الخبر عن الواقدى(١٤٤)

لقد استشعر إياس الاسلام فى ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله - ﷺ - ماسمع .(١٤٥)

فهذه اخبار تشير إلى أن خبر الاسلام كان قد وصل الى المدينة قبل أن يلتقى النبى - ﷺ - بهؤلاء النفر الذين التقى بهم عند العقبة ، وعادوا وقد اطمأنوا الى الاسلام ، وطمأنوا النبى - ﷺ - على أنهم سيكونون رسل خير الى قومهم .

بيعة العقبة الأولى

حين عاد هؤلاء النفر الذين قدمنا ذكرهم الى المدينة أخذوا يتحدثون عن هذا الدين الجديد ، ويدعون قومهم إليه ، فلم تبق دار فى يثرب ليس فيها ذكر له وخبر عنه . .

وجاء الموسم التالى للحج . فقدم مكة اثنا عشر رجلا ، والتقوا بالنبى - ﷺ - عند العقبة ، وبايعهم النبى - ﷺ - بيعة العقبة الأولى وهذا نصها :

عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا النبى - ﷺ - على ان لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل ، أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفترينه من بين ايدينا وارجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . . قال : فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن نقضتم من ذلك شيئا فأمركم الى الله - عز وجل - إن شاء عذب وإن شاء غفر .

---

(١٤٤) الاستيعاب جـ ١ ص ٨٠

(١٤٥) اسد الغابة جـ ٢ صـ ١٦٨ ترجمة ذكوان بن عبد قيس

وقد سميت هذه البيعة أيضا بيعة النساء لأنها هى البيعة التى نزل بها القرآن الكريم فى حق النساء بعد ذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤٦)

أما هؤلاء النفر فهم من الخزرج :

أسعد بن زرارة من بنى النجار

وعوف بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار

ومعاذ بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار

ورافع بن مالك بن العجلان من بنى زريق

وذكوان بن عبد قيس من بنى زريق

وعبادة بن الصامت بن قيس من بنى عوف بن الخزرج

وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزيمة من بنى عوف بن الخزرج

والعباس بن نضلة بن مالك بن العجلان من بنى سالم بن عوف

وعقبة بن عامر بن نابى من بنى سلمة

وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سواد

---

(١٤٦) الممتحنة ١٢

ومن الأوس :

أبو الهيثم بن النبهان واسمه مالك

وعويم بن ساعدة

أول سفير فى الاسلام

وأرسل معهم النبى - ﷺ - عقب مبايعته لهم مصعب بن عمير ، وهو أول سفير فى الإسلام .

وهو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى بن كلاب بن مرة القرشي . . ويكنى أبا عبد الله . .

كان مصعب من فضلاء الصحابة ، ومن سابقيهم الى الاسلام ، اسلم ورسول الله - ﷺ - فى دار الأرقم بن أبى الأرقم . وكتم إسلامه خوفا من أمه وقومه ، وكان يختلف الى رسول الله - ﷺ - سرا . .

وفى يوم رآه عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار قائما يصلى ، فأعلم أهله وأمه بذلك فأخذوه وحبسوه ، فلم يزل محبوسا إلى أن هاجر إلى أرض الحبشة . .

ثم عاد إلى مكة . . وبقى بها حتى هاجر الى المدينة المنورة ولقد تحمل مصعب فى سبيل إسلامه أذى كثيراً فصبر عليه . . كان من أنضر شباب قريش ، وأحسنهم ثوبا ووجها ومنظرا . قال عنه الواقدى : كان مصعب فتى مكة شبابا وجمالا . .

وكان أبواه يحبانه ويكسوانه أحسن مايكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة ، وكان رسول الله - ﷺ - يذكره فيقول : مارأيت بمكة أحسن لمّة - شعر رأس - ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير . .

وكان قبل إسلامه يقضى وقته فيما يقضيه الشباب فى اللهو والقنص والشراب والترف . . .

حتى فتح الله بصيرته على الاسلام ، فعزف عن ذلك كله ، واستعذب شظف العيش فى سبيل الله . .

فقد أجبر على لبس الخشن من الثياب ، وقيدت يداه ورجلاه ، وذاق ضراوة الجوع . ولكنه مع ذلك لم يضق ذرعا ولم يهن عزمه . بل صبر واحتسب . وكان موقفه عزاء لغيره .

قال سعد بن أبى وقاص : كنا قوما تصيبنا قسوة العيش بمكة مع رسول الله - ﷺ - فلما أصابنا البلاء صبرنا وتحملنا ، وكان مصعب بن عمير أنعم فتى بمكة ، ثم لقد رأيته جهد فى الاسلام جهدا شديدا ، حتى لقد رأيت جلده يتحشف - يتقبض ويتصلب ويتقلص - كما يتحشف جلد الحية .

قال علىٌّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - إنا لجلوس مع رسول الله - ﷺ - فى المسجد اذا طلع علينا مصعب بن عمير وماعليه إلا بردة مرقوعة بفرو ، فلما رآه رسول الله - ﷺ - بكى للذى كان فيه من النعمة ، والذى هو فيه اليوم .

ثم قال رسول الله - ﷺ - كيف بكم اذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى حلة ، ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟

قالوا : يارسول الله ، نحن يومئذ خير منا اليوم ، نتفرغ للعبادة ، ونكفى المئونة .

فقال رسول الله - ﷺ - أنتم اليوم خير منكم يومئذ .

وصدقت نبوءة رسول الله - ﷺ - وهاهى ذى حالنا كما وصف ، وهى فعلا شر من الأمس .

فبكاء النبى - ﷺ - من أجل مصعب وهو صابر على ماهو فيه ، انما هو دليل على أن مصعبا قد بلغ القمة فى الصبر والاحتساب وإيثار ثواب الله على ماعداه ، فما باله لايكون قدوة لغيره من المسلمين ؟ ولماذا لا يكون حاله عزاءً لغيره ممن أوذى فى سبيل الله ؟

هذا هو مصعب بن عمير الذى اختاره النبى - ﷺ - ليكون رفيقا لهذا الوفد من يثرب الذى اعلن اسلامه وبايعهم رسول الله . . ونزل مصعب فى المدينة على أسعد بن زرارة ، وكان عمله الذى وكل اليه هو تعليم المسلمين الاسلام ، وإمامتهم فى الصلاة واقرائهم القرآن ولذلك سمى بالمقرىء .

وقد قام مصعب بهذه المهمة خير قيام . واجتهد فى الدعوة الى الله حتى فشا الاسلام بالمدينة ، وازداد عدد المسلمين .

وأقيمت الجمعة بالمدينة - وكان عدد الحاضرين فيها أربعين رجلا . .

لقد تضاعف عدد المسلمين فى وقت قصير أكثر من ثلاث مرات .

وكان الذى جمع الناس لصلاة الجمعة أسعد بن زرارة ، والذى كان يصلى بالمسلمين مصعب بن عمير .

قال عبد الرحمن بن كعب بن مالك لأبيه كعب - وكان يسمعه يثنى على أسعد بن زرارة حين يُؤَذَّن للجمعة - ياأبت مالك اذا سمعت الأذان للجمعة أثنيت على أبى أمامة - أسعد بن زرارة ؟

قال : أى بنى ، كان أول من جمع بنا بالمدينة .

قال : كم أنتم يومئذ ؟

قال : أربعون رجلا .

سادة يثرب يعتنقون الإسلام

واصطحب أسعد بن زرارة يوما مصعب بن عمير فى زيارة لدار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر .

ودخل به حائطا من حوائط بنى ظفر . وجلسا هناك . .

وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بنى عبد الأشهل جالسين حين مر بهما أسعد ومصعب

وكان كلاهما مازال على دين قومه ، فغاظهما مارأيا .

فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دورنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وأنهرهما عن أن يأتيا دورنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك ـ هو ابن خالتى ، ولا أجد عليه مقدما .

فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما .

فلما رآه أسعد بن زرارة قادما ، قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك ، فاصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يجلس أكلمه .

فوقف أسيد عليهما متغيظا ، فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلا إنْ كانت لكما فى أنفسكما حاجة .

فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره .

قال أسيد : أنصفت . ثم ركز حربته ، وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . . فأشرق وجهه وانشرح صدره ، ثم قال :

ما أحسن هذا الكلام وما أجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا هذا الدين ؟

قال له : تغتسل وتطهر ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ، فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ثم قال :

إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن . إنه سعد بن معاذ .

ثم أخذ حربته وعاد . فلما رآه سعد مقبلا قال لمن معه : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد عليهم قال له سعد : ما فعلت ؟

قال أسيد : كلمت الرجلين ، فو الله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت .

وغيّر أسيد مجرى الحديث فقال لسعد : وقد حُدِّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه .

فقام سعد مغضبا مبديا تخوفا من الذى ذكر له من أمر بنى حارثة ـ فأخذ الحربة من يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا .

ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد له أن يسمع منهما . فوقف عليهما غاضبا ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة ، لولا ما بينى وبينك من القرابة ـ لكان لى معك شأن آخر أتغشانا فى دورنا بما نكره ؟

فتلقاه مصعب باللين ، لما يعرف من أنه سيد قومه كما أخبره بذلك أسعد ، ولطمعه فى أن يسلم ، فيسلم كل من وراءه من قومه . .

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس يسمع .

فعرض عليه مصعب الإسلام ، وقرأ القرآن ، فهش لما سمع ، وأشرق وجهه ، واطمأن قلبه ، وقال : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ؟

قالا : تغتسل فتطهر ، ثم تشهد شهادة الحق . .

فقام سعد بن معاذ فاغتسل وشهد شهادة الحق ، ثم أخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير .

فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم بوجه غير الذى ذهب به عنكم .

فلما وقف قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأعلانا شرفا .

قال : فان كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله ـ فما جاء مساء هذا اليوم حتى كان رجال بنى عبد الأشهل ونساؤهم مسلمين جميعا يذكرون اسم الله ويقرءون القرآن . .

وفى إسلام سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ـ يقول القائل :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ويا سعد سعد الخزجين الغطارف
أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا على الله فى الفردوس منية عارف
فإن ثواب الله للطالب الهدى جنان من الفردوس ذات رفارف

وقد أبلى هذان السعدان فى الاسلام بلاء حسنا[١٤٧] .

---

(١٤٧) سيرة ابن هشام جـ ٢ صـ ١٨٦ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢ صـ ٤٢٨ واسد الغابة جـ ٢ صـ ٢٥٦

واستمر مصعب بن عمير يدعو إلى الاسلام فى المدينة حتى أسلم عدد كبير جدا ، ولم تبق دار فى المدينة إلا وفيها رجال أو نساء مسلمون اللهم إلا بعض دور قليلة معدودة كان يقودها شاعر اسمه أبو قيس بن الأسلت ، وكان أهل هذه الدور يسمعون له ويطيعون ، فتوقف بهم عن الاسلام إلى ما بعد غزوة الخندق .

ثم أسلم أهل هذه الدور .... واختلف فى إسلام قائدهم الشاعر ، فبعضهم قال :

إنه أسلم عام الفتح ـ ذلك أنه هرب إلى مكة وأقام فيها حتى فتحها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم مع مسلمة الفتح .

وقيل : إنه مات قبل ذلك على كفره[١٤٨] ..

بيعة العقبة الثانية

ودار العام دورته ، وجاء الموسم التالى ، ووفد على مكة من الأنصار الذين أسلموا عدد غفير مع بقية مَنْ وفد من أهل المدينة ، ومضى مصعب بن عمير معهم . والتقى مصعب بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره بما سره وأثلج صدره .

ويقص علينا كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قصة لقاء الأنصار بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العقبة الثانية .

وكعب هذا هو : كعب بن مالك بن أبى كعب من الخزرج ، ويكنى : أبا عبد الله ، وقيل : أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة ، والمواقع كلها مع

---

(١٤٨) سيرة ابن هشام جـ ٢ صـ ١٨٧

النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدا بدر وتبوك ـ وكان من شعراء الإسلام المعدودين الذين يدافعون عنه بلسانهم وسيفهم .

وكان يفتخر بحضوره العقبة ويقول فى ذلك « ليس شىء أحب إلىّ من بيعتى ليلة العقبة حيث تواثقنا على الإسلام » .

وفى توبة الله عليه حين تخلف عن غزوة تبوك هو وصاحباه نزل قوله تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (١٤٩)

قال كعب : خرجنا فى حجاج قومنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ، فلما خرجنا من المدينة قال البراء لنا : إنى قد رأيت رأيا ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا ؟

قلنا : وماذاك ؟

قال : رأيت أن لا أدع هذه البنيّة ـ يعنى الكعبة ـ منى بظهر ، وأن أصلى إليها .

ـ يقصد أنه لا يريد أن يجعل الكعبة وراء ظهره وهو يصلى ـ

---

(١٤٩) التوبة ١١٧ ، ١١٨

قال كعب : فقلنا له : والله ما بلغنا أن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى إلا الى الشام وما نريد أن نخالفه .

قال البراء : إنى أصلى اليها ـ أى إلى الكعبة ـ

قال كعب : لكنا لا نفعل .

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ـ يعنى الى بيت المقدس ـ وصلى البراء الى الكعبة ، أى مستدبر الشام . حتى قدمنا مكه ، وقد كنا عبنا عليه ذلك ، فلما قدمنا مكة قال لى : يابن أخى ، انطلق بنا الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء ، لما رأيت من خلافكم إياى فيه .

قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكنا لا نعرفه ، لأنا لم نره قبل ذلك . فَلَقِيناَ رجلا من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أتعرفانه ؟

قلنا : لا .

قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟

قلنا : نعم ـ وكنا نعرف العباس . . . كان لا يزال يقدم علينا تاجرا ـ

قال : فاذا دخلتما المسجد ، فهو الرجل الجالس مع العباس .

قال كعب : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معه . فسلمنا حين جلسنا إليه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟

قال العباس : نعم . . . . هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك .

قال كعب : فو الله ماأنسى قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشاعر :
قال العباس : نعم

فقال له البراء بن معرور : يا رسول الله ، إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله بالإسلام ، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر ، فصليت اليها ، وخالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء . فماذا ترى يا رسول الله ؟
قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها .

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى بيت المقدس . . ولم يأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإعادة ماصلاه مع أنه كان مسلما . وبين له أنه كان الواجب عليه استقبال بيت المقدس كما يفعل غيره من المسلمين .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نوافيه فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة حيث المسجد الحرام ، وأمر ألا ينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبا .
قال كعب : فلما فرغنا من الحج ـ وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ لها ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا .

وكان من جملة المشركين أبو جابر بن عمرو بن حرام ، وهو سيد من ساداتنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه ، أن تكون حطبا للنار غدا ، ثم دعوناه الى الإسلام فأسلم وأخبرناه بموعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشهد معنا العقبة .

قال كعب : فمكثنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتسلل الرجل والرجلان تسلل القطا مستخفين ، حتى إذا اجتمعنا فى الشِّعب عند العقبة ، ونحن ثلاث وسبعون رجلا وامرأتان هما : أم عمارة نُسَيْبَة ، وأم منيع .

ـ أما نسيبة فهى بنت كعب بن عمرو وكنيتها أم عمارة ، وكانت تشهد الوقائع مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاهدت جهاد الأبطال ، وكان معها فى بيعة العقبة زوجها زيد بن عاصم بن كعب ، وابناها عبد الله وحبيب[١٥٠] .

---

(١٥٠) اسد الغابة جـ ٧ صـ ٢٨٠

ـ وأم منيع هى أسماء بنت عمرو بن عدى ، وهى ابنة عمة معاذ بن جبل[١٥١] .

ـ وقد دل ذلك على أن المرأة العربية لم تغب عن معالى الأمور وعظائمها ـ فى اى وقت أو عصر . .

قال كعب : فلا زلنا ننتظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى جاءنا .

وهناك رواية أخرى تقول : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى انتظارهم .

وكان مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمه العباس ـ وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب ان يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

ولا تخالف هذه الرواية ما جاء فى رواية أخرى من أنه كان معه أيضا أبو بكر وعلى ـ لأن العباس أوقف عليًا على فم الشِّعْب ، وأوقف أبا بكر على فم الطريق ، ليكونا عينا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يكن معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا العباس .

فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم . فقال : يا معشر الخزرج ، ان محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ودافعنا عنه ، فهو فى عز

---

(١٥١) اسد الغابة جـ ٧ صـ ٤٠٠

من قومه ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور : والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ لقد كان البراء صادقا الصدق كله ، ولقد أحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كل قلبه . . . . ولكن القدر لم يمهله حتى يهاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المدينة فقد توفى قبل هجرته بشهر ، ولما حضره الموت أوصى أن يدفن ويستقبل به الكعبة ، ففعلوا به ذلك ، ولما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ذهب إلى قبره مع جماعة من أصحابه وصلى عليه وكبر أربعا(٥٢) .

---

(٥٢) اسد الغابة جـ ١ صـ ٢٠٨

لقد كان العباس حريصا على أن يستوثق لابن أخيه ، وكان يعرف أنه مقدم على أمر له شأنه وخطره ويخشى عليه منه ، وأن دعوته هذه سوف تلقى معارضة لامن داخل الجزيرة العربية فحسب بل من خارج الجزيرة حيث ملوك الروم والفرس الذين يخشون على عروشهم من هذه الدعوة . . ولذلك قال العباس لوفد المدينة فيما ترويه بعض الروايات :

قد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة ، فانظروا رأيكم ، وائتمروا بينكم ، ولاتفرقوا عن ملأ منكم واجتماع ، فان أحسن الحديث أصدقه .

وحسنا قال العباس ذلك ، فقد بصرهم بما سوف يكون ، وبما هم مقبلون عليه فى حياتهم بعد الاسلام . فلربما كان إقبالهم على الدين الجديد إنما هو فورة عاطفة تبخرها الأحداث وتزلزلها الخطوب وتغيرها التجارب والحروب . .

ولكنها لم تكن مجرد حماس فورى ، أو عاطفة طارئة ، وانما هى إيمان خالطت بشاشته القلوب واطمأنت اليه الجوارح والنفوس . حتى لقد هان بجانب هذا الإيمان كل شىء ورخص كل غال ونفيس .

ويستأنف كعب ـ رضى الله عنه ـ حديثه فيقول :

وعندما تكلم العباس بماذكر قالوا له : قد سمعنا مقالتك فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ماشئت واشترط لربك ماشئت .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشترط لربى عز وجل أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا . ولنفسى ان تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم .

لقد قدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق ربه على حق نفسه ، ولم يطلب منهم لنفسه الا أن يعتبروه كواحد منهم ، يدافعون عنه كما يدافعون عن أنفسهم . .

فقال عبد الله بن رواحة : فإذا فعلنا فمالنا ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكم الجنة بفضل الله .

قالوا : ربح البيع ربح البيع . .

أجل ، إنها التجارة الرابحة مع الله سبحانه وتعالى ، والتى حكى شأنها فى كتابه الكريم حيث يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ (١٥٣)

فأخذ البراء بيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أنفسنا وأهلنا فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

وبينما البراء يكلم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو الهيثم بن التيهان : نقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف . أى نفديه بمالنا وأشرافنا . .

---

(١٥٣) التوبة ١١١

ماأعظمها من تضحية ، وماأجمله من قول . .

ان صاحب هذه الكلمة هو أبو الهيثم مالك بن التيهان بن مالك الخرزجى ، كان أحد نقباء قومه يوم العقبة ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبه ، ويذهب الى منزله أحيانا . .

قصة طريفة عن أبى الهيثم :

ومن الأقاصيص الطريفة التى يقصها ابن الأثير عن أبى الهيثم بن التيهان قال : روى الترمذى حديث أبى هريرة قال : خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ساعة لايخرج فيها ، ولايلقاه فيها أحد . فأتاه أبو بكر ، فقال له الرسول : ماجاء بك ياأبا بكر ؟

قال : خرجت للقاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنظر فى وجهه والسلام عليه . ثم لم يلبث أن جاء عمر ، فقال : ماجاء بك ياعمر ؟

قال : الجوع يارسول الله .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد وجدت بعض ذلك .

فانطلقوا الى منزل أبى الهيثم بن التيهان الأنصارى : وكان رجلا كثير النخل والشاء ، وله خادم ـ فلم يجدوه . . فسألوا عنه ، فأخبروا أنه انطلق ليستعذب الماء لأهله ـ أى يأتيهم بماء عذب ـ فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يَزْعَبُها ـ أى يتدافع بها ويحملها لثقلها ـ فوضعها .

ثم انطلق بهم الى حديقة . فبسط لهم بساطا ، ثم انطلق الى نخلة فجاء بِقنْوٍ ـ عِذْق بما فيه من الرطب ـ فوضعه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفلا تَنقَّيت لنا من رطبه وبُسْره ؟

فقال : يارسول الله إني أردت أن تختاروا ـ أي بأنفسكم ـ من رطبه وبسره ، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء .
ـ وفي رواية : ثم أخذ المدية وانطلق الى الشاء ، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياك والحلوبة ـ فذبح لهم وأكرمهم .

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا والذى نفسى بيده النعيم الذى تُسْألون عنه يوم القيامة ، ظل بارد ، ورطب طيب ، وماء بارد[١٥٤] . .

قال تعالى :

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾[١٥٥]

عودة الى البيعة :

قال كعب بن مالك مستأنفا قصة بيعة العقبة : فقال العباس ـ أي بعد أن قال أبو الهيثم ماقال : ـ اخفوا جَرْسَكم ـ أي صوتكم ـ فإن علينا عيونا .

---

(١٥٤) أسد الغابة ج ٥ ص ١٤
(١٥٥) سورة التكاثر

ثم قال أبو الهيثم : يارسول الله ـ إن بيننا وبين اليهود ـ حبالا وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ـ والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى بذلك أنه أصبح منهم فدمه دمهم وأمره أمرهم ، وذمته ذمتهم يبرم ماأبرموه ويهدم ماهدموه ـ

لقد قال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ذمتى ذمتكم ، ورحلتى مع رحلتكم ، أنا منكم وأنتم منى ـ أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وعند ذلك قال العباس : عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم ، وعهد الله مع عهدكم ، فى هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم ، لتَجِدُّن فى نصرته ولتشدُّن من أزره »

قالوا جميعا : نعم .

قال العباس : اللهم إنك سامع شاهد ، وان ابن أخى قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن أخى عليهم شهيدا .

ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أخرجوا منكم اثنى عشر نقيبا ، يكونون على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

وفى رواية أخرى . أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم : إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبا ـ فلا يحدث أحد فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل .

ولعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى بذلك أن يكون كل واحد منهم أهلاً لأن يتحمل المسئولية ويقبل القيام بالتبعة . . .

ثم تخير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء النقباء وهم :

سعد بن عبادة

وأسعد بن زرارة

وسعد بن الربيع

وسعد بن أبي خيثمة

والمنذر بن عمرو

وعبد الله بن رواحة

والبراء بن معرور

وأبو الهيثم بن التيهان

وأسيد بن حضير

وعبد الله بن عمرو بن حرام

وعبادة بن الصامت

ورافع بن مالك

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأولئك النقباء : أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى يعنى المهاجرين .

لقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك أن يكفل النظام لهذه الجماعة ، وأن يحمل التبعة لكل مسئول عن جماعته . وأن يجعل من هذه الجماعة الصغيرة العدد نواة للمجتمع الكبير الذى سوف ينشأ بعد قليل فتُبنى

عليه الأمة الاسلامية الكبيرة . . ويادر أسعد بن زرارة ، وهذا أصغر القوم فأخذ بيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : رويدا ياأهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان إخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب ، وقد يكون في ذلك قتل خياركم فإما أنتم قوم تصبرون عليها اذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب كافة . فخذوه وأجركم على الله تعالى ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة ، فذروه فهو عذر لكم عند الله ـ عز وجل ـ

فقالوا : ياأسعد ، أمط عنايدك ، فوالله لانذر هذه البيعة ولانتركها مهما كان الأمر

وقيل: إن الذى تكلم مع الأنصار وشد العقدة هو العباس بن عبادة بن نضلة ـ الذى قال : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا هلكت أموالكم وقتل أشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن . . . فهو والله ان فعلتم بعد ذلك شيئا خزى الدنيا والآخرة .

وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فمالنا بذلك يارسول الله ان نحن وفينا ؟

قال : الجنة .

قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده . . فبايعوه .

لقد قال العباس ذلك ليشد العقد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ويؤكد العزم على مناصرته . وان كان بعضهم يرى أنه قال ذلك ليحمل القوم على التروى بعض الوقت حتى يحضر عبد الله بن أبيٍّ بن سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم ، وآكد وأثبت لأمر البيعة . .

ولقد كانت المبادرة الى البيعة شرفا مابعده شرف . حتى ان القوم ليتفاخرون بأيهم كان أسبق فى ذلك .

فبنو النجار يقولون : إن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبايعا لهم .

وبنو عبد الأشهل يقولون : بل ان أبا الهيثم بن التيهان هو أول مبايع ويرى بعضهم أن أول مبايع كان البراء بن معرور . .

وأيا كان السابق فان جميع هؤلاء سابقون ـ وقد سجل الله لهم هذا الفخر ، كما سجل لهم إيثارهم العظيم وأريحيتهم الكريمة حيث قال :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١٥٦)

وشاء الله أن حرم من هذا الشرف آخرون كانوا يعتبرون أنفسهم أحق بالعزة والسيادة وأولى بالشرف والفخار ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . .

---

(١٥٦) الحشر ٩

فعبد الله بن أبي بن سلول ، كانوا يوشكون أن يتوجوه ملكا على يثرب . ولكنه لم يكن له شرف الاشتراك فى هذه البيعة على الرغم من وجوده فى مكة .

كلمات مأثورة فى البيعة :

ولقد أكد الأنصار عهدهم فى مبايعتهم بكلمات مأثورة قالها بعضهم ستظل هذه الكلمات علامات مشرقة فى التاريخ تُذكِّر الناس بأن الايمان حين يصافح القلوب يفجر الحكمة على اللسان . . ولعمرى لم يكن مجرد كلام يقال بل هو صدى لما كان يعتمل فى النفوس من صدق ويقين واخلاص وحب لله ورسوله . .

فقد قال أبو الهيثم : أبايعك يارسول الله على مابايع عليه الاثنا عشر نقيبا من بنى إسرائيل موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ

وقال عبد الله بن رواحة : أبايعك يارسول الله على مابايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

وقال أسعد بن زرارة : أبايع الله ـ عز وجل ـ يارسول الله ، وأبايعك على أن أتم عهدى بوفائى وأصدق قولى بفعلى فى نصرك . . وقال النعمان بن حارثة : أبايع الله ـ عز وجل ـ يارسول الله ، وأبايعك على الاقدام فى أمر الله ـ عز وجل ـ لا أرأف فيه القريب ولاالبعيد ، أى لاأعامل فيه بالرأفة والرحمة .

وقال عبادة بن الصامت : أبايعك يارسول الله على أن لا تأخذنى فى الله لومة لائم .

وقال سعد بن الربيع : أبايع الله وأبايعك يارسول الله على أن لاأعصى لكما أمرا ولا أكذبكما حديثا . .

وقد وفى كل منهم بما قال : وصدق الله ورسوله فيما قال ونزل فيهم وفى غيرهم من المهاجرين قوله تعالى :

﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٥٧)

وحين انتهت البيعة فزعت قريش ، وحاول كثير من شياطينهم أن يخوفوا الأنصار من عواقب تلك البيعة يعاونهم فى ذلك شياطين الجن . . ولكن الانصار صمدوا فى مواجهة تلك الوساوس وعصمهم الله من النكوث فى العهد وثبت قلوبهم على الايمان بالله ورسوله .

لقد خشى شياطين الكفر من الإنس والجن عواقب هذه البيعة ، وعلموا أنها بداية النهاية للكفر وأهله ، وأدركوا أن فى الهجرة النصر الأكبر للاسلام والخذلان المبين لعبادة الأصنام فأرادوا ان يؤلبوا قريشا ضد هؤلاء المبايعين على النصرة ، وطالما ترصد هؤلاء الشياطين خطوات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونبهوا إليه أعداءه ووسوسوا فى نفوس الموالين له من قريش . .

ولكن الله كان ينصر نبيه ويؤيده بملائكته . .

عن حارثة بن النعمان ـ رضى الله عنه ـ قال : لما فرغ الناس من المبايعة قلت : يانبى الله ، لقد رأيت رجلا عليه ثياب بيض لاأعرفه قائما على يمينك .

---

(١٥٧) الأحزاب ٢٣

قال : أوقد رأيته ؟

قلت : نعم .

قال : ذاك جبريل . .

قلت : ولماذا جاء ؟ . . قال : ليدفع كيد الشيطان

وماذا يصنع كيد الشيطان إزاء حفظ الرحمن ؟

قريش تفزع

وقد فزعت قريش فزعا شديدا عندما شاع أمر هذه البيعة . فتداعى القريشيون بعضهم الى بعض حتى قال عمرو بن العاص : ذهبت أنا وأبو جهل الى عتبة بن ربيعة أخبره بما حدث فوجدته لايعرف شيئا من أمرها فلما علم بها راعه ماراعنا من أمرها . . ثم علم بها بعد ذلك جميع القرشيين بعد ان فشا الخبر وذاع ، فتوجسوا شرا من تلك المبايعة وأرادوا ان يفعلوا شيئا يجهضون به هذه الخطوة العملية

لقد كان الأنصار فى منتهى الفدائية والبسالة فقد بايعوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يدركون تماما عواقب تلك المبايعة . . ولكنهم لايخشون تلك العواقب ولذلك قال العباس بن عبادة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والذى بعثك بالحق ان شئت لنميلن على أهل ـ منى ـ غداً بأسيافنا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم . وانصاع القوم فعادوا الى رحالهم . وناموا حتى أصبحوا .

حوار حاد بين قريش والأنصار

ويكمل ابن هشام القصة التى بدأناها راويا عن ابن إسحاق القصة التى

حكاها كعب بن مالك . فيقول :

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش ، حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وانه والله مامن حى من العرب أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . وكان بعض رجال من كبار قريش لم يعلموا بعد بأمر هذه البيعة فدهشوا لذلك ..

وتوجهت قريش إلى عبد الله بن أبى بن سلول ، فقالوا له مثل ماقالوا أولا . فقال لهم عبد الله : إن هذا الأمر جسيم ماكان قومى ليفتاتوا علىّ فيه ، وماعلمته كان .. وجعل يؤكد لهم أن هذا باطل ، ولو كنت بيثرب ماصنع قومى هذا حتى يؤامرونى - أى يستأذنونى ويأخذون الأمر منى ..

ونفر الناس ، وأخذت قريش تفتش عن الخبر حتى أدركت أنه صحيح ، فاقتفوا أثر الأنصار ، ولكنهم لم يعثروا الا على سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو .

فأما المنذر فقد أفلت منهم .
وأما سعد فقد أمسكوا به وعذب .

قال سعد : لما ظفروا بى ربطوا يدى فى عنقى ، فمازالوا يلطموننى على وجهى ، ويجذبوننى من شعرى - وكان ذا شعر كثير - حتى أدخلونى مكة ، فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع علىّ نفر من قريش فيهم رجل وضىء أبيض شعشاع - حلو - فقلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا .

قال : فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكمة شديدة ، فقلت فى نفسى : لا والله ماعندهم بعد هذا خير .

قال : فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلىَّ رجل ممن كان معهم ، فقال لى : ويحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولاعهد ؟

قلت : بلى ، والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى بن نوفل تُجّاره وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وكذا الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس .

قال : ويحك ، فاهتف باسم الرجلين ، واذكر مابينك وبينهما .
ففعلت ، وخرج ذلك الرجل اليهما ، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح يهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا .
قالا : من هو؟
قال : سعد بن عبادة .

قالا : صدق والله ، ان كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده فجاءا فخلّصا سعدا من أيديهم . .
وكان الرجل الذى لكم سعدا هو سهيل بن عمرو أخو بنى عامر بن لؤى . والرجل الذى آواه هو أبو البخترى بن هشام .

انتشار الاسلام فى المدينة

وعاد الأنصار الى المدينة بروح جديدة ، والايمان سلاح من لا سلاح له ، وأقبلوا على دينهم يولونه خير عناية ، ويؤدونه خير أداء ، وينشرونه فى كل مكان .

ومن الاخبار الطريفة التى كان المسلمون يتندرون بها فى المدينة ، قصة صنم عمرو بن الجموح ، والتى يرويها الحلبى فى سيرته ، وابن هشام فى سيرته ، قالوا : لما قدم الأنصار المدينة وأظهروا الاسلام ، وفى قومهم بقايا شيوخ على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام ، وكان ابنه معاذ ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ـ ﷺ ـ

وكان عمرو سيدا من سادات بنى سلمة وشريفا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ صنما من خشب وأسماه « مناة » كما كان الأشراف يصنعون .

فلما أسلم فتيان بنى سلمة : معاذ بن جبل ، ومعاذ بن عمرو وغيرهما ، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيطرحونه منكسا على رأسه فى بعض الحفر التى تجمع فيها الأقذار . فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه . ثم يقول : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه .

فاذا جاء الليل ، ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل مافعلوا قبل ذلك .
فيغدو عمرو فيجده فى مثل ماكان فيه من الأذى ، فيغسله ويطهره ويطيبه . فإذا جاء الليل عادوا ففعلوا به كما فعلوا قبل ذلك .

فلما أكثروا عليه ، استخرجه من حيث ألقوه يوما ، فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه وقال : إنى والله ماأعلم من يصنع بك ماترى ، فان كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو غدوا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها أقذار

الناس . ثم غدا عمرو فى الصباح فلم يجده فى مكانه الذى كان فيه ، فخرج يبحث عنه حتى وجده فى تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت .

فلما رآه وأبصر شأنه ، أنكر ذلك ، وكان قومه الذى أسلموا كلموه فرجع اليه عقله وأسلم .

وقال حين أسلم وعرف من الله ماعرف وأخذ يذكر صنمه ومأبصر من أمره ، ويشكر الله على نعمة الهداية من العمى والانقاذ من الضلالة :

والله لـو كـنت إلهـا لم تكـن ... أنت وكلب وسـط بئـر فى قـرن
أف لملقـاك إلهـا مسـتدن ... الآن فتشـناك عن سـوء الغبن
الحمـد لله العلى ذى المنن ... الواهـب الـرازق ديّـان الديـن
هو الـذى أنقـذنى من قبـل أن ... أكـون فى ظلمـة قبـر مرتهـن
بأحمد المهدى النبى المرتهن[159]

وهذه القصة تشبه قصة رواها الدميرى فى حياة الحيوان قال : كان لبنى ثعلب صنم يعبدونه ، فبينما هم ذات يوم إذ أقبل ثعلبان يشتدان ، فرفع كل منهما رجله وبال عليه .

وكان للصنم سادن يقال له : غاوى بن ظالم ، فأنشد :

أرب يبـول الثعلبـان برأسـه ... لقـد ذل من بالـت عليـه الثعالـب

ثم كسر الصنم ، وأتى النبى - ﷺ - فقال له النبى - ﷺ - : ماسمك ؟

قال : غاوى بن ظالم .

قال : بل أنت راشد بن عبد ربه .

---

(١٥٩) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٥ - السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٠

وفى نهاية الغريب ، انه كان لرجل صنم ، فكان الرجل يأتى بالخبز والزبد فيضعه عند رأسه ويقول له : اطعم ..

فجاء ثُعلبان فأكل الخبز والزبد ، ثم بال على رأس الصنم - والثُعلبان ذكر الثعالب .

فقام الرجل ، فضرب الصنم فكسره ، ثم جاء الى النبى - ﷺ - فأخبره بذلك وقال فيه شعرا :

لقد خاب قوم أملوك لشدة أرادوا نزالا أن تكون تحارب
فلا أنت تغنى عن أمور تواترت ولا أنت دفاع اذا حل نائب
أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب[١٦٠]

تأملات فى بيعق العقبة

ولنتأمل جيدا فى هذه الأحداث التى حفلت بها بيعتا العقبة ، لنرى من خلالها كيف أخذ الجهاد فى سبيل الدعوة يؤتى ثماره .

لقد سلك النبى - ﷺ - مسلك الانسان الذى يأخذ بالأسباب فى دعوته ، فدعا وخطب فى الناس ، وبالغ فى النصيحة ، ورحل إلى القبائل فى ديارهم ، وتعرض لهم فى منتدياتهم ، ومنازلهم ومجتمعاتهم .. لم يقصر ، ولم ييأس ، ولم يهن عزمه ، ولم تضعف همته ، كانت الكلمة سلاحه ، والقرآن الكريم دليله وبرهانه ، ولم يلق من الناس إلا كل تكذيب وسخرية واستهزاء ، حتى اتهموه بالجنون والسحر والشعر وحذروا الناس منه ، حتى لقد كانوا يقولون لكل وافد إلى مكة : احذروا هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى .

---

(١٦٠) حياة الحيوان للدميرى ج ١ ص ٢٩١

وماكانوا يدرون أنهم بكلامهم ذلك ، كانوا يغرون الناس بلقائه ويدلون الناس عليه . وينبهونهم اليه . .

أكثر من عشر سنوات قضاها النبى - ﷺ - فى تبليغ هذه الدعوة الكريمة قاسى فى خلالها ماقاسى ، وابتُلِىَ فيها بماابتلى من أحزان وأشجان . حتى جاءت هذه النتيجة الطيبة التى تذكُر بأن هذه الدعوة آن لها أن تفرخ فى غير الوطن الذى ولدت فيه . .

وهكذا تثبت الأحداث أن كل نبى ، لا كرامة له فى وطنه . وأكثر الناس تكذيبا للأنبياء هم أقوامهم . حتى جاء الوقت الذى تلقف فيه هذه الدعوة هؤلاء القوم من يثرب فوجدوا فيها المنقذ لهم ممايعانونه من ويلات . .

لقد أراد الله - سبحانه - أن يعلم الناس كيف يكون الوصول الى الهدف . . . . إن الوصول اليه لابد أن يكون بسلوك الأسباب التى أتاحها الله لنا . ولو شاء الله أن ينشر دينه بدون عناء لفعل . ولكن الثمرة إذا نالها الانسان بدون مشقة هانت عليه ، ولم يدرك قيمتها .

ولنقرأ معا ماكتبه الدكتور رمضان البوطى فى ثمار بيعة العقبة :

« لايتحقق التعبد بدون بذل الجهد ، ولا يمحص الصادق من المنافق بدون عذاب أو استشهاد ، وليس من العدل أن يكسب الانسان الغُنْم دون أن يبذل فى ذلك شيئا من العزم . من أجل ذلك كلف الله الانسان أمرين :

١ - إقامة شرعة الاسلام ومجتمعه .

٢ - السير إلى ذلك فى طريق شائكه مجهدة غير معبدة .

والآن لنتأمل فى هذه الثمار التى أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة

سنة ، من دعوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وطبيعتها وكيفية نموها .

لقد جاءت هذه الثمار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قوم الرسول ـ ﷺ على الرغم من جوارهم له وقربه منهم واحتكاكه بهم ، فلماذا ؟

لقد اقتضت حكمة الله الباهرة أن تسير الدعوة الاسلامية فى سبيل لا تدع أى شك للمتأمل فى طبيعتها ومصدرها ، حتى يسهل الايمان بها ، ولايقع أى التباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى .

من أجل ذلك كان الرسول أميا لايقرأ ولايكتب .

ومن أجل ذلك بعث فى أمة من الأميين الذين ابتعدوا عن حضارة الأمم المجاورة لهم ، ولم يتأثروا بثقافاتهم .

ومن أجل ذلك جعله الله مثال الخلق الكريم والأمانة والنزاهة .

ومن أجل ذلك أيضا اقتضت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يكون أنصاره الأوَل من غير بيئته وقومه ، حتى لايظن ظان أن دعوة الرسول ـ ﷺ ـ كانت فى حقيقتها دعوة قومية حاكتها رغبات قومه وظروف بيئته .

وهذا فى الواقع من أجلِّ المعجزات التى تكشف للمتأمل أن العناية الإلهية تحوط حياة الدعوة النبوية وظروفها من كل جانب ، كى لاتوجد فى أى جانب ثغرة ينفذ منها طاعن أو يدعو إليها مشكك أو محترف غزو فكرى[١٦١] .

---

(١٦١) فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى ص ١٢٥

ونلاحظ أن بيعة العقبة الأولى ، لم يكن فيها إشارة إلى الحرب أو الجهاد ، لقد كانت تمهيدا لدخول الاسلام الى المدينة ، وتهيئة للنفوس نحو هذا الدين الجديد ، وكان عدد المبايعين لايتجاوز اثنى عشر رجلا .

أما بيعة العقبة الثانية فقد كانت تنص على الحرب والجهاد ، وعلى أن يمنع المبايعون النبى - ﷺ - ممايمنعون منه أولادهم وأنفسهم .
وعلى هذا الأساس كانت هجرة النبى - ﷺ - ولذلك كثر الحوار فى بيعة العقبة الثانية . .

وقد استوثق العباس لابن أخيه ، واستوثق الانصار لأنفسهم قائلين : ماذا لنا لو أننا وفينا ؟ وهل تتركنا بعد أن تظهر وتنتصر وتعود الى قومك وديارك ؟

لقد كانت البيعة مقدمة للهجرة ، وكانت الهجرة مقدمة للجهاد حتى لقد اعتبر ابن هشام أن الأمر بالقتال صدر فى هذه الأونة . .
وسنتحدث عن الجهاد ومشروعيته فى عدد خاص إن شاء الله - تعالى . .

إذن النبى لأصحابه بالهجرة

وحين رأت قريش أن النبى - ﷺ - قد عقد مع أهل يثرب عهداً على أن يمنعوه أسقط فى أيديهم ، وأخذوا يضيقون الخناق على من عندهم من المسلمين بمكة . .

فكان الرد العملى على ذلك أن أصدر النبى - ﷺ - الأمر لأصحابه بالهجرة الى المدينة . .
ولم يأذن لهم إلا بعد أن صدر الأمر له من السماء . فقد أوحى الله إليه مناما بالهجرة .

وقال ـ ﷺ ـ لأصحابه : من أراد أن يخرج فليخرج .

وأخذ المسلمون يخرجون أرسالا . وقبل أن يهاجروا آخى ـ ﷺ ـ بينهم . . فآخى ـ كما يقول الحلبى فى سيرته .

بين حمزة وزيد بن حارثة

وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف

وبين الزبير وعبد الله بن مسعود

وبين عبادة بن الحارث وبلال

وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص

وبين أبى عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة

وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله .

وبين على ونفسه ـ ﷺ ـ

وهذه المؤاخاة بين المهاجرين غير المؤاخاة التى عقدت بعد ذلك فى المدينة بين المهاجرين والأنصار وقد أنكر كثير من الرواة ماذكر عن تلك المؤاخاة .

وقالوا : إن المؤاخاة لم تحدث إلا بين المهاجرين والأنصار بحجة أن مؤاخاة المهاجرين والأنصار إنما جعلت ليرتفق بعضهم ببعض ، ولتتألف قلوب بعضهم ببعض ، فلامعنى لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى . ولكن الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ ذكر هذه المؤاخاة وقال : إن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة ، فآخى بين الأعلى والأدنى ، ليرتفق الأدنى بالأعلى ، وليستعين الأعلى بالأدنى ، وليتعاون المتساويان وليساعد أحدهما الآخر . . ولهذا تظهر مؤاخاته ـ ﷺ ـ لعلى ـ رضى الله عنه ـ فقد كان على يقوم بكثير من الأمور يكلفه الرسول ﷺ بها (١٦٢) .

---

(١٦٢) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٨١

وفى الصحيح - فى عمرة القضاء - أن زيد بن حارثة قال : إن بنت حمزة بنت أخى - أى بسبب المؤاخاة . .

أول مهاجر الى المدينة :

وكانت الهجرة طريقا من طرق الجهاد اختبر الله بها العزائم ، وامتحن بها القلوب .

ولم يكن طريق الهجرة سهلا ، ولكنه كان شاقا محفوفا بالمخاطر . .

فمن غير المعقول أن تترك قريش المسلمين وقد بدأت تظهر قوتهم وشوكتهم . . إنهم سوف يعودون إليهم يوماً أقوياء أشداء . . فكانت سياسة المشركين مع المسلمين مستوحاة من المثل :

« خذه قبل أن يأخذك »

ولكن هذا المثل ارتد على قريش فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

لقد ضرب الله على عيونهم ، وأضل عقولهم ، وشتت أذهانهم ، فانسل المسلمون من بينهم دون أن يشعروا بالكثيرين منهم .

وكانت قريش قد رصدت الطريق المؤدى إلى المدينة حتى تقطعه على من تسول له نفسه الهجرة ، فما هاجر أحد من المسلمين إلا خلسة . . . . اللهم إلا ما كان من عمر بن الخطاب الذى أعلن عن هجرته متحديا قريشا فلم تقبل التحدى .

وكثير من المهاجرين لقوا من متاعب الطريق وقسوة الصحراء ، وشدة الظمأ وحر الرمضاء ما يوردهم موارد الهلاك . . ولكنهم صبروا ابتغاء أجر الله ، ومن مات منهم فقد وقع أجره على الله مصداقا لقوله - تعالى :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ (١٦٣)

وروى القرطبى فى تفسير هذه الآية قول عكرمة : طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته .. إنه ضمره بن العيص ، أو العيص بن ضمرة بن زنباع ـ وكان من المستضعفين بمكة ، وكان مريضا ، فلما سمع ما أنزل الله فى الهجرة قال : أخرجونى فهيىء له فراش ثم وضع عليه ، وخرج فمات فى الطريق بالتنعيم ، وجاء بنوه إلى النبى ـ ﷺ ـ فأخبروه فنزلت هذه الآية .

أما أن الهجرة من شرائط الإيمان فدليلها من الكتاب قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ (١٦٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟

(١٦٣) النساء ١٠٠
(١٦٤) النساء ٩٠

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ (١٦٥)

لقد كانت الهجرة واجبة أول الاسلام ، فلما فتحت مكة وتوطد أمر الدين قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاهجرة بعد الفتح . وبقى معنى الهجرة الباطن بأن يهجر الإنسان المعاصي ، وهو ما يفهم من هذا الأثر : المهاجر من هجر ما نهى الله عنه .

واستجاب المسلمون لأمر الله ورسوله لهم بالهجرة ، لايحبس الرجل عنها إلا عائق فوق إرادته . . .

وكان أول من قدم المدينة مهاجرا أبو سلمة بن عبد الأسد . . . وروى أن ليلى بنت أبي حثمة بن حذيفة زوجة عامر بن ربيعة ، وأم عبد الله بن عامر وبه كانت تكنى ـ روى أنها كانت أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة ، وقيل ذلك أيضا عن أم سلمة زوجة أبي سلمة ـ رضى الله عنهم ـ

ومما يقصه الرواة عن المتاعب التى لقيها المهاجرون فى هجرتهم قصة هجرة أبي سلمة وزوجه أم سلمة .

كان أبو سلمة أحد مهاجرى الحبشة ، ثم قدم منها فآذاه أهل مكة ، فأراد الرجوع الى الحبشة مرة أخرى .

ولما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار فى البيعة الأولى أراد الخروج إليهم ، فرحل بعيره ، وحمل عليه أم سلمة وابنها سلمة فى حجرها .

---

(١٦٥) الأنفال ٧٢

وخرج يقود بها البعير فرآه رجال من قوم أم سلمة ، فاعترضوا طريقه ، وقاموا إليه يقولون : يا أبا سلمة قد غلبتنا على نفسك ، ولكن صاحبتنا هذه لانتركك تسير بها فى البلاد .

ونزعوا خطام البعير من يده . وتركوه يسير وحده .
وجاء رجال من قوم أبى سلمة ، وقالوا : هذا ابننا فكما نزعتموها من صاحبنا فإننا ننزع ولدنا منها ، ثم تجاذبوا الصبى بينهم حتى كاد ذراعه ينخلع ، ثم أخذه قوم أبيه من أمه .

ففرقوا بينها وبين زوجها وولدها . .
فكانت تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى المساء .
وظلت على هذه الحال سنة . حتى مر بها رجل من بنى عمها ، فرأى ما بها فرحمها ، وقال لقومها : أما ترحمون هذه المسكينة ؟

فرقتم بينها وبين زوجها وولدها .
فقالوا لها : الحقى بزوجك .
فلما بلغ ذلك قوم أبى سلمة ردوا عليها ولدها .

فارتحلت أم سلمة بعيرا ، وجعلت ولدها فى حجرها ، وخرجت تريد المدينة وما معها أحد من خلق الله ـ تعالى ـ

حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة ـ صاحب مفتاح الكعبة ـ فسألها عن وجهتها . . ولما عرف أنها وحيدة ، قال :
ليس لك من مترك ، فصحبها .

فكانت تقول : والله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه .
كان إذا بلغ المنزل أناخ البعير بى ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها .
فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى وقال :
اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه .
فقادنى حتى ننزل .

فلم يزل يصنع ذاك حتى قدم بى إلى المدينة . فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك فى هذه القرية .

وكان أبو سلمة نازلا بها ، فدخلتها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة .

وكانت تقول : ما أعلم أهل بيت أصابهم فى الاسلام ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة[١٦٦]

وتتابع المهاجرون بعد ذلك .
فهاجر عمار وبلال وسعد .
ثم تبعهم عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبى ربيعة فى عشرين راكبا .

كيف هاجر عمر

ولما هم عمر بالهجرة . تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يديه أسهما واختصر عنزته ـ وهى الحربة الصغيرة ـ علقها فى خاصرته ، ثم مضى إلى الكعبة ، والملأ من قريش متحلقون حولها . فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة فواحدة فقال :

---

(١٦٦) أسد الغابة ج ٧ ص ٣٤٠

شاهت الوجوه ، لايرغم الله إلا هذه المعاطس ، يا معشر قريش من أراد أن تثكله أمه ، أو يوتم ولده ، أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى .

فما تبعه أحد منهم . ثم مضى لوجهته .

وكان عمر قد تواعد مع هشام بن العاص أن يهاجرا معا ، وقال له : تجدنى أو أجدك فى محل كذا . ففطن قوم هشام له فحبسوه عن الهجرة فمضى عمر لوجهته . .

ووصل عمر ومعه عياش بن أبى ربيعة إلى المدينة . . واستطاع أبو جهل بن هشام وشقيقه الحارث بن هشام أن يصلا إلى المدينة ويحتالا على عياش ابن ربيعة وكان أخاهما من الأم ، فرجع معهما على الرغم من تحذير عمر إياه . لقد وثق عياش فى قولها ، ولكنهما لم يفيا له .

لقد قال عمر لعياش : هما ما يريدان إلا فتنتك فلا تسمع لهما .

فقال عياش لعمر ـ وقد خدع بكلام أخويه ـ : أبر أمى ، ولى مال هناك آخذه .

فقال عمر : خذ نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى عياش إلا الذهاب معهما .

فقال له عمر : فحيث صممت ، فخذ ناقتى هذه فإنها نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك منها ريب فانج عليها .

فأبى ذلك ـ وخرج معهما . فلما خرج معهما ، أوثقاه وساقاه إلى مكة ، ودخلا به مكة نهارا ، وقالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفهائنا .

وظل عياش فى مكة حتى فتح مكة .

وذكر بعض المفسرين : أن قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ (١٦٧)

نزل فى عياش بن أبى ربيعة .

وذلك أن عياشا حين خرج من المدينة مع أخويه أوثقاه وأعانهما على وثاقه وضربه رجل من كنانة ، فأقسم عياش لئن ظفر بهذا الرجل ليقتلنه ولما فتحت مكة ، وأطلق عياش من الأسر ، خرج فوجد الكنانى ـ وكان قد أسلم ـ فقتله وهو لايدرى أنه مسلم .

ثم أعلم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك . فنزلت هذه الآية .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعياش : قم فحرر . . أى اعتق رقبة .

وذكر فى هذه القصة روايات أخرى ، ولكنا ذكرناها لبيان ما كان الكفار يفعلونه مع المسلمين ابتغاء فتنتهم فى دينهم والحيلولة بينهم وبين هجرتهم .

---

(١٦٧) النساء ٩٢

حرص المسلمين على الهجرة

لقد كان المسلمون يفرحون ويسرون بالهجرة ، ويخرجون إلى المدينة زرافات ووحدانا ، وربما حيل بين المسلم والهجرة فكان يأسى على ذلك .

ذكر ابن الأثير قال : كان نعيم بن عبد الله ـ وهو من بنى عدى بن كعب القرشي

من السابقين إلى الاسلام ، قيل : أسلم بعد عشرة أنفس وكان يكتم إسلامه ، وقد منعه قومه من الهجرة لشرفه فيهم ، لأنه كان ينفق على أرامل بنى عدى وأيتامهم ويمونهم . فقالوا له : أقم عندنا على أى دين شئت ، فوالله لايتعرض لك أحد إلا ذهبت أنفسنا جميعا دونك .

ثم قدم مهاجرا إلى المدينة بعد ست سنين ، عام الحديبية ، وشهد ما بعدها من المشاهد .

وحين قدم المدينة كان معه أربعون من أهل بيته ، فاعتنقه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبله وقال له : قومك خير لك من قومى .

قال نعيم : لابل قومك خير يا رسول الله .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ قومى أخرجونى وقومك أقروك .

قال نعيم : يا رسول الله قومك أخرجوك إلى الهجرة ، وقومى حبسونى عنها .

فانظر إليه ، على الرغم من تزكية النبى صلى الله عليه وسلم ، يعتبر أن الهجرة شرف قد حرم منه ، ومنزلة قصر عنها .

وكان من تزكية النبى - صلى الله عليه وسلم - إياه أنه ﷺ قال : دخلت الجنة فسمعت نحمة نعيم فيها ، فلقب بالنحام لذلك .

والنحمة : السعلة ، وقيل النحنحة الممدود آخرها(١٦٨)

ولقد نعى الله على قوم ابطأوا فى الهجرة وتقاعسوا عنها ، وفى ذلك نزل قوله - تعالى -

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾(١٦٩)

---

(١٦٨) أسد الغابة لابن الأثير ج ٥ ص ٣٤٦

(١٦٩) النساء ٩٧ : ٩٩

الهجرة إلى المدينة

- إذن النبي لأصحابه بالهجرة .
- أول مهاجر إلى المدينة .
- كيف هاجر عمر بن الخطاب ؟
- حرص المسلمين على الهجرة .
- هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم .
- فدائية على بن أبى طالب .
- كيف خرج النبى من مكة ؟
- أبو بكر فى صحبة رسول الله .
- قريش تتبع الرسول وصاحبه .
- الرسول وأبو بكر فى الغار .
- دقة التخطيط فى الهجرة .
- آية الإعجاز فى الهجرة .

ترك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه يهاجرون قبله ، وقد أراد بذلك أن يطمئن عليهم فلا يخلفهم وراءه للفتنة والأذى .

حتى إذا اطمأن على أن من بقى بعد ذلك من المسلمين ممنوع بقوة أو متحين لفرصة بدأ يستعد للخروج مع صديقه الوفى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ

الاستعداد للهجرة

مكث النبى ـ ﷺ ـ فى مكة بقية ذى الحجة ومحرم وصفر وفى ربيع الأول هاجر إلى المدينة لاحقا بأصحابه الذين سبقوه . .

وكان أبو بكر حين رأى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أذن لأصحابه فى الهجرة أراد أن يهاجر ، فطلب منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التريث ، وقال له لعل الله يجعل لك صاحبا .

فأمل أبو بكر أن يكون صاحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم فى هجرته ، وما أعظمها من صحبة . . فاشترى أبو بكر راحلتين ، وأقبل يعلفهما بورق السمر . .

وكانت قريش حين رأت تتابع المسلمين فى الهجرة وأنهم قد أصبحوا فى المدينة بدار منعة خشوا أن يفلت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين أيديهم ويلحق بأصحابه ثم لم يلبث أن يعود عليهم بجيش كثيف وعدد منيف فيحاربهم ويدخل مكة . . . فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فيما يجب عمله . .

ودار الندوة هذه كان قد بناها قصي بن كلاب لتكون محلا للتشاور وعقد عظائم الأمور ، وتوارثها من بعده أبناؤه حتى صارت ـ فيما يحكيه السهيلي ـ إلى حكيم بن حزام ، فباعها فى الاسلام بمائة ألف درهم زمن معاوية . فلامه من لامه وقال له : أبعت مكرمة آبائك وشرفهم ؟

فقال : ذهبت والله المكارم إلا التقوى ، والله لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر وقد بعتها بمائة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله فأينا المغبون ؟

وكانت قريش لاتبرم أمرا إلا فى هذه الدار ، ولا يدخلها غير قرشي . فلما كان ذلك اليوم الذى اجتمعوا فيه للتشاور فى أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حضر كبار القوم من قريش وجلسوا يتشاورون . .

واختلف فى عدد المجتمعين ، حتى لقد قدرهم البعض بمائة رجل ، وقدرهم البعض بخمسة عشر رجلا . .

قال أحدهم ـ وهو أبو البخترى بن هشام : احبسوه فى الحديد ، واغلقوا عليه بابا ثم اتركوه كذلك حتى الموت

فقال شيخ آخر : ما هذا برأى ، والله لو حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه عليه إلى أصحابه وقومه ، ثم لايلبثون أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا برأى فانظروا فى غيره .

فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامرى : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فلا نبالى أين ذهب .

فقال أحد الحاضرين : والله ، ماهذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حىٍّ من العرب فيقنعهم بدينه وحديثه ، حتى يبايعوه عليكم ، ثم يسيربهم اليكم ، حتى يطأ بهم ، أرضكم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ـ أديروا فيه رأيا غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه . .
فقالوا جميعا : ما هذا الرأى ؟
قال : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارماً ، ثم يعمدون اليه فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيقتلونه فنستريح منه ، ويتفرق دمه فى القبائل ، فلا تقدر بنو هاشم على حرب قومهم جميعا ، فيرضون بالدية فنؤديها اليهم وينتهى الأمر .

فصفق الحاضرون لهذا الرأى ـ وقالوا جميعا : نعم الرأى ، القول ماقال أبو جهل ولارأى بعده .

لقد أعجبوا جميعا بهذا الرأى ، ورأوا فيه الطريق الوحيد للتخلص من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن دعوته ـ إنه رأى شيطان من شياطين الإنس ، وان هناك من شياطين الإنس من هو أشد ضرارة من شياطين الجن ـ إن شيطان الجن ليفر إذا استعاذ منه الإنسان بالله ، ولكن شيطان الإنس يزداد إمعانا فى الفساد عند سماع ذكر الله . . ولذلك قدمهم الله فى العداوة حين قال

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١٧٠)

ومن الطرائف التى يذكرها الرواة فى ذلك ان رجلا سولت له نفسه ارتكاب جريمة نكراء تحيَّل فى ارتكابها .. فلما فرغ منها قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . فتمثل له الشيطان قائلا : لماذا تستعيذ منى . فوالله ما أستطيع الاهتداء للحيلة التى اهتديت اليها .

استراح الجميع لرأى أبى جهل ، وأقروه ، عليه . وتفرق جمعهم على إجماع على هذا الرأى - ولم يبق إلا التنفيذ .

وظن الجميع أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد . وأن المسألة أصبحت مسألة وقت .. قصير .. ثم تطوى صفحة هذا الدين الى الأبد .. ولكن أين تدبيرهم من تدبير الله .. إن الحق سبحانه وتعالى قد وعد بإظهار هذا الدين ، وان وعده هو الحق .. قال تعالى

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (١٧١)

وجاء جبريل للنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول له : لاتبت يامحمد هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

---

(١٧٠) الأنعام ١١٢

(١٧١) الصف ٨

واستجاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوله ، وترك فراشه ، وأمر علياً أن ينام فيه ، ويتغطى ببرده الحضرمى الأخضر الذى يتغطى به . . واجتمع الفتيان حول الباب يرصدون خروج محمد لصلاته كما كان يفعل . . وقد أشهروا سيوفهم فى أيديهم مصممين على تنفيذ المهمة التى عهد بها القوم اليهم وهى ان يضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد .

وكان علىّ أول فدائى فى الاسلام ، فهو لم ينم مكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا وهو يعلم ان السيوف ستقطعه اربا اربا . . ولكن ما أهون ذلك فى جنات الله وقد قال علىّ رضى الله عنه فى ذلك

وقيت بنفسى خير من وطىء الثرى ∴ ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر[172]

قال بعض العلماء : إن علياً نزلت فيه الآية الكريمة الآتية لما حدث من افتدائه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه ليلة الهجرة :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾[173]

ذكر ذلك القرطبى ضمن ماذكر من أسباب نزول هذه الآية قال : ولايمنع أن تكون هناك عدة أسباب لنزول الآية إذ اتفق مؤداها مع قرينه الحال . . فقد قال بعضهم : أيضا إنها نزلت فى صهيب حين تبعه المشركون وهو مهاجر ، فنزل عن راحلته ونثر ما فى كنانته من سهام ، وأخذ قوسه ، ثم قال : يامعشر قريش ، لقد علمتم أنى من أرماكم رجلا ـ وأيم الله لاتصلون الىّ

---

(١٧٢) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٢٢

(١٧٣) البقرة ٢٠٧

حتى أرمى بما فى كنانتى ، ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شىء ثم أفعلوا ماشئتم بعد ذلك . . وانى أعرض عليكم امراً . . هو أن أدلكم على مالى لتأخذوه وتتركونى لحال سبيل . . فقالوا له : دلنا على مالك . . فدلهم على المكان الذى خبأ فيه ماله فى مكة فخلوا بينه وبين ماأراد . . فلما قدم المدينة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وقص عليه قصته . . قال له : أبا يحيى ربح البيع ، ربح البيع . . ونزلت تلك الآية السابقة .

وذكر الواحدى قال : قال الحسن : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت فى أن المسلم يلقى الكافر ، فيقول له : قل لا اله الا الله ، فإذا قلتها عصمت مالك ودمك ، فأبى أن يقولها ، فقال المسلم : والله لأشرين نفسى لله ـ أى لابيعن نفسى لله ـ ثم يتقدم ويقاتل حتى يقتل . .

وسمع عمر رجلا يقرأ هذه الآية فقال : إن لله كل رجل قام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل (١٧٤)

خروج النبى ﷺ

وخرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الباب على هؤلاء الفرسان وقد اخذ الله على أبصارهم فلم يره واحد منهم وهذه معجزة أمدَّ الله بها رسوله . . . وأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبضة من تراب وضعها فوق رءوسهم وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

---

(١٧٤) أسباب النزول للواحدى ص ٤٤

﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾ (١٧٥)

وليس عجيبا أن يعمى الله أبصار هؤلاء الأعداء وقد جاءوا يقتلون رسوله ، وهم ممتلئون بالشر والحقد ، يمنون أنفسهم بأمانى الظفر والغلبة . وليست هذه أول مرة يعمى الله فيها أعداء رسوله عنه .

لقدسبقت الاشارة الى ان حمالة الحطب زوج أبى لهب ـ حملت حجرا كبيرا وجاءت الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتلقيه عليه فأعمى الله بصرها فلم تره . . . وحدث ذلك بالنسبة لغيرها ممن أراد بالنبى ﷺ سوءا .

أبو بكر فى صحبة الرسول ﷺ

وكان الله قد أوحى الى نبيه بالهجرة ، فذهب الى أبى بكر فى ساعة لم يكن يذهب اليه فيها ، فقال له : أخرج من عندك يا أبا بكر .

فقال أبو بكر : لاعين عليك يارسول الله إنما هما ابنتاى . أو إنما هن أهلى ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: فإن الله قد أذن لى فى الخروج

فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله . بأبى أنت وأمى .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم

---

(١٧٥) يس ١ : ٩

فبكى أبو بكر فرحا بصحبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالت عائشة فى ذلك : ما كنت أحسب ان أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى فرحاً .

وقال أبو بكر : يارسول الله خذ إحدى راحلتىَّ هاتين ، فإنى أعددتهما لهذا اليوم . . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: آخذها بالثمن . وذلك لتكون هجرته الى الله تعالى بماله ونفسه . . ونحن نعرف أن أبا بكر قد أنفق ماله كله فى سبيل الله . . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى حقه : ما نفعنى مال قط ، ما نفعنى مال ابى بكر . فبكى أبو بكر حين سمع ذلك وقال : وهل أنا ومالى إلا لك يارسول الله ؟

والناقة التى أخذها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبى بكر هى القصواء وقد عاشت حتى زمن أبى بكر رضى الله عنه . . وقدر ثمنها بأربعمائه درهم .

قالت عائشة رضى الله عنها : فجهزنا الناقتين أحث الجهاز ، وأسرعه ، ووضعنا لهما سفرة فى جراب ، وشقت أسماء بنت أبى بكر نطاقها نصفين ، فانتطقت بنصفه وربطت فم الجراب بنصفه الآخر . فسميت بذات النطاقين .

وقيل إنها ربطت الجراب بنصفه والقربة التى فيها الماء بنصفه الآخر وظلت بدون نطاق ، لذلك دعا لها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أبدلك الله به نطاقين فى الجنة . واستأجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلا عارفا بالطريق اسمه عبد الله بن أريقط فدفعا اليه الراحلتين ،

وواعده على جبل ثور بعد ثلاث . . ولم يكن عبد الله هذا من الذين آمنوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى هذا دليل على جواز الاستعانة بغير المسلم فى قضاء المصالح وتحقيق الأمور ، طالما كان هذا المستعان به أمينا غير خدّاع .

قريش تتبع رسول الله ﷺ

خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما سبق أن ذكرنا ـ على القوم وهم مدججون بأسلحتهم مشهرو سيوفهم وقد أعمى الله ابصارهم ، ونثر على رؤوسهم التراب نكاية لهم واحتقارا لشأنهم ، وقد ذهب قوم من العلماء الى ان « سورة يس » لها أثر كبير فى الحفظ والرعاية وتحقيق الرجاء ورُوِىَ فى ذلك آثار منها « يس لما قرئت له » ومنها « إن قرأها خائف أمن أو جائع شبع ، أو عار كسى ، او عاطش سقى ، أو سقيم شفى »[176]

ومضى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لشأنه وظل فتيان قريش واقفين حتى طلع النهار ، ومر رجل عليهم فقال لهم ، ما تنتظرون هنا ؟ فقالوا : ننتظر محمدا .

فقال لهم : وكان قد رأى التراب على رءوسهم : خيبكم الله . قد والله خرج محمد عليكم ، وما ترك واحدا منكم الا وقد وضع على رأسه التراب . وانطلق الى مقصده . . فوضع كل منهم يده على رأسه فاذا فوقه تراب .

ونظروا الى داخل الدار من خصاص الباب ، وكان علىٌّ مايزال فوق الفراش

---

(١٧٦) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٢٣

فقالوا : هذا محمد نائم وعليه برده الحضرمى الأخضر .

لم يصدقوا ما قاله الرجل لهم . حتى رأوا عليا وقد قام من الفراش ، فأدركو ان الرجل قد صدقهم . . وأدركوا انهم إنما كانوا يحرسون علياً طول ليلتهم ، وخاب أملهم الذى أملوه وكيدهم الذى كادوه ، وصدق الله اذ يقول :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ (١٧٧)

فاستطار المشركون غضبا وأسقط فى أيديهم وخرجوا يتعادون فى كل طريق يبحثون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستعانوا بالقافة الذين يتتبعون الآثار ، علهم يهتدون الى مكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ذهب بعد خروجه من بيته الى بيت أبى بكر ليخرجا معا . . ويقال إن الكفار ذهبوا الى بيت ابى بكر ولكنه كان قد خرج بصحبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خوخة فى الجدار — اى فتحة ضيقة — فسألوا ابنته أسماء عن أبيها فقالت لهم إنه غير موجود فى الدار ، ولا تعرف أين ذهب فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها .

فى الطريق الى الغار

وفى الطريق الى الغار سار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثر رجليه فى الأرض ، حتى تعبت رجلاه ، فلما رأى أبو بكر ذلك حمله على كاهله ، وجعل يشتد به حتى أتى على فم الغار

---

(١٧٧) الأنفال ٣٠

فأنزله . . . ولكن كل ذلك لم يمنع القرشيين من تتبع أثره ، فإن اختفى أثر النبى فإن أثر أبى بكر ظاهر . . وقال أبو بكر للنبى - صلى الله عليه وسلم - لاتدخل يارسول الله الغار حتى أدخله قبلك ، ودخل أبو بكر فجعل يلتمس الأجحار ، كلما وجد جحراً سده بجزء من ثوبه ، حتى بقى جحر فسده بعقبه ، وكانت فيه حية فنهشته ولمس النبى - صلى الله عليه وسلم - بيده مكان اللدغة فشفى بقدرة الله — وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - حين رأى ما فعل أبو بكر من فدائية واستبسال وحب للنبى - صلى الله عليه وسلم - قال اللهم اجعل أبا بكر معى فى الجنة ، فأوحى الله اليه : قد استجاب الله لك .

وأصاب حجر حاد يد النبي - صلى الله عليه وسلم - فأدمى اصبعه ، فأخذ يمسح الدم ويقول :

هل أنت الا إصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت .

وهو كلام جاء على وزن الشعر ، ولكنه لم يقصد به الشعر لان الله سبحانه قال فى حق نبيه - صلى الله عليه وسلم -

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ (١٧٨)

ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه اذا قدموا عليهم فى الموسم فقال بعضهم : نقول إنه شاعر ، فقال أهل الفطنة منهم : والله لتكذبنكم العرب فإنهم يعرفون أصناف الشعر ، فوالله ما يشبه ما يقوله محمد شيئا منها ، وما قوله بشعر (١٧٩)

---

(١٧٨) يس ٦٩

(١٧٩) تفسير القرطبى سورة يس ص ٥٤٩٧ ط دار الشعب

فهذه العبارة التى قالها الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كانت قد جاءت على وزن الشعر الا أنها لا يقصد بها الشعر .

وهى توافق بحر السريع ، ولكن بشرط كسر التاء من دميت ، فان سكنت لا يكون شعرا بحال . وظاهر الحال ان النبى - صلى الله عليه وسلم - نطقها ساكنة لا متحركة .

وكان أبوجهل يمر حين خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - من بيت أبى بكر ، ولكن الله غطى على بصره فلم يره . .

عن عائشة بنت قدامة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : لقد خرجت من الخوخة متنكرا - يقصد الخوخة التى فى بيت أبى بكر - فكان أول ما لقينى أبوجهل - لعنه الله - فأعمى الله بصره عنى وعن أبى بكر حتى مضينا » (١٨٠)

النبى فى الغار

ومضى النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الغار الذى واعد عبدالله بن أريقط عنده بعد ثلاث - وقال بعض العلماء إن الجبل ناداه ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد ورد ان النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يسمع تسبيح الحصا فى يده . .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد توقع ان الكفار سوف يلجأون الى حراء بحثا عنه ، لأنهم يعرفون تردده عليه . . ولكنه كان واثقا من حفظ الله له . .

---

(١٨٠) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٣

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه الغار ، فقيل إن الله أنبت على فم الغار شجرة أم الغيلان فسترته بفروعها . وهى أشجار فى مثل قامة الانسان لها زهر أبيض .

وأمر الله العنكبوت ان تنسج على فم الغار ، وأمر حمامتين أن تعششا على فم الغار .

وأخذ الكفار يبحثون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل مكان . . . فتشوا مكة من أعلاها الى أسفلها ، وجاءوا بالقافة يقصون الاثر حتى وقفوا عند باب الغار .

وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وسيوفهم فأشفق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صهيب بن سنان وخاف عليه . . لأنه كان قد تواعد معهما أن يكون ثالثهما ، فلما أراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الخروج للغار أرسل اليه أبابكر مرتين أو ثلاثا فوجده يصلى .

فرجع للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره بذلك وقال: كرهت أن أقطع عليه صلاته .

وتطلع الكفار الى الغار فوجدوا العنكبوت ، والحمام ، فقالوا : ليس فى هذا الغار أحد . ان هذا العنكبوت أقدم من ميلاد محمد ، وكيف يطأ إنسان الغار وهاتان الحمامتان تعششان على بابه ؟

وهكذا رد الله الكفار عن محمد بجند من أضعف خلقه . بعنكبوت يضرب بضعفه المثل حيث يقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (١٨١)

وبالحمام الذى يضرب به المثل فى الوداعة والأمن والاطمئنان والسلام ، حتى لقد رمزوا للسلام بحمامة فى منقارها غصن زيتون . .

وهذه الجنود الضعيفة التى لا تغنى فى نظر الناس يمكنها أن تغنى عند الحاجة-اذا أراد الله-بما لا يستطيع غيرها ان يغنى مثلها .

إن هذه الخيوط الواهنة تصبح دروعا فولاذية لو حدثت قريش نفسها باقتحام الغار ، وان هاتين الحمامتين الوديعتين تصبحان نسرين مفترسين أو أسدين ضاريين يدفعان عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه الأذى .

ولقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى داخل الغار فى منتهى الثقة والاطمئنان بربه ، أما أبوبكر فقد كان مستطار القلب لا خوفا من الكفار على نفسه ، ولكن خوفا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

انه يخشى على الرسالة ان تضيع ، وعلى الدعوة ان تتعثر ، وعلى الاسلام ان يتبدد،انه لو مات وحده فلن يخسر الاسلام الا فردا واحدا ولكن ـ لا قدر

---

(١٨١) العنكبوت ٤١

الله ـ لو أصاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكروه لضاعت الأمة وتبدد شأن المسلمين . .

هذا ما كان يخشاه أبوبكر . . كان خوفه منبعثا من عمق إيمانه وصادق يقينه وشدة حبه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ظهر أثر ذلك فى مخاطبته للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله لو نظر أحد من هؤلاء إلى ما تحت قدميه لرأنا .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما ظنك ياأبا بكر باثنين الله ثالثهما ؟

وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يزيد فى اطمئنان الصديق ـ رضى الله عنه فقال له : لو جاءونا من هنا لذهبنا من هاهنا .

فنظر أبوبكر الى الغار حيث أشار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد فتحة تسلم الى طريق آخر .

وما فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الا ليطمئن صديقه الذى اشتد جزعه على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد نهى عن قتل العنكبوت حيث جعله الله سببا فى نجاته ـ وجاء فى الجامع الصغير « جزى الله العنكبوت عنا خيراً فإنها نسجت على الغار » . . ولكن هذا ليس معناه أن نترك العنكبوت يعشش فى بيوتنا بهذه الصورة التى تشوه الجمال وتنفر النفوس .

حقا لقد أدى العنكبوت مهمة جليلة وجزاه الله خيرا كما قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن ليس له أن يُترك حتى يطغى على قواعد النظافة ومظاهر الجمال . وان ديننا لهو دين النظافة والجمال .

آية العنكبوت

قال العلماء ، وقد جعل الله العنكبوت آية تدفع الشر عن أوليائه . فقد أخرج ابونعيم فى الحلية عن عطاء بن ميسرة قال : نسجت العنكبوت مرتين : مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ، ومرة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الغار .

وكذا نسجت على الغار الذى دخله عبدالله بن أنيس لما بعثه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقتل خالد الهذلى ، فقتله ثم حمل رأسه ودخل فى غار فنسجت عليه العنكبوت ، فجاء القوم يطلبونه فلم يجدوا شيئا فانصرفوا راجعين .

وفى تاريخ ابن عساكر ان العنكبوت نسجت ايضا على عورة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب لما صلب عريانا فى سنة إحدى وعشرين ومائة [١٨٢]

لقد جعلها الله آية يقهر بها العتاة ، ويبين لهم أنه سبحانه هزمهم بأضعف خلقه ، وأذلهم بأذل حشرة ، ونصر أولياءه بما لا يظن منه النصرة .

أما الحمامتان فقد بارك الله فى نسلهما حتى انحدر الى الحرم بالآلاف ، فأصبح آمناً بأمنه وعاش فى رحابه يرفرف بأجنحته فوق رءوس العاكفين ، ويطوف ملبيا مع الطائفين ، ويأوى فى سلام إلى حمى رب العالمين .

ويئست قريش وعادت بخفى حنين ، أو لعلها لم تجد خفا واحدا منها . . ولجأت الى ما يلجأ إليه اليائس العاجز من التهديد والوعيد ، فأمرت مناديا ينادى فى كل مكان : ألا من وجد محمدا أو دل عليه فله مائة بعير .

---

(١٨٢) المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٣٧

ومكث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام ، كان يبيت عندهما عبدالله بن ابى بكر وهو غلام يعقل ما يقال . . كان يأتيهما حين يختلط الظلام ويخبرهما بما جرى فى يومه ، ويدلج من عندهما بفجر ، فيصبح فى قريش كأنه بات فى بيته . وكانت أسماء أيضا تحمل لهما ما يصلح من الطعام .

وكان عامر بن فهيرة ـ وهو مملوك أشتراه أبوبكر من الطفيل الذى كان يعذبه لاسلامه ثم أعتقه ـ كان يروح عليهما بغنم أبى بكر يرعاها قرب الغار ، ويحلبها لهما ، ويمضى بها على آثار عبد الله بن أبى بكر وأسماء حين يعودان من عندهما . .

لقد كان تخطيطا دقيقا يدل على ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يترك جانب الأسباب كلية وان كان عقده التوكل . .
وفى قصة الاختفاء فى الغار ، وخوف أبى بكر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله ـ تعالى ـ

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١٨٣)

---

(١٨٣) التوبة ٤٠

لقد أنزل الله السكينة فى قلب أبى بكر فاطمأن ، وأنزل الله جنودا أيد بها نبيه وأعلى بها دينه ، وان من الجنود التى لم تُرَ الملائكة . .

ومن الجنود التى تُرى ولكن لا يظن أحد أنها جنود العنكبوت والحمامتان ، فهى فى حكم التى لا ترى . وفى هذه القصة يقول البوصيرى فى بردته :

أقسمت بالقمر المنشق ان له   من قلبه نسبة مبرورة القسم
وما حوى الغار من خير ومن كرم   وكل طرف من الكفار عنه عَمِى
فالصدق فى الغار والصديق لم يرما   وهم يقولون ما بالغار من أرم[١٨٤]
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على   خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عال من الأطم[١٨٥]

أما أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ فيكفيه فخرا ان الله جعله صاحبا لنبيه فى هذه الرحلة ، واثنى عليه فى الآية التى ذكرناها ، وأنزل على قلبه السكينة ، وقد روى ابن عدى وابن عساكر عن أنس ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لحسان بن ثابت : هل قلت فى ابى بكر شيئا ؟ قال حسان : نعم .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قل وأنا أسمع .

فقال حسان :

اذا تذكرت شجوا من أخى ثقة   فاذكر أخاك أبابكر بما فعلا
التالى الثانى المحمود شيمته   وأول الناس طرا صدق الرسلا

---

(١٨٤) لم يرما : لم يبرحا ولم يزولا ، وأرَم : مقيم

(١٨٥) الأطم ـ بضم الهمزة والطاء ـ : الحصن يجمع على آطام .

والثانى اثنين فى الغار المنيف وقد طاف العدو به اذ صعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا

فتبسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له : صدقت

الخروج من الغار

وسكن الطلب ، وجاء الدليل ، ومعه الراحلتان ، ونزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغار ومعه صديقه ، وامتطى كل منهما راحلته فى طريق المدينة .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين خرج من مكة وقف عند « الحزورة »[١٨٦] ونظر إلى البيت وهو يقول : « والله انك لأحب أرض الله إلىّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا ان أهلك أخرجونى ما خرجت منك » وأورد الزرقانى قوله أيضا : « الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا ، اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام ، اللهم أصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللنى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، واليك رب فحببنى والى الناس فلا تكلنى أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والارض وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين ـ أن يحل بى غضبك أو ينزل علىّ سخطك ، أعوذ بك من

---

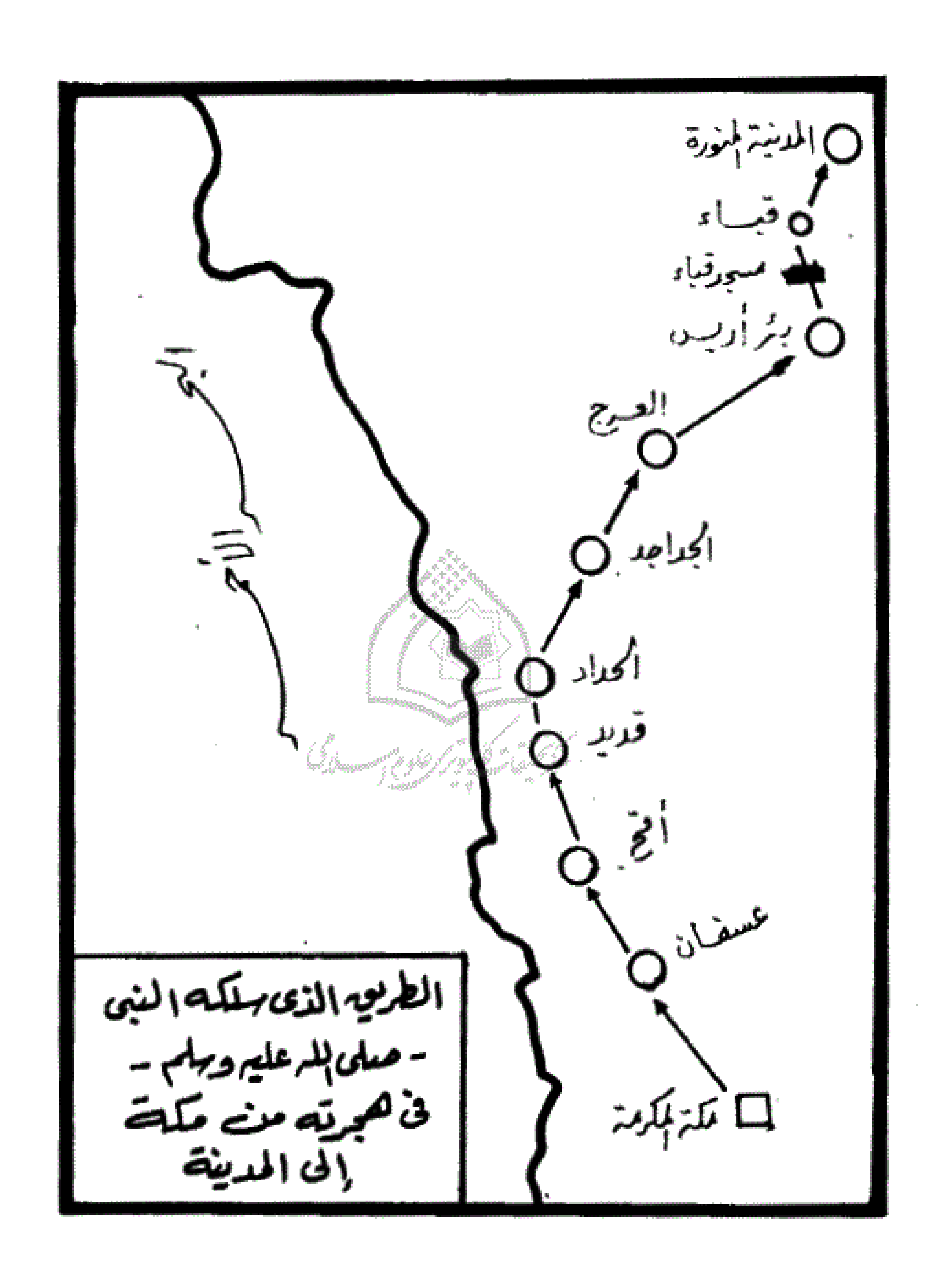
(١٨٦) الحزورة ـ بفتح الحاء وسكون الزاى ـ سوق كانت بمكة أدخلت فى المسجد بعد ذلك .

زوال نعمتك عني وفجأة نقمتك وتحول عافيتك . . . لك العتبى عندي حيثما استطعت ولا حول ولا قوة الا بك »[187]

وانطلق بهما الدليل عبدالله بن أريقط ، ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما ، وكان أبوبكر يردفه خلفه ويعقبه . وقد أخذ بهما الدليل طريق السواحل .



(١٨٧) شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج ١ ص ٣٢٩ وقال : رواه أبو نعيم عن ابن اسحاق بلاغا .



المدينة المنورة
قبـاء
مسجد قباء
بئر أريس
العرج
الجداجد
الحداد
قديد
أمج
عسفان
مكة المكرمة
الطريق الذى سلكه النبى
- صلى الله عليه وسلم -
فى هجرته من مكة
إلى المدينة



لقد كان الهدف من ذلك أن يضلل العيون ، فإن ما يتبادر إليه ذهن القرشيين أنه سوف يسلك الطريق المعتاد ، فهو القريب من جهة ، والآمن من جهة أخرى ، والسهل الميسر من جهة ثالثة .

أما طريق السواحل فهو شاق بعيد ولا يمكن اجتيازه الا بخبير أو دليل ، وظن القرشيون ان محمدا فى هروبه لن يلجأ إلى دليل ، ولو لجأ اليه لأعوزه وجود ذلك الدليل . وقد أوضحنا لك الطريق الذى سلكه الدليل عبدالله بن أريقط بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه .

دقة التخطيط فى الهجرة

والأمر الذى يلفت النظر فى الهجرة هو التخطيط لها . ذلك التخطيط الذى لا يصل الى مثل دقته وإحكامه أي تخطيط آخر لأى عمل مشابه فى أرقى الدول والعصور . لقد كان هذا التخطيط بإلهام من الله ـ تعالى ـ

ولعل أشبه شيء بالهجرة فى عصرنا الحديث هو تحريك الجيوش من مكان الى مكان ، فحين يقرر العسكريون القيام بمثل هذه المهمة فانهم يدرسونها دراسة وافية توفر لها ضمانات وشروطا يأملون ان تحقق للمهمة أكبر قدر من النجاح .

وأهم تلك الضمانات والشروط :

١ ـ السرية التامة .

٢ ـ رسم الطريق ومعرفة كل دقائقه وتفاصيله .

٣ ـ توفير الحماية من جميع الاتجاهات (الأمام ـ الخلف ـ اليمين ـ اليسار ـ الجو)

٤ ـ الاخفاء والتمويه
٥ ـ الاستطلاع لمعرفة اخبار العدو
٦ ـ توفير الاحتياجات اللازمة للرحلة من طعام وشراب وغيرهما .

وقد توفرت للهجرة النبوية كل هذه الضمانات مع الفارق فى الامكانات ، ولكن هذه المبادىء روعيت مراعاة تناسب العصر الذى حدثت فيه ، والامكانات المتاحة فى ذلك الوقت . .

فقد توفرت السرية بكل معانيها ، اذ لم يعلم بموعد الهجرة من البشر الا من شاركوا فيها . ما عدا عائشة التى توفرت فيها الثقة الكاملة . .

فهذا « على » ينام فى فراش الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خداعا للكفار وهذا أبوبكر رضى الله عنه ـ يوفر وسائل الركوب والانتقال ، ويقوم بمهمة الحماية للرسول فقد دخل الغار قبله ، ليكتشف ما فيه ، ويبعد ما عسى ان يراه من أذى .

وكان فى أثناء الرحلة تارة يكون من أمامه ، وتارة يكون من خلفه ، وتارة عن يمينه وتارة عن يساره ، ويتلفت فى كل اتجاه حتى لا يفاجأ بعدو من أى جهة . .

- وكان عبدالله بن أبى بكر يقوم بمهمة الاستطلاع
- وكان عامر بن فهيره يقوم بمهمة الاخفاء والتمويه
- وقامت أسماء بمهمة الامداد بالطعام والشراب

● وكان اختيار عبدالله بن أريقط وهو على دين قريش اختيارا موفقا (١٨٨) فقد كان على دراية واسعة بمسالك الطريق ودروبه ..

هذا التخطيط الدقيق الناجح صاحبته ايضا العناية الالهية التى أمدت الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالاعجاز الذى صاحبه فى رحلته حتى وصل الى غايته فى أمان وسلام .

آية الاعجاز فى الهجرة والرد على من ينكرون المعجزات الكونية للرسول .

وقد وضحت آية الاعجاز وضوحا بينا فى هذه المسيرة ، على الرغم مما ينكره البعض من معجزات مادية للنبى - صلى الله عليه وسلم - لأنهم يرجعون عادة الأحداث إلى الاسباب والمسببات ، ويربطون بين الامور بروابط مادية تقوم على المقدمات والنتائج ، ولكنهم يغفلون فى كثير من الأحيان عن تصاريف الأقدار التى يقف العقل أمامها عاجزا ، لايقدر على التفكير ولا يستطيع التدبير ، كما يغفلون ايضا عن ألطاف الله الخفية التى تصاحب الأحداث فتخفف وقعها وتعين على تحملها ، وتلفت نظر الناس الى رحمة الله الواسعة وتوفيقه العظيم .

وبذلك المقياس المادى حاول كثير من المؤرخين ان يقيسوا خطوات الهجرة الشريفة ... فقالوا : إنها تمت على أساس من الترتيب العقلى

---

(١٨٨) راجع مقال خاطر فى ذكرى الهجرة للاستاذ فهيم حافظ الدناصورى - مجلة الوعى الاسلامى محرم ١٤٠٥ .

والتخطيط السياسي البارع الذى أوردناه فيما سبق ، والذى يدل على عبقرية فريدة وبعد نظر جديرين بتلك الشخصية العظيمة . وهى شخصية المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم بذلك يحاولون ان يجعلوا شخصية الرسول كغيره من البشر ، إلا أن الله اختصه من بينهم بالعقل المستنير . والقدرة على التصرف السليم فى الوقت المناسب وبالصورة المناسبة . ولذا فإن ما يصدر عنه من تصرفات فى نظرهم ليس له جوانب أخرى غير منظورة .

وهذا فى نظرهم قمة الكمال البشرى .

وقد تولى الرد على هؤلاء كثير من العلماء المحققين ، ومنهم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى الذى يقول : « يولع بعض الباحثين بالمبالغة فى تصوير حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنها حياة بشرية عادية ، وذلك من خلال الاطناب فى بيان ان حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت قائمة على الاخذ بالأسباب ، والتخطيط البشرى ويقولون ان المعجزات والخوارق لم تكن من شأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويكثرون فى هذا من الاستشهاد بمثل قوله تعالى

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١٨٩)

بحيث يخيلون الى القارىء أو السامع أن سيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت بعيدة كل البعد عن المعجزات والآيات التى يؤيد الله بها فى العادة أنبياءه الصادقين .

---

(١٨٩) الأنعام ١٠٩

واذا أمعنا فى منبع هذه النظرية التى يحاول البعض ترديدها نجد أنها فى الأصل فكرة المستشرقين،والباحثين الاجانب من أمثال « غوستاف لوبون » و« أوجست كونت » و« هيوم » و« جولد زيهر » وغيرهم .

وأساس هذه النظرية عندهم وسببها هو عدم الايمان بخالق المعجزات أولا . . وعدم الإيمان بنبوة النبى ﷺ ثانياً . . وذلك ان الايمان بالله — عز وجل — اذا استقر فى النفس سهل الايمان بكل شىء بعد ذلك فمن أدرك قدرة الله وعظمته عرف أن كل شىء بالنسبة لها لايعد معجزة ؟

وان كان بالنسبة لنا من أعظم المعجزات . . ولكن أين المستشرقون من هذا الايمان واليقين الصادق ؟ . . ومن الغريب ان بعض أناس ممن يحسبون على المسلمين قد تلقف هذه النظرية ، وكان من سوء حظ العالم الاسلامى أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الاجانب دون أى سبب سوى الافتتان بزخرف خداعهم ، وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التى ازدهرت فى أنحاء أوروبا — ويكل أسف كان من هؤلاء أعلام يشار اليهم بالبنان ؟ « ثم نظر محترفو التشكيك وأرباب الغزو الفكرى فوجدوا فى هذا الذى يقوله بعض الذين يحسبون على المسلمين ما يفتح لهم آفاقا وميادين جديدة لغزوهم الفكرى وتشكيك المسلمين بدينهم ، ولقد وجدوا فى كلام هؤلاء ما يغنيهم عن وسيلتهم العتيقة ـ وسيلة الحرب الشاملة للعقيدة الاسلامية وغرس الافكار الالحادية فى نفوس المسلمين » فراحوا يروجون صفات معينة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كالبطولة والعبقرية والقيادة فى عبارات من الاعجاب والاطراء ، ويبالغون فى

نفس الوقت فى تصوير حياته العامة بأنها بعيدة كل البعد عن المعجزات وخوارق العادات ، كى يتم لهم إنشاء صورة جديدة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أذهان المسلمين مع مرور الزمن . . . قد تكون صورة محمد « العبقرى » أو تكون صورة محمد « القائد » او تكون صورة محمد « البطل » ولكنها لاينبغى ان تكون على أى حال صورة محمد الرسول النبى . . إنهم يريدون أن يلفتوا أنظار المسلمن الى تلك الصفات البشرية التى اتصف بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من البطولة والعبقرية والشجاعة وغير ذلك — وهم يسلطون الاضواء كل الأضواء على تلك الصفات حتى ينسى المسلمون صفات محمد النبى وصفات محمد الموحى اليه وصفات محمد المؤيد بالمعجزات والخوارق من ربه جلا جلاله . . إنهم كمن يدس للاسلام السم فى العسل . . فعلى أبناء الاسلام ان يتنبهوا لمثل هذه المحاولات التى تبدو فى ظاهرها خدمة للاسلام ورفعة لشأن نبيه،ولكنها فى باطنها محاولة لصرف المسلمين عن عقيدتهم .

إننا أبناء الاسلام يجب أن نعرف أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أولا وقبل كل شىء — نبى الله ورسوله — وان جميع صفات العظمة والعبقرية والشجاعة والبطولة وغيرها إنما هى مستمدة من كونه الرسول والنبى الذى ختم الله به الرسل والانبياء . . تلك هى الحقيقة التى يجب ان نعلمها والتى لاينبغى ان يصرفنا عنها صارف مهما كان ظاهره حسنا اوجذابا .

إن القصد السىء الذى يهدف اليه هؤلاء المستشرقون ومن هم على شاكلتهم يتجلى واضحا فى اشاعة كلمة « محمديين » كتسمية جديدة بدلا من « مسلمين » (١٩٠) إن هذا القول يلقى الضوء على محاولة المستشرقين ومن

---

(١٩٠) انظر فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى ص ١١٥

لف لفهم وخدع بهم . بكل أسف . من رجال المسلمين . الذين تخدعهم كلمة العقلانية ، ويسيرون وراءها دون ان يعملوا لقوله تعالى . .
« الذين يؤمنون بالغيب »[191]

حسابا ولو أمعنا فى النظر جيدا لوجدنا ان النبوة فى حد ذاتها أمر لادخل للعقل فيه فليس بوسع اى انسان مهما كان عقله ان يصبح نبيا ، لان الله أعلم حيث يضع رسالته ، ولذلك فما أسرع ما ينكشف أدعياء النبوة أمام مجهر الاختبار ، الدقيق . . . فيهوى الى القاع كل من يدعى هذه المنحة الالهية كاذبا . . ويرتفع على هام التاريخ كل من ثبت صدقه مؤيدا بما أتاه الله من آيات بينات وخوارق ومعجزات .

ويقول الشيخ مصطفى الطير فى ذلك : « اقتضت حكمة العليم الخبير إن يكون أنبياؤه ورسله من البشر أنفسهم ، وان يمنحهم أرواحا عالية الطبقة عظيمة الصفاء والشفافية كاملة الصلاحية للاتصال بالملأ الأعلى لتتلقى منهم وحى الرحمن الرحيم .

ولم يجعلهم من الملائكة لان البشر لايستطيعون لقاءهم ولا يحتملون سماع الوحى منهم إن رأوهم على صورتهم الحقيقية . . . . ولكيلا يلتبس أمرهم عليهم إن رأوهم فى صورة البشر ، وفى ذلك يقول الله تعالى

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[192]

(١٩١) البقرة ٣
(١٩٢) الأنعام ٨ ، ٩

وليس من الحكمة ان يمنح الله جميع البشر من قوة الروح وصفائها ما منحه أنبياءهم . حتى يروا الملائكة ويسمعوهم مباشرة . لان ذلك يكون إلجاء وقهرا على الايمان ، فيفوت المراد من جعل الدنيا دار امتحان والاخرى دار جزاء ، ولان الملائكة خلقوا بصورة لاتجعلهم يستقرون على الأرض بين الناس ، حتى يعايشوهم ويبلغوهم دين ربهم ، بل يتنقلون فى ملكوت الله تعالى — بسرعة لاتخطر على البال ، لتنفيذ ما وكله الله اليهم فى أرجاء هذا الملكوت . . فإرسالهم الى البشر ليقيموا بينهم مخالف لما خلقوا من أجله ، وفى ذلك يقول الله تعالى

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (١٩٣)

ولم يترك الله أمر النبوة فى البشر سهل الادعاء والاختلاق ، فقد أحاطها بسياج يحميها من زيف المزيفين ، حيث جعل لها آيات تدل عليها ، فمن ادعاها ولم تكن له آية عليها ، فهو كاذب ومدع فاجر أو شيطان ماكر .

معنى المعجزة

« آية النبوة معجزة يظهرها الله على يد مدعيها . . . إنها أمر يظهره الله بخلاف العادة على يد مدعى النبوة عند تحدى المنكرين على وجه يُعْجِز المنكرين عن الإتيان بمثله ، ويعتبر إجراؤها على يد من جاء بها شهادة من الله على صدقه فيما يبلغ عنه ، لانه ـ سبحانه ـ لايؤيد كاذبا .

---

(١٩٣) الاسراء ٩٥

وقد جعل الله لكل نبى معجزة تناسب قومه وعصره ، وهى اما ان تكون -فعلا-كخروج ناقة صالح من صخر الجبل ، وقلب عصا موسى حية ، وابتلاعها سحر الساحرين دون ان تترك له بقية . . وإما أن تكون-تركا-كعدم إحراق النار لأبراهيم حين ألقاه الكفار فيها . . واما ان تكون قولا كالقرآن العظيم لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (١٩٤)

ويؤكد الأستاذ أنور الجندى رأى الذين يرون أن الاستشراق كان وراء إنكار المعجزات الكونية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : « إن العمل الذى قام به الكتاب العصريون لتقديم السيرة النبوية قد أدى دورا لابأس به ، وأحدث آثارا طيبة فى نفوس المسلمين ، ولكنه لم يكن عملا أصيلا على طريق التطور الطبيعى لكتابة السيرة من منطق المفهوم الاسلامى الجامع ، القائم على أساس التقدير الكامل للوحى والنبوة والغيبيات والمعجزات .

« ومن هنا كان عجزه وقصوره الذى جعله فى تقدير الباحثين قائما على التبعية والاحتواء للمناهج الغربية التى لم تكن فى حقيقتها الا مظهرا خادعا يخفى من ورائه الأهواء والخلافات بين الاديان ـ ونزعة الاستعلاء الغربية ومطامع النفوذ الغربى فى السيطرة على الفكر الاسلامى والتاريخ الاسلامى . حتى لايحقق ابتعاثه الأصيل هدفا يجدد حضارة الاسلام ويفتح الطريق لقيام المجتمع الاسلامى القوى .

« لقد كانت ظاهرة انكار المعجزات واضحة تماما فى كتابات الباحثين المحدثين وقد جرى هؤلاء الكتاب هذه المجرى باسم المنهج العلمى الغربى .

---

(١٩٤) بحث بعنوان : آيات النبوة المحمدية ـ العدد التذكارى لمؤتمر السيرة الرابع ـ بالأزهر الشريف ص ٢١٤

والحقيقة أن هذا المنهج العلمى هو منهج إسلامى الأصل والمصدر على خلاف دعوى بعض المتأثرين بالدراسات الغربية .

ولقد كان من أبرز أهداف الغربيين التأثير فى أسلوب كتابة التاريخ الاسلامى وفى مقدمة ذلك سيرة النبى الاعظم ، إيمانا منهم بأن هذه الصفحات الباهرة من شأنها اذا عرضت عرضا صحيحا أن تبعث الأحاسيس العميقة فى قلوب شباب المسلمين . . . ومن هنا كانت محاولتهم المسمومة فى ادخال أسلوب عصرى له طابع براق ولكنه يبغى من وراء ذلك إطفاء الاضواء التى يقدمها هذا التاريخ من حيث الصلة بالله تبارك وتعالى ـ والاعجاز الربانى الواضح فى كل مواقف حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتوحاته .

« ولما كان هذا العمل هو بمثابة هدف واضح الدلالة فى مخطط الاحتواء الغربى الذى يرمى الى التقليل من شأن البطولات الاسلامية ووضعها موضع المقارنة مع البطولات الغربية من خلال النواحى المادية وحدها ، فقد حجبت هذه الدراسات جانبا كبيرا من أثرها المعنوى والروحى الذى يهز النفوس ويملؤها بالثقة واليقين فى عظمة هذا الدين الخاتم وفى سعة العطاء الربانى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (١٩٥)

ومن هذا كله نستطيع ان نخلص الى أن ما يحاول المستشرقون ومن خدع بهم ترويجه من استبعاد المعجزات الكونية من حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر مرفوض ، لانه يرمى الى غاية مشبوهة ويؤدى الى عواقب سيئة .

---

(١٩٥) من بحث بعنوان تحفظات على الكتابة العصرية للسيرة النبوية ـ أنور الجندى ـ العدد التذكارى للسيرة النبوية ص ٩٥٦

المعجزات لاتجافى العقل

إن الشبهة التى انساق وراءها بعض الباحثين وتوقفوا من أجلها فى المعجزات المادية ، أن هذه المعجزات لاتساير العقل... وقد تكفل الشيخ الشعراوى بالرد على ذلك فقال : « إننا قد اتهمنا بأن ديننا لايتمشى مع العقل ، اتهمنا هذه التهمة من المستشرقين ولكن المستشرقين حين يلقون هذه التهمة يريدون ان يدخلوا منها الى مدخل خطير يهدمون به الاسلام . فقام قوم من الغيورين على الاسلام ، وقالوا : الاسلام فى كل قضاياه متمش مع العقل ، فجاءوا إلى كل ما يتصل بالغيب الذى يقف فيه العقل وحاولوا تأويله تأويلا يرضى العقل ، حتى يدفعوا التهمة عن الدين بأنه لايتمشى مع العقل ، وعلى رأسهم علماء كبار ومدارس عقلانية لها مذاهب شتى . . فجاءوا مثلا فى حادثة « الطير الابابيل » التى أهلكت فيل إبرهة ، وكانت معاصرة لميلاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعجزة صاحبت مولده فقالوا : ان الطير الابابيل التى ترميهم بحجارة من سجيل هى الميكروبات ، ميكروبات أرسلها الله على الجيش.لماذا فعلوا ذلك ؟ لقد قالوا ذلك ليقربوا المسألة الى أذهان الناس حتى لايتهم أحد الاسلام بانه يأتى بأشياء لاتطابق العقل .

ونحن نقول لهم : انتم مشكورون على غيرتكم على الاسلام وذلك بمحاولتكم إدخال بعض قضايا الغيب فى الإسلام إلى مرتبة العقل ولكن الأديان لاتناقش هذه المناقشة .

لأن الدين إنما يناقش بالعقل فى قمته الأساسية ، وهى قمة الإيمان بالله .

ادخل على الايمان بالله بعقلك ، أنت حر فى أن تؤمن أو لاتؤمن . ولكن اذا آمنت بعقلك وفرغت من هذه القضية ، فتقبل بعد ذلك عن الله كل ما يقول ، ولاتدخل عقلك فى كل جزئية مما يقول .

وإذن فاحتراما لعقلك مادمت قد آمنت بالله يجب أن يكون عمل عقلك هو توثيق النقل عن الله . أقال الله ذلك أم لم يقل ؟

فإذا ثبت أنه قال ، وجب الايمان بذلك مهما كان هذا الامر بعيدا عن العقل . . فثبوت القول عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معناه أن الايمان بهذا القول أصبح أمرا واجبا ويقينيا مهما كان موقف العقل من هذا القول .

فإذا كان العقلانيون يريدون أن يفسروا الطير الأبابيل بانها ميكروب أو طير تحمل حجارة فيها ميكروب نقول لهم : ان هناك قوما كان من الممكن أن يكذبوا القرآن فى إخباره عن هذه القصة ، لأنهم عاصروها ورأوها رأى العين . . فلماذا لم يكذبوا إن لم تكن قد حدثت فعلا كما أخبر بها القرآن ؟

ونقول لهم : ماذلك الطير العاقل وماذلك الميكروب الموجه الذى لايوجه إلا الى اعداء الكعبة فقط .

مع أن الميكروب لا يفرق بين عدو وصديق ؟

فالمعجزة واضحة لاتجافى العقل . فما دام العقل قد اقتنع بالإيمان ، وعرف قدرة الله فعليه أن يسلم بالخوارق التى تحدثها القدرة الإلهية تأييداً لنبيه ورسوله .

المعجزات أمور خارقة لاتخضع لناموس الكون ولالقانون الوجود . ولكنها تخضع لرب الوجود ، وهناك فرق بين قانون الخالق وقانون المخلوق .

فالإنسان يمكن ان يطلق القانون أو لا يطلقه ، ولكنه اذا اطلقه لايستطيع ان يتحكم فيه بعد اطلاقه . كالانسان الذى يجيد تصويب الهدف . فإن له ان يصوب ويطلق وله أن يمتنع عن ذلك . ولكنه اذا أطلق الرصاصة لايملك ان يردها او يتحكم فيها . . اما الحق سبحانه وتعالى ، فإنه يطلق ويتحكم . وهو من أجل ذلك قال للنار

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١٩٦)

الذين يقولون إن المعجزة الوحيدة للرسول ﷺ هى القرآن الكريم

إن هؤلاء الباحثيين يقولون ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ امتاز بأن أعطاه الله معجزة باقية هى القرآن الكريم على عكس الانبياء السابقين الذين أيدوا بمعجزات مادية انتهت بانتهاء حياتهم ـ وهذا القول صحيح لاشك فيه ـ ولكنه لايعنى على الاطلاق ان الحق سبحانه وتعالى ـ لم يعط رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزات كونية لقد ميزه الله عز وجل على غيره من الانبياء بان جمع له بين فضلين : فضل المعجزة الباقية . وهى القرآن ، وفضل المعجزات الكونية التى كانت له فى حياته .

بل إن الله ـ جعل القرآن الكريم ـ هو الشاهد الوحيد على معجزات الانبياء السابقين ، لانه هو الذى حدثنا عن ناقة صالح ، وطوفان نوح ، ونار إبراهيم ، وإلانة الحديد لداود وتسخير الريح لسليمان وقلب عصا موسى

---

(١٩٦) معجزات كونية صاحبت مولد الرسول ـ للشيخ الشعراوى ص ١٥

حية ، واحياء عيسى الموتى بإذن الله .. وغير ذلك من المعجزات التى حدثت للرسل السابقين .

وقد آمن المسلمون بهذه المعجزات التى حدثت للانبياء السابقين ، بناء على اخبار القرآن بها . فإيمان المسلمين بها هو إيمان بالغيب الذى أمروا بالايمان به . . . ولكن المعاصرين لهؤلاء الأنبياء آمنوا بأنبيائهم حين شاهدوا هذه المعجزات . فهو إيمان حس ومشاهدة .

ولكن هل معنى ذلك ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرم من معجزات كونية رأها المعاصرون له وشهدوا له بأنه الرسول الحق ؟

كلا إن الله سبحانه وتعالى ـ أعطى رسوله ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزات كونية كما أعطى غيره من الرسل السابقين فهذه المعجزات الكونية تسوية له باخوانه الرسل ومجىء القرآن هو زيادة مكانة له ، ورفع منزلة على غيره . . . لقد كان الهدف منها ، فى حينها تثبيت من رآها على الاسلام . حيث كانوا فى بداية الاسلام ، وهم فى حاجة الى مزيد من اليقين والاطمئنان ، ، فإلى جانب القرآن كانت هناك معجزات مادية ، وقد أخبر القرآن الكريم بها ، كانشقاق القمر ، ونزول الملائكة للقتال معه ونصرته . . وغير ذلك مما لم يخبر عنه القرآن ، ولكن جاءت به الأخبار الصحيحة الموثقة عن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ

معجزات الهجرة

- قصة سراقة بن مالك .
- حديث أم معبد .
- انقياد الشجرة للرسول - صلى الله عليه وسلم .
- حنين الجذع .
- نبع الماء من بين أصابعه .
- إخباره بالمغيبات .
- الفرق بين المعجزة والكرامة .
- الدليل على وجود الكرامات .
- العلاء بن الحضرمي يمشي على الماء .
- الفرق بين الكرامة والاستدراج .
- بناء مسجد قباء .
- استقبال النبي في المدينة .

● **معجزات الهجرة :**

لقد أتم الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنعمة العقل الكبرى التى تجلت فى مقدرته على أن يسع أفكار الناس جميعا ويخاطبهم على قدر عقولهم ، ولكن العناية الإلهية لم تتخل عنه الى جانب ذلك فى أى لحظة من لحظات حياته ، وكان يدعو الله دائما الا يكله إلى نفسه طرفة عين أو أقل من ذلك .

وفى طريق الهجرة صاحبته هذه العناية فأمدته بخوارق كثيرة ، وقفت أمامها عقول الكفار من قريش ذاهلة مشدوهة ، وليس فى ذلك طعن فى مقدرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على التصرف السليم والتخطيط الذى أعده وسبقت الاشارة اليه .

ولا ينافى الاعجاز الذى أحاط بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هجرته كماله البشرى وقدرته العقلية وبراعته فى قياس الأمور ، وتقدير الاحوال والظروف ، بل الكمال أن يعطى الله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل ذلك ثم يعطيه الى جانب ذلك العناية التى تحبط كل كيد وتتحدى كل شر لايقع فى مقدور البشر توقعه أوصده .

ليس هناك غضاضة فى ان ترقب السماء خطوات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طريقه الى يثرب وان يؤيد بالمعجزات . . وقد بعثه الله بالحق ليوطد الدين الذى لايرضى الله من الناس بغيره . . فكان لابد ان يؤيد بالخوارق وبخاصته بين قوم لايريدون الاعتراف بغير الخوارق والمعجزات .

حقا إن القرآن الكريم هو معجزة الرسول الكبرى . . نزل به الروح الأمين ليرد الناس الى صوابهم ويطلب منهم ان يحكموا العقل فى دعوة

النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيؤمنوا بها لانها دعوة الفطرة ورسالة النور ، وطلب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوضح لهم أنه ليس إلا بشرا رسولا .

ولكن ذلك لايجافى ان يكون للرسول معجزاته الكونية التى تؤيد الحق الذى جاء به فهذه المعجزات فى أغلب الاحيان هى التى تبهر العقول وتذل الجبابرة وتكبح جماح المعارضين .

وقد تحدثنا عما قيل عن الاسراء والمعراج . . وهل الاسراء والمعراج الا معجزة كبرى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف أمامها العقل مشدوها عاجزا ؟

وانظر الى هذه الخوارق التى صاحبت الهجرة :

جاء فى سيرة ابن هشام : لما اجتمع المشركون وفيهم أبو جهل بن هشام ، فقال ـ وهم على باب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان تجرى من تحتها الأنهار . . وان لم تفعلوا كانت لكم الذلة فى الدنيا ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها ، وان مهمتكم اليوم أن تثبتوا لمحمد وأصحابه أنكم أعزة . . وقد وقف فتيان قريش لتنفيذ مهمتهم . . وخرج عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال : نعم أنا أقول ذلك .

فأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على

رءوسهم وهو يتلو الآيات من أول سورة يس ، حتى قوله تعالى - « فأغشيناهم فهم لايبصرون »

ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه ترابا .

ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم ، فقال : من تنتظرون ههنا ؟

قالوا : ننتظر محمدا

قال : خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ماترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته(١٩٧) .

لقد أعمى الله أبصارهم عنه ، وأذهل عقولهم ، حتى انهم لم يشعروا بما حدث لهم .. وتكرر ذلك مرة اخرى .. فقد ذكر الزرقانى فى شرحه على المواهب اللدنية انه حين خرج - صلى الله عليه وسلم - من خوخة فى بيت أبى بكر لقيه أبو جهل فأعمى الله بصره حتى مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحاجته(١٩٨) .

وحين ذهب الرسول وصاحبه الى الغار . أنبت الله على بابه شجرة تسمى الراءة(١٩٩) ، وهى أم غيلان، تكون مثل قامة الانسان لها خيطان من زهر أبيض ، فحجبت باب الغار عن أعين الكفار ، حتى إن الواقف لايرى ما بداخله .

---

(١٩٧) سيرة ابن هشام حـ ٢ صـ ٢٢٣

(١٩٨) شرح المواهب اللدنية حـ١ صـ ٣٢٩

(١٩٩) الراءة بالراء المهملة والمد والهمز - شجرة معروفة ببلاد الحجاز

جاء فى مسند البزار ، من حديث أبى مصعب المكى ، قال : أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يتحدثون أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما كان ليلة بات فى الغار أمر الله - تعالى - شجرة فنبتت فى وجه الغار . فسترت وجه النبى - صلى الله عليه وسلم -[200] وذكر البيهقى فى دلائل النبوة هذا الخبر بهذا الاسناد ، وذكر معه : أمر الله العنكبوت فنسجت خيوطها على وجه الغار فسترت النبى - صلى الله عليه وسلم - وأمر الله حمامتين فوقفتا بفم الغار[201] .

وأضاف البيهقى قائلا :

وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بحرابهم وسيوفهم ، حتى اذا كانوا من النبى - صلى الله عليه وسلم - بقدر أربعين ذراعا ، ذهب رجل منهم لينظر فى الغار فرأى حمامتين بفم الغار ، فرجع الى أصحابه فقالوا : مالك لم تنظر فى الغار ؟

فقال : رأيت حمامتين بفم الغار ، فعلمت أنه ليس فيه أحد .

فسمع النبى - صلى الله عليه وسلم - ما قال ، فعرف ان الله - عز وجل - قد درأ عنه بهما[202] .

خبر سراقة :

وحدث البيهقى فيما يرويه البراء قال :

---

(٢٠٠) شرح المواهب جـ ١ صـ ٣٣٠

(٢٠١) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢ صـ ٤٨١ ، وأضاف محقق الكتاب : وفى رواية عند قاسم بن ثابت بن حزم العوفى السرقسطى : سمع من النسائى ، وألف كتابا فى شرح الحديث سماه : الدلائل

(٢٠٢) أخرجه ابن سعد فى طبقاته جـ ١ صـ ٢٢٩ ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة وابن عساكر

اشترى أبو بكر من عازب ـ أبي البراء ـ رحلاً بثلاثة عشر درهما . فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لعازب ـ مر البراء فليحمله الى رحلى .

فقال له عازب : لاحتى تحدثنا كيف صنعت انت ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين خرجتما والمشركون يطلبونكما .

قال أبو بكر : أدلجنا من مكة ليلا فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا ، وقام قائم الظهيرة فرميت ببصرى هل أرى من ظل نأوى اليه ؟

فاذا صخرة فانتهيت اليها . فاذا بقية ظل لها فسويت المكان ، ثم فرشت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فروة ، ثم قلت : اضطجع يارسول الله ، فاضطجع ،

ثم ذهبت أنظر ماحولى هل أرى من القوم أحدا ؟ فاذا براعى غنم يسوق غنمه الى الصخرة يريد منها الذى نريد ـ يعنى الظل ـ فسألته فقلت : لمن أنت ياغلام ؟

قال : لرجل من قريش ـ سماه لى فعرفته ـ فقلت : هل فى غنمك لبن ؟

قال : نعم

قلت : هل انت حالب لى ؟

قال : نعم

فأمرته فاعتقل شاة من غنمه وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب ، ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فضرب احدى كفيه على الاخرى ثم حلب لى

كُثْبَةً[٢٠٣] من لبن ، فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوافقته وقد استيقظ .

فقلت : أتشرب يارسول الله ؟

فشرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى رضيت .

ثم قلت : قد آن الرحيل يارسول الله .

قال : فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له .

فقلت : هذا طالب لنا قد لحقنا يارسول الله .

قال : لاتحزن ، إن الله معنا .

فلما ان دنا منا ، وكان بيننا وبينه قدر رمحين أو ثلاثة . قلت : قد لحقنا يارسول الله ، وبكيت .

فقال : مايبكيك ؟

فقلت : أما والله ماعلى نفسى يارسول الله ولكنى أبكى خوفا عليك .

قل : فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : اللهم اكفنا بما شئت .

قال: فغاصت به فرسه فى الارض الى بطنها فوثب عنها . ثم قال : يامحمد قد علمت ان هذا عملك ، فادع الله ان ينجينى مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائى من القوم ، وهذه كنانتى فخذ منها سهما ، فانك

---

(٢٠٣) الكثبة : القليل الذى يجمع من طعام أولبن أو غيرها

ستمر بإبلى وغنمى بمكان كذا أو كذا ، فخذ منها حاجتك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاحاجة لنا فى إبلك وغنمك ، ودعا له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانطلق راجعا الى أصحابه ، ومضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلا(٢٠٤)

.هذا ماحدث به أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بما رأى من سراقة حين لحقهما ، ولكن سراقة يحدث ببدء قصته فى اللحوق بهما فيقول :

« إنه لما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة مهاجرا إلى المدينة جعلت قريش لمن يرده عليهم مائة ناقة .

قال : فبينما أنا جالس فى نادى قومى إذ جاء رجل منا فقال : والله لقد رأيت ركبا ثلاثة مروا علىّ آنفا ، إنى لأظنه محمدا .

قال : فأومأت إليه بعينى ، أن اسكت . وقلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم .

قال : لعله كذلك . . . ثم سكت .

قال : فمكثت قليلا ، ثم قمت فدخلت بيتى ، وأمرت بفرسى ، فقيد الى بطن الوادى ، وأخرجت سلاحى ، ثم أخذت قداحى استقسم(٢٠٥) بها . ثم لبست درعى .

---

(٢٠٤) دلائل النبوة حـ ٢ صـ ٤٨٣ ، ومسند أحمد حـ ١ صـ ٢ وأسد الغابة حـ ٣ صـ ٣١٥ ترجمة أبى بكر

(٢٠٥) هو مايسمى عند العرب بالاستقسام بالأزلام ، وكانت لهم أقداح أحدها مكتوب عليه نعم والآخر لا . فإذا خرج الذى عليه نعم أمضوا مايريدون ، وان خرج الذى عليه لا تركوا .

ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : أى الذى يمنعنى من المضى فى اثره . . وكنت أرجو أن أرده فآخذ المائة ناقة . .
قال : ولكنى لم أعبأ بذلك . . فركبت على اثره فبينا فرسى يسير بى عثر فسقطت عنه ، فأخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره ، لاتتبعه . . فابيت إلا أن اتبعه ، فركبت ، فلما بدا لى القوم فنظرت اليهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الارض فسقطت عنه ، فاستخرج يديه ، ثم رأيت دخانا مثل الغبار ، فعلمت أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر ، فناديتهم ، فقلت : انظرونى فوالله لاآذيتكم ، ولايأتيكم منى شىء تكوهونه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل له : ماذا تبغى ؟

قال سراقة : اكتب لى كتابا يكون بينى وبينك آية .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اكتب له يا أبا بكر .

قال : فكتب لى ، ثم ألقاه إلىّ ، فرجعت ، فسكت فلم اذكر شيئا مما كان ، حتى إذا فتح الله ـ عزل وجل ـ مكة وفرغ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل حنين خرجت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لألقاه ومعى الكتاب الذى كتب لى ، فبينما أنا عامد له دخلت بين ظهرى كتيبة من كتائب الأنصار .

قال : فطفقوا يقرعوننى بالرماح ، ويقولون : إليك ، إليك ، حتى دنوت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على ناقته . . فرفعت يدى بالكتاب ، فقلت : يا رسول الله ، هذا كتابك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يوم وفاء وبر . .

قال : فأسلمت ، ثم ذكرت شيئا أسأل عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ قال ابن شهاب : إنما سأله عن الضالة . .

قال سراقة : فما ذكرت شيئا إلا أنى قد قلت : يا رسول الله ، الضالة تغشى حياضىَ قد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر إن سقيتها ؟÷ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم ، فى كل كبد رطبة أجر (٢٠٦) .

ولهذا الحديث بقية ذكرها الزرقانى قال : ان النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال لسراقة حين هم باللحاق بهما : كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟

ثم لم تزل الأيام تدور حتى انتصر المسلمون على الفرس ، وأُتىَ عمر ـ رضى الله عنه ـ بسوارى كسرى وتاجه ومنطقته ، فدعا عمر سراقة ، فألبسه السوارين ، وقال : ارفع يديك وقل : الله أكبر ، الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما أعرابيا من بنى مدلج (٢٠٧) سراقة بن مالك .

والمشهور أن سراقة أسلم يوم حنين ، ولكنه كان له لقاء آخر مع النبى صلى الله عليه وسلم ـ قبل ذلك ، أشار اليه ابن كثير فى تفسيره ، وأورد الخبر الذى رواه سراقة فى ذلك .

قال : لما ظهر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل بدر وأحد ، وأسلم من حولهم (٢٠٨) قال سراقة : بلغنى أنه يريد ان يبعث خالد بن الوليد إلى

---

(٢٠٦) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٢ صـ ٤٨٧ ، وسيرة ابن هشام حـ ٢ صـ ١٠٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير حـ ٣ صـ ١٨٥

(٢٠٧) شرح المواهب اللدنية حـ ١ صـ ٣٤٨ ، وأسد الغابة حـ ٢ صـ ٣٣١

(٢٠٨) يبدو أن هذا كان بعد الحديبية بعد ان اسلم خالد ، وأقبل العرب على الاسلام

قومى بنى مدلج ، فأتيته فقلت : أنشدك النعمة ، فقالوا : صه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوه ، ما تريد ؟

قال : بلغنى انك تريد ان تبعث الى قومى ، وأنا أريد أن تصالحهم فان أسلم قومك أسلموا ودخلوا فى الاسلام وان لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم .

فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيد خالد بن الوليد وقال له : اذهب معه فافعل ما يريد ، فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وان أسلمت قريش أسلموا معهم . فنزل قوله تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ۝٩٠ ﴾ (٢٠٩)

ويهمنا فى هذا المقام أن سراقة بن مالك وَفَّى بما ضمنه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنه لن يحدث قريشا عن رؤيته للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين تبعه ، وأن يُخَذِّلَ عنه من يلقاه .

ولكنه لم يستطع ان يكتم طويلا ما انبهر به من جلال ، وما شاهده من إعجاز ، فحدث عما رأى ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بلغ غايته وأمن .

---

(٢٠٩) النساء ٩٠ ـ ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره حـ ٢ صـ ٣٢٦

ولما علم ذلك القول إلى أبي جهل ، فخشى أن يكون حديث سراقة سببا فى إسلام كثير من الناس ، فكتب إلى بنى مدلج يقول :

بنى مدلج إنى أخاف سفيهكم سراقة مستوف لنصر محمد
عليكم به ألا يفرق جمعكم فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

لقد أراد أبوجهل أن يغرى بنى مدلج بسراقة ، ويحثهم على الضرب على يده ، وكفه عن الاشادة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأجابه سراقة قائلا :

أباحكم واللات لوكنت شاهدا لأمر جوادى إذ تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً نبى ببرهان فمن ذا يقاومه ؟
عليك بكف الناس عنه فإننى أرى أمره يوما ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم لو أن جميع الناس طرا تسالمه [٢١٠]

حديث أم معبد

ومن الأحاديث التى تدل على آية الاعجاز فى الهجرة مرور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أم معبد الخزاعية . وهى عاتكة بنت خالد بن خُليد من بنى خزاعة . وكانت امرأة بَرْزَة جلدة ، والبرزة من النساء المسنة التى برزت لسنها وخرجت عن حد المحجوبات .

وقد مر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليها فى خيمتها ، وكانت مشهورة بأنها تطعم وتسقى من يمر عليها . ولكنها كانت فى ذلك الوقت فى سَنَة قحط وجهد كان القوم مرملين مسنتين ، فطلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو

(٢١٠) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢ صـ ٤٨٩ ـ اسد الغابة جـ ٢ صـ ٣٣١ وتصويب البيت الأخير من الروض الألف جـ ٢ صـ ٢٣٣

ومن معه لبنا أو لحما أو تمرا يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئا .

وقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى .

فنظر النبى - صلى الله عليه وسلم - الى شاة فى كِسْر - جانب - الخيمة ، خَلَّفها الجهد والهزال عن الغنم .

فسألها النبى - صلى الله عليه وسلم - هل بها من لبن ؟

فقال أم معبد : هى أجهد من ذلك .

فقال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

فقالت : نعم بأبى أنت وأمى ، ان رأيت بها حلبا فاحلبها .

فدعا بالشاة ، فاعتقلها ، ومسح ضرعها ، وسمى الله - تعالى - ودعا لها ، فدرت ودعا باناء يربض - أي يشبع - الرهط . فحلب فيه ثجاً - حلبا قويا - وسقى القوم حتى رووا ثم شرب آخرهم ، وقال فى ذلك أثره المشهور : « ساقى القوم آخرهم شربا »

ثم حلب فى الاناء مرة اخرى فشربوا عَللاً بعد نهل - أى شربا ثانيا بعد الأول .

ثم حلب مرة ثالثة وغادره عندها ، وفى رواية قال : ارفعى هذا لأبى معبد اذا جاءك .

ثم ركبوا وذهبوا ، فما لبث ان جاء أبو معبد زوجها ، واسمه أكثم بن أبى الجون وأبوالجون اسمه عبدالعزى . .

جاء أبومعبد وهو يسوق أعنزا عجافا ، فلما رأى اللبن عجب ، وقال : ما هذا يا أم معبد ؟ أنَّى لك هذا ولا حلوبة فى البيت ؟

فقالت : لا والله إلا أن مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا .

فقال : صفيه يا أم معبد .

فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، مليح الوجه ، حسن الخلق . . الى آخر الصفات التى وصفت بها النبى - صلى ا لله عليه وسلم - وقد سبق أن ذكرناها عند حديثنا عن أوصاف النبى - صلى الله عليه وسلم - الخِلْقِـيَّة فقال أبومعبد : هذا والله صاحب قريش ، لو رأيته لاتبعته ولأجتهدن أن أفعل .

ويقال : إن أبا معبد خرج فى أثرهم فأدركهم ببطن ريم فبايعه بعد أن أسلم وانصرف ، وقيل : هاجرت أم معبد وزوجها ، وأسلم أخوها حُبَيْش واستشهد يوم الفتح ، وكان أهلها يؤرخون بنزول الرجل المبارك عندهم . .

قال السهيلى : وبارك الله فى شاة أم معبد حتى كانت تكفيها وتكفى أهلها من لبنها [٢١١]

وروت أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنها - قالت : لما خرج أبى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتانا نفر من قريش ، فيهم أبوجهل بن هشام ، فخرجت اليهم ، فقال : أين أبوك يا أبنة ابى بكر ؟

فقلت : لا أدرى

قالت : فرفع أبوجهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدى لطمة خرج منها قرطى ، ثم انصرفوا ، وتفرقوا فى كل اتجاه يبحثون عنهما ، ولكن الله أعمى بصيرهم فلم يستطيعوا الاهتداء الى مكانه .

---

(٢١١) الروض الألف حـ ٢ صـ ٢٣٦

وفى نزول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أم معبد ـ قال القائل :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا [٢١٢] خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى مازوى الله عنكم به من فَعال لا تجازى وسؤدد
لِيَهْنِ بنى كعب مقام فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فانكم ان تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فَتَحلَّبَتْ له بصريح ضرة الشاة مُزْبد
فغادرها رهنا لديها لحالب يرددها فى مصدر ثم مورد

ولما سمع حسان بن ثابت الشاعر بهذه الأبيات بعد إسلامه قال :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقُدِّسَ من يسرى اليه ويغتدى
ترحَّل عن قوم فضلَّت عقولُهم وحلَّ على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربُهم وأرشدهم ، من يَتْبَعِ الحقَّ يرشُد
وهل يستوى ضلال قومٍ تسفهوا عمىً وهداةٌ يهتدون بمهتد
وقد نزلت منه على أهل يثرب ركابُ هدىً حلَّت عليهم بأسعد
نبى يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله فى كل مشهد
وان قال فى يوم مقالة غائب فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى الغد
ليهن أبابكر سعادة جَدِّه بصحبته من يُسعِد الله يَسعد [٢١٣]

ولم يتخلف الشعر الحديث عن تسجيل هذا المشهد الرائع الذى يدل على تأييد الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال احمد محرم شاعر العروبة والاسلام فى ذلك :

---

(٢١٢) قالا : أى نزلا وقت القيلولة وهى بهذا اللفظ فى الروض الألف

(٢١٣) المواهب اللدنيه للقسطلا فى جـ١ صـ٤٤٣

ما حديث لأم معبد تستسقيه ظمأى النفوس عذبا غيرا
سائل الشاة كيف درت وكانت كزة الضرع لا ترجى الدرورا ؟
بركات السمح المزمل يقرى أمم الأرض زائرا أو مزورا
فظهر الحق للنبوة سبحانك ربأ فرد الجلال قديرا [٢١٤]

العبد الذى أسلم

وهناك من الأخبار التى تدل على الاعجاز فى حادث الهجرة ، ما يقصه البيهقى أيضا فى هذا الخبر :

عن قيس بن النعمان قال : لما انطلق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبوبكر مستخفين مروا بعبد يرعى غنما ، فاستسقاه اللبن ، فقال : ما عندى شاة تحلب . غير ان هناك عناقا حملت أول الشتاء ، وقد أخرجت وما بقى لها لبن .

فقال : ادع بها .

فاعتقلها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومسح ضرعها ودعا حتى حلبت .

قال : وجاء أبوبكر بِمِجَنٍّ ، فحلب وسقى أبابكر ، ثم حلب فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب ، فقال الراعى : بالله من أنت ؟؟ فوالله ما رأيت مثلك قط .

قال : أو تراك تكتم علىَّ حتى أخبرك ؟

قال : نعم .

---

(٢١٤) ديوان مجد الاسلام لأحمد محرم

قال : فانى محمد رسول الله .

فقال : أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء ؟

قال : إنهم ليقولون ذلك .

قال : فأشهد انك نبى ، واشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى ، وأنا متبعك .

قال : انك لن تستطيع ذلك الآن ، فاذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا [٢١٥]

هذه بعض آيات صحبت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى رحلته أكدت ان الله سبحانه ، كان يحرسه ويرعاه ويشد أزره ، حتى تبدد ما بخاطره من تعب ، وهان ما كان يلقاه من نصب . حتى وصل إلى المدينة سالما آمنا منصورا باذن الله . .

ومما يتوج هذه الأخبار أن الله لم يشأ أن يدخل نبيه - صلى الله عليه وسلم - المدينة إلا فى موكب عظيم وفوقه لواء .

فقد ذكر الزرقانى فى المواهب اللدنية قال :

ومما وقع لهم فى الطريق أنه - صلى الله عليه وسلم - لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثيابا بيضا [٢١٦]

وكذا لقيهما طلحة بن عبيد الله وكساهما .

وأخرج البيهقى عن بريدة بن الحصيب قال : لما جعلت قريش مائة من

---

(٢١٥) دلائل النبوة حـ ٢ صـ ٤٩٧ - وفى البداية والنهاية لابن كثير حـ ٣ صـ ١٩٤

(٢١٦) رواه البخارى عن عروة مرسلا ووصله الحاكم عن عروة عن أبيه الزبير

الابل لمن يرد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حملق الطمع ، فركبت في نفر من بني سهم ، فلقيته .

فقال : من انت ؟

قلت : بريدة

فالتفت ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى أبي بكر وقال : برد أمرنا وصلح .

قال النبي : ممن انت ؟

قلت : من أسلم .

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سلمنا

ثم قال : ممن ؟

قلت : من بني سهم .

قال : خرج سهمك يا أبا بكر .

فقال بريدة : للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنت ؟

قال : أنا محمد بن عبد الله رسول الله .

فقال بريدة : أشهد ان لا إله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعا .

فقل بريدة : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين .

فلما أصبح قال بريدة : يارسول الله لاتدخل المدينة الا ومعك لواء .

فحمل عمامته ثم شدها في رمح ، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة(٢١٨) .

---

(٢١٧) رواه ابن أبي شيبة وغيره

(٢١٨) شرح المواهب اللدنية حـ١ صـ٣٤٩

فانظر كيف خرج بريدة طامعا فى المكافأة التى رصدتها قريش ، فاذا به يسلم ويصبح عونا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم . وقد جاء فى أسد الغابة فى ترجمة بريد انه أسلم حين مر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاجرا هو ومن معه ، وقد صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العشاء الآخرة فصلوا خلفه ، وأقام بأرض قومه ، ثم قدم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أحد فشهد معه بقية المشاهد«٢١٩» .

● معجزات أخرى :

هذه هى المعجزات التى صاحبت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هجرته وهناك معجزات تفوق الحصر كانت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياته ، وقد اعتنى بذكرها واحصائها وجمعها الرواة فى مختلف كتبهم .

والمعجزة التى قصد بها التحدى للكفر هى القرآن الكريم ، أما المعجزات الكونية الأخرى فلم يقصد بها التحدى . .ذاك ان العقل البشرى فى حاجة الى مايغذيه ويرشده لا الى مايبهره ويخالف عاداته . فما اكثر الخوارق فى هذا الزمان ولا شك أن المعجزات الكونية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان غرضها الأصل تأييد معجزة القرآن الكريم وتكريم الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولقد استجاب الله لقريش مرة واحدة فيما طلبوه من معجزات كونية ، وهى معجزة انشقاق القمر ، ولما لم يؤمنوا بها مع ضخامتها لم يستجب لهم فيما طلبوه بعدها لعدم الفائدة فى الاستجابة لقوم مستكبرين معاندين

---

(٢١٩) أسد الغابة حـ ١ صـ ٢٠٩

لايريدون الهدى ، وقد سبقت الاشارة الى هذه المعجزة الخارقة التي قال الله فيها :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ ﴾ (٢٢٠)

وجاء الإخبار عنها في السنة الصحيحة ، فقد روى أبو نعيم بسنده . والبخاري في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال : لما اجتمع جمع من المشركين الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم الوليد بن المغيرة ، وابو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والنضر بن الحارث ونظراؤهم ، فقالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كنت صادقا فجئنا بمعجزة ، فسأل النبى ربه فانشق له القمر . . ورأى ذلك كثير من الناس فى مكة وغيرها من الحواضر والبوادى .

● انقياد الشجر له :

ومن ذلك مارواه مسلم من حديث جابر قال : سرنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلنا واديا ، وأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقضى حاجته فذهب بعيدا فاتبعته باداوة من ماء(٢٢١) فنظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ير شيئا يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطىء الوادى فدعاهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاقبلتا إليه ثم أخذ

---

(٢٢٠) القمر ١ : ٦

(٢٢١) إناء من جلد يوضع فيه الماء

بأغصنتهما ولاءم بينهما ثم قل : التئما عليّ بإذن الله فالتأمتا .

قال جابر : فجلست أحدث نفسي ، فحانت مني لفتة ، فاذا أنا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقبلا ، واذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق[٢٢٢] .

● حنين الجذع :

وهذا الخبر متواتر ، وقد شهد برؤيته الملأ من المسلمين ، وبيانه : أن مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - كان مسقوفا على جذوع النخل ، فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - اذا خطب يقوم الى جذع منها .. ثم بعد ذلك صنع له منبر له ثلاث درجات ، لكي يسمع الناس خطبته لما كثروا .

فلما قعد النبي - صلى الله عليه وسلم - على المنبر خار الجذع حتى تصدع وانشق ، وقد تعددت رواية ما حدث . وتصوير خواره ، فمنهم من صوره بأنين الصبي ، ومنهم من صوره بصوت الناقة ، ومنهم من صوره بصوت حنين الناقة التي انتزع منها ولدها .

وكان ذلك من الجذع حزنا على فراق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وانتقاله الى المنبر الجديد ، وقد اجمعت الروايات على أن المسجد ارتج لأنين الجذع ، وتأثر المصلون وأنه لم يسكت حتى نزل اليه - صلى الله عليه وسلم - ولمسه . . . ويقول القاضي عياض : حديث حنين الجذع منتشر والخبر به

---

(٢٢٢) من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم - عبد العزيز محمد السلمان صـ ٤

متواتر ، وقال الامام الشافعى ما أعطى الله نبينا ما أعطى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقيل له : أعطى عيسى إحياء الموتى .

فقال : أعطى محمدا حنين الجذع حتى سمع صوته . فهى أكبر من ذلك .

وقال أبو القاسم البغوى : كان الحسن ـ البصرى ـ اذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال : ياعباد الله ، الخشبة تحن الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شوقا اليه لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه .

● نبع الماء من بين أصابعه :

روى عن أنس فى الصحيحين قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحانت صلاة العصر ، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوا ماء فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإناء فيه قليل من الماء ، فوضع يده فى ذلك الاناء ، فأمر الناس أن يتوضأوا منه ، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم .

قيل لأنس : كم كنتم ؟

قال : كنا ثلثمائة .

وفى الصحيحين أيضا وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : عطش الناس يوم الحديبية وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين يديه ركوة توضأ منها ، وفزع الناس نحوه فقال : مالكم ؟

فقالوا : يارسول الله ماعندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما ين يديك فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا .

فقال رواية لجابر : كم كنتم ؟

قال جابر : لو كنا مائة الف لكفانا . . كنا خمس عشرة مائة .

والركوة إناء صغير من الجلد يشرب فيه .

لقد تعددت حادثة نبع الماء من بين اصابعه - صلى الله عليه وسلم - وتكررت مرات كثيرة وفى مواطن عدة - كما يقول القرطبى ، وقد وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعى المستفاد من التواتر ، ولم يسمع عن غير نبينا - صلى الله عليه وسلم - حيث نبع الماء من بين عصبه ولحمه ودمه .

وقال المزنى : نبع الماء من بين اصابع النبى - صلى الله عليه وسلم - أبلغ فى المعجزة من نبع الماء من الحجر ، حيث ضربه موسى - عليه السلام - بالعصا فانفجرت منه المياه لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروجه من بين اللحم والدم .

● تفجير الماء وتكثيره :

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن معاذ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : « إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى .

قال : فجئناها ، وقد سبق إليها رجلان ، والعين تبض - اى تسيل قليلا قليلا - بشىء من الماء .

فسألهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم هل مسستما من مائها شيئا ؟

قالا : نعم .

فقال لهما : ماشاء أن يقول .

ثم غرفوا من العين قليلا قليلا ، حتى اجتمع فى شيء .

ثم غسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ به وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير ، فاستقى الناس .

ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ يامعاذ ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ماهنا قد ملىء جنانا ـ اى بساتين .

وفى البخارى من حديث المسور بن مخرمة انهم نزلوا بأقصى الحديبية على ثمد ـ بئر قليلة الماء يتربضه [٢٢٣] تربضا ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكا الناس الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العطش فانتزع سهما من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ،فو الله مازال يجيش [٢٢٤] لهم بالرى حتى صدروا عنه .

والاخبار فى ذلك مستفيضة .

وتكثير الطعام مستفضين كذلك فى أخباره ، ومن ذلك مارواه البخارى ومسلم بسندهما عن أنس قال : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء

---

(٢٢٣) يتربضه : يأخذونه قليلا قليلا

(٢٢٤) يجيش : يفور

فقالت : نعم فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارا فلفت الخبز به ثم أرسلت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد ومعه الناس .

قال الرجل الذى أرسلته : فسلمت عليه ، فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : أرسلك أبو طلحة ؟

قلت : نعم

قال : بطعام

قلت : نعم :

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوموا ـ فانطلق وانطلقت بين أيديهم ، حتى أتيت أبا طلحة فأخبرته .

فقل أبو طلحة : يا أم سليم ، قد جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاقبل وأبو طلحة معه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هلمى يا أم سليم ماعندك ؟ فأتت بذلك الخبز . فأمر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَفُتَّ ، ثم وضعت أم سليم عليه بعض السمن ، فأدمته ، ثم قال : ائذن لعشرة ثم لعشرة ، فأكل القوم كلهم وشبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا .

وفى رواية مسلم : ثم أكل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل البيت وتركوا سؤرا وفى رواية البخارى : فجعلت أنظر هل نقص منها شيء[٢٢٥] .

---

(٢٢٥) هذه الأخبار ذكرها الشيخ مصطفى الطير فى بحثه آيات النبوة المحمدية فى مؤتمر السيرة الرابع العدد التذكارى ص ٢٤٠

● إخباره بالمغيبات :

وقد وردت فى ذلك أخبار كثيرة منها قصة عمير بن وهب الجمحى ، وذلك أنه كان مع صفوان بن أمية يعد مصاب أهل بدر . وكان عمير شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر .

فذكر عمير أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله ما فى العيش بعدهم خير .

قال عمير : صدقت والله . . . أما والله لولادين علىّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت الى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة ، ابنى أسير فى أيديهم .

فاغتنمها صفوان فرصة وقال : علىّ دينك أنا أقضية عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم وأقوم على رعايتهم ، وكل حق لعيالى فهو لهم .

فقال عمير : فاكتم شأنى وشأنك .

قال : أفعل .

ثم انطلق حتى قدم المدينة . فبينما عمر مع نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ راحلته على باب المسجد . متوشحا السيف . فقال : عمر هذا الكلب عدو الله ، والله ماجاء إلا لشر .

ثم دخل عمر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يانبى الله هذ عدو الله عمير بن وهب ، قد جاء متوشحا سيفه .

قال : فأدخله علىّ .

فأتى عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها .

وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رآه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ارسله ياعمر . فدنا عمير .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماجاء بك ياعمير ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم ، فأحسنوا فيه ـ يعنى ولده ـ

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال : قبحُها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟

قال : اصدقنى ما الذى جاء بك ؟

قل : ما جئت الا لذلك .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما قتلى بدر من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل لك صفوان دينك وعيالك على أن تقتلنى والله حائل بينك وبين ذلك .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول نكذبك بما كنت تأتينا من خبر السماء . ومايتزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للاسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقهوا أخاكم فى دينه وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره . ففعلوا[٢٢٦] .

فقال عمير : يارسول الله كنت جاهدا ما استطعت على إطفاء نور الله ، والحمد لله الذى هدانى وأنقذنى من الهلكة ، فائذن لى يارسول الله ان الحق بقريش فأدعوهم إلى الله ـ تعالى ـ والى الاسلام لعل الله أن يهديهم ، ويستنقذهم من الهلكة .

فأذن له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلحق بمكة .

وكان صفوان بن أمية يقول لقريش : أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر ، وجعل يسأل من قدم من المدينة هل كان بها من حدث ؟

حتى قدم عليه رجل فأخبره أن عميرا أسلم ، فلعنه المشركون ، وقالوا : صبأعمير وحلف صفوان لاينفعه بشىء أبدا ، ولايكلمه كلمة أبدا ، فقدم عليهم عمير ، فدعاهم الى الاسلام ، فأسلم بشر كثير[٢٢٧]

وقد سقنا هذا الخبر بتمامة للفائدة وقد رأينا منه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت تتفتح أمامه ـ بإذن الله ـ حجب الغيب فيعلن ماتكنه الصدور ، وهذا شىء ، أكبر من الذكاء والفراسة .

إن الامثلة على ذلك كثيرة يضيق المقام عن ذكرها ، ومن أراد تقصيها فليرجع الى أماكنها فى كتب السيرة والسنن والتاريخ .

---

(٢٢٦) من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ـ عبد العزيز محمد السلمان صـ ٩
(٢٢٧) أسد الغابة حـ ٤ صـ ٣٣٠

وما ذكرناه هنا إنما هو للاستدلال على ان هناك معجزات كونية فى حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهذه المعجزات سايرته منذ ولادته حتى التحاقه بالرفيق الاعلى .

إذن فقد اطمأنت قلوبنا الى أن هناك معجزات كونية فى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلينا بعد ذلك أن نشير إلى الفرق بين المعجزة وغيرها من الخوارق التى يشاهدها الناس فى الحياة .

● **أنواع الخوارق :**

والخوارق التى تجرى فى الحياة تتنوع بين المعجزة والكرامة والمعونة والاستدراج والسحر والشعوذة .

أما المعجزة :- فقد سبق بيانها وهى أمر خارق للعادة قصد به إظهار صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به من عند ربه . . كانفجار الماء من بين أصابع النبى - وعدم إحراق النار لأبراهيم . . وغيرها وعادة تكون من جنس مابرع فيه قوم ذلك النبى لتكون أبلغ فى التحدى . . ولما كان قوم النبى - صلى الله عليه وسلم - بارعين فى صناعة الكلام فقد كانت المعجزة المتحدية لهم هى القرآن الكريم . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك فى عدد خاص . . كما كانت له - صلى الله عليه وسلم - معجزات أخرى كونية أشرنا الى بعضها فى صدد هذا الحديث.

● **الكرامة :**

والكرامة أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح غير مقرون بدعوى النبوة .

وهذا هو الذى يوضح الفرق بين المعجزة والكرامة .

قال الإمام أبو إسحاق الاسفراييني : المعجزات دلالات صدق الأنبياء . . . . . ودليل النبوة لايوجد مع غير النبى ، كما أن العقل المحكم لما كان دليلا للعالم فى كونه عالما لم يوجد إلا ممن يكون عالما ، والأولياء لهم كرامات مثل إجابة الدعاء مثلا . . . . وأما جنس ما هو معجزة فلا يكون إلا للأنبياء فقط . . ويقول بعض الائمة العلماء فى الفرق بين المعجزة والكرامة : إن الانبياء مأمورون باظهار الأمر الخارق ـ وهو المعجزة ـ أما الأولياء فمأمورون بستر الامور الخارقة وهى الكرامات ، ولاينبغى لهم القطع بهذه الكرامات لجواز أن تكون اختبارا واستدراجا .

وقال أبو بكر الأشعرى : إن المعجزات تختص بالانبياء والكرامات تكون للأولياء كما تكون للانبياء أيضا ، والاولياء لاتكون لهم معجزات لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها . والمعجزة لم تكن معجزة لعينها ، إنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف وشروط متى اختل شرط منها لاتكون معجزة وأحد تلك الشرائط ان يكون من تظهر على يديه نبيا والولى لايدعى النبوة .

والكرامة تحصل على يديه تخصيصا له وتفضيلا وقد تحصل بطلبه ودعائه وقد لاتحصل ، وقد تكون بغير اختياره فى بعض الأوقات [٢٢٨] .

---

(٢٢٨) الرسالة القشيرية لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى صـ ١٧٤

● انواع الكرامات :

ثم إن هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة وقد تكون بركة فى طعام فى زمن فاقة من غير سبب ظاهر ، أو نزول ماء فى زمان عطش ؛ أو تسهيل قطع مسافة فى مدة وجيزة ، او تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف أو شفاء مريض تحيَّر فى أمره الأطباء - أو غير ذلك من الأفعال الناقضة للعادة .

وظهور هذه الكرامة لمن ظهرت على يده لايقتضى عصمته لأن الولى لايكون معصوما كالنبى ، والعصمة من خصائص الانبياء عليهم السلام .

● الدليل على وجود الكرامات :

قال - تعالى - فى حق الأولياء .

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (٢٢٩)

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى عظم منزلة الأولياء عند الله ، وأن الله جعل لهم البشرى التى بمقتضاها لهم مايشاءون عند ربهم .

وقد ورد فى القرآن الكريم مايشير الى حدوث خوارق لبعض الأولياء ففى حق مريم قال الله تعالى .

---

(٢٢٩) يونس ٦٢ : ٦٤

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ ﴾ (٢٣٠)

وقال :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧ ﴾ (٢٣١)

وفي حق أهل الكهف قال تعالى :

﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ ﴾ (٢٣٢)

---

(٢٣٠) مريم ٢٥ ، ٢٦

(٢٣١) آل عمران ٣٧

(٢٣٢) الكهف ١٦ ، ١٧

فهذه أدلة وردت فى القرآن الكريم . وهناك أدلة أخرى وردت فى الأخبار الصحيحة .

قصة جريج العابد

ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وصبى فى زمن جريج الناسك ، وصبى آخر . أما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان رجلا عابدا من بنى إسرائيل ، وكانت له أم ، فبينما كان يوما يصلى إذ اشتاقت إليه أمه ، فأرسلت إليه ، فقال : يارب الصلاة خير أم رؤيتها ؟ ثم صلى ، فدعته ، ثانيا ، فقال مثل ذلك ، حتى قال ثلاث مرات وكان يصلى ويدعها ، فاشتد ذلك على أمه فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسات ، فتسلطت عليه امرأة فاتنة زانية ، وقالت : أنا أفتن جريجا حتى يزنى ، فأتته فلم تقدر على شىء ، وكان هناك راع يأوى بالليل الى أصل صومعة جريج ، فلما يئست المرأة من جريج راودت الراعى عن نفسها ، فأتاها فولدت ثم قالت : ولدى هذا من جريج ، فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه . فصلى ودعا ، ثم لمس الغلام بيده . . ثم قال : يا غلام ، من أبوك ؟ فقال : الراعى .

فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا إليه ، وقالوا له : نبنى صومعتك من ذهب أو فضة ، فأبى عليهم ، وبناها كما كانت .

وأما الصبى الآخر الذى تكلم فى المهد . . فقد ذكر أن امرأة كان معها صبى لها ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة فقالت : اللهم اجعل ابنى مثل هذا . فقال الصبى : اللهم لا تجعلنى مثله . ثم مرت بها امرأة .

زعموا أنها سرقت وزنت وعوقبت ، فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه . فقال الصبى : اللهم اجعلنى مثلها .

فقالت له أمه فى ذلك : فقال : ان الشاب كان جبارا من الجبابرة فكرهت أن أكزن مثله ، وإن هذه المرأة التى قيل إنها زنت ، فهى لم تزن ، وقيل إنها سرقت ولم تسرق ، وهى تقول : حسبى الله .

خبر الغار

ومن الأدلة على الكرامة التى تظهر فى إجابة دعوة الولى - حديث الغار المشهور فى الصحاح والذى رواه الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فآواهم المبيت الى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار ، فقالوا : والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا ان تدعو الله بصالح أعمالكم ،

فقال رجل منهم : كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبُق (٢٣٣) قبلهما ، فناما فى ظل شجرة يوما فلم أبرح عنهما ، وحلبت لهما غبوقهما ، فجئتهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وكرهت ان أشرب قبلهما .

فقمت والقدح فى يدى أنتظر استيقاظهما حتى ظهر الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما - اللهم ان كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة .

---

(٢٣٣) الغبوق : الشرب بالعشى من باب نصر

فانفرجت انفراجا لا يستطيعون الخروج منه .

ثم قال الآخر : كانت لى ابنة عم ، وكانت أحبَّ الناس إلىَّ ، فراودتها عن نفسها فامتنعت ، حتى ألمت بها سَنَة من السنين . . أى شدة وقحط - فجاءتنى فطلبت منها أن أعطيها مالا عظيما على أن تخلى بينى وبين نفسها ، فلما قدرت عليها قالت : لا يجوز لك أن تفض الخاتم إلا بحقه .

فتراجعت عن ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها .

اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه فانفرجت الصخرة بعض الشىء غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال الثالث :

اللهم انى استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجرته حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد زمن طويل ، وقال : يا عبدالله أعطنى أجرتى التى كانت لى عندك . . فقلت له : كلُّ ما ترى من الغنم هو أجرتك .

فقال : يا عبدالله ، أتستهزىء بى ؟

فقلت : انى لا استهزىء بك .

فأخذ ذلك كله

اللهم ان كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون .

كرامات أصحاب رسول الله

وهناك أخبار كثيرة صحيحة تثبت وجود الكرامة حدثت على يد أصحاب

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذكر طرفا منها للاستئناس به والعظة والاعتبار رجاء ان يرزقنا الله حسن الاقتداء .

فمن الكرامات التي جرت على يد الصديق ـ رضى الله عنه ـ ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : ان أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ كان قد نحلها (٢٣٤) جداد عشرين وسقا من ماله ، فلما حضرته الوفاة قال : والله يا بُنَيَّة ما من الناس أحب إلىّ غِنًى بعد موتى منك ، ولا أعز علىّ فقرا بعد موتى منك ، وانى كنت قد نحلتك جداد عشرين وسقا ، فلو كنت حُزْته كان لك ، وانما هو اليوم مالُ وارث ، وانما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله .

قالت عائشة : يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته .. ولكن أين أختاى . إنما هى أسماء فمن الأخرى ؟ فقال أبوبكر : ذو بطن بنت خارجه (٢٣٥) أراها جارية . فكان كذلك .

قال التاج السبكى : فى هذا الخبر كرامتان لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ إحداهما : إخباره انه يموت فى ذلك المرض حيث قال : انما هو اليوم مال وارث والثانية : اخباره أن المولود الذى فى بطن زوجته بنتا .. والسر فى اظهار ذلك استطابه قلب عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى استرجاع ما وهبه لها ولم تقبضه ، واعلامها بمقدار ما يخصها لتكون على ثقة ، فأخبرها بأنه مال وارث وان معها اخوين وأختين .... ويدل على أنه قصد استطابه قلبها ما

---

(٢٣٤) نحلها : أعطاها ـ وجداد ـ بالكسر ـ : ثمرة ، والوسق : الحمل

(٢٣٥) كانت حبيبة بنت خارجة زوجة لأبى بكر ، توفى عنها وهى حامل فكانت أن وضعت بنتا

مهد به أولا من أنه لا أحد أحب اليه غنى بعده منها ، وقوله : إنما هما أخواك وأختاك ، أى ليس ثم غريب ولا ذو قرابة نائية وفى هذا من الترفق ما لا يخفى - فرضى الله عنه وأرضاه [٢٣٦]

من كرامات عمر بن الخطاب

ومن كرامات الفاروق - رضى الله عنه - انه كان قد أمَّر سارية بن حصن على جيش من جيوش المسلمين ، وخرج الجيش لقتال الفرس ، فاشتد الحال على عسكر المسلمين عند باب نهاوند وسارية يحاصرها ، وكثرت جموع الاعداء ، وكاد المسلمون ينهزمون ، وعمر - رضى الله عنه - بالمدينة ، فصعد المنبر وخطب ، ثم نادى فى اثناء خطبته بأعلى صوته : يا سارية ، الجبل ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم ، فأسمع الله - عز وجل - سارية وجيوشه وهم على باب نهاوند صوت عمر ، فلجأوا الى الجبل ، وقالوا : هذا صوت أمير المؤمنين ، فنجوا وانتصروا [٢٣٧]

قال التاج السبكى : لم يقصد عمر إظهار هذه الكرامة ، وانما كشف له ورأى القوم عيانا ، وكان كمن هو بين أظهرهم واشتغلت حواسه بما داهم المسلمين من خطب بنهاوند ، فخاطب أميرهم بصوت سمعه من فى المسجد معه وسمعه قائد الجيش ومن معه قال : ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ...... ومما يروى من كراماته : أن النيل أمسك عن الفيضان فكتب أمير مصر . عمرو بن العاص الى عمر - يخبره بذلك ، ويبلغه شكوى أهل مصر بسبب توقف الفيضان .

---

(٢٣٦) جامع كرامات الأوليا ، للنبهانى حـ ١ صـ ١٢٧

(٢٣٧) أسد الغابة لابن الأثير حـ ٢ صـ ٣٠٦

وكان أهل مصر قبل الفتح الاسلامى يلقون بفتاة فى النيل عندما يجين موسم الفيضان يسمونها عروس النيل ، وكانوا يعتقدون ان النيل لا يفيض الا بذلك فمنع عمرو بن العاص تلك العادة فلم يفض النيل فكتب الى عمر بن الخطاب يسأله الرأى ..

فكتب عمر بطاقة وأمر عمرا بإلقائها فى النيل ، وفى هذه البطاقة كتب عمر : من عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر ، أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك .

فالقى عمرو بن العاص هذه البطاقة فى النيل وكان أهل مصر قد تهيأوا للخروج منها ، فأصبحوا وقد أجراه الله ـ تعالى ـ ستة عشر ذراعا فى ليلة .

العلاء بن الحضرمى يمشى على الماء

روى أبونعيم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجت مع العلاء بن الحضرمى فرأيت منه خصالا لا أدرى ايتهن أعجب : انتهينا الى ساحل البحر ، فقال : سموا الله واقتحموا فسمينا واقتحمنا فعبرنا ، فمابل الماء إلا أسافل خفاف إبلنا ، فلما قفلنا صرنا معه بفلاة من الأرض ، وليس معنا ماء ، فشكونا اليه ، فصلى ركعتين ثم دعا فاذا سحابة مثل الترس ، قد تجمعت ثم ألقت ماءها فسقينا واستقينا ـ ثم مات العلاء فدفناه فى الرمل ، فلما سرنا غير بعيد قلنا : ربما يجىء سبع فيأكله . فرجعنا فلم نره .

والأخبار فى ذكرى كرامات أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة ومستفيضة ، وقد أولع بجمعها كثير من الرواة ـ ومن ذلك ما ذكر من

أن أبا بكر رضى الله عنه بعث العلاء بن الحضرمى على قتال أهل الردة بالبحرين ، فتلاحق به من لم يرتد من المسلمين ، وسلك بهم الدهناء ـ صحراء ـ حتى اذا كانوا فى بحبوحتها أراد الله ان يريهم آية .

فنزل إلعلاء وأمر الناس بالنزول ، فنفرت الإبل فى جوف الليل ، فما بقى بعير ولازاد ولا مزاد .. قال راوى القصة

فما علمت جمعا هجم عليه من الغم مثل ما هجم علينا ، وأوصى بعضنا الى بعض . أى قال كل منا وصيته للآخر ..

فنادى منادى العلاء : اجتمعوا ، فاجتمعنا اليه ..

فقال : ما هذا الذى ظهر فيكم وغلب عليكم ؟

فقال الناس : وكيف نلام ونحن ان بلغنا غدا لم تحم شمسه حتى نصير حديثا ؟

ـ يعنون أنهم يهلكون ويتحدث الناس عنهم ـ

فقال : أيها الناس ، لا تراعوا ألستم مسلمين ؟ ألستم فى سبيل الله ؟ ألستم أنصار الله ؟

قالوا : بلى .

قال : فأبشروا ، فوالله لا يَخْذُل الله ـ تبارك وتعالى ـ من كان فى مثل حالكم ، ونادى المنادى بصلاة الصبح حين طلع الفجر ، فصلى بنا ، ومنا المتيمم ، ومنا من لم يزل على طهوره .

فلما قضى صلاته جثا لركبتيه وجثا الناس معه ، فنصب فى الدعاء ونصبوا ، فلمع لهم سراب ، فأقبل على الدعاء ، ثم امع لهم آخر فقال الرائد : ماء .

فقام وقام الناس ، فمشينا حتى نزلنا عليه فشربنا واغتسلنا ، فما تعالى النار حتى أقبلت الابل من كل وجه ، وأناخت الينا .

فقام كل رجل الى ظهره [٢٣٨] فأخذه ، فما فقدنا منها سلكا ، فأروينا العلل بعد النهل وتروينا ثم تروحنا . .

وكان أبوهريرة رفيقى ، فلما غبنا عن ذلك المكان قال لى : كيف علمك بموضع ذلك الماء ؟

فقلت : أنا أهدى الناس بهذه البلاء .

فقال : اذهب معى حتى تقيمنى عليه .

فكررت به فأنحت على ذلك المكان بعينه ، فاذا هو لا غدير به ولا أثر للماء ، فقلت له : والله لولا انى لا أرى الغدير لأخبرتك أن هذا هو المكان ، وما رأيت بهذا المكان ماء قبل ذلك .

فنظر أبوهريرة فاذا إداوة مملوءة . فقال : يا أباسهم هذا والله المكان ولهذا رجعت بك ، كنت قد ملأت إداوتى هذه ثم وضعتها على شفير الوادى .

---

(٢٣٨) أى إلى ناقته ومتاعه

فقلت : ان كان الا منّا من المن ، وكانت آيةً عرفتها وحمدت الله عز وجل ثم سرنا حتى نزلنا هجر ، وذكر محاربتهم وانتصارهم على الكفار هناك .

ثم قال : وهرب العدو الى دارين ، فركبوا إليها السفن ، فجمعهم الله عز وجل بها ، وندب العلاء الناس الى دارين وخطبهم فقال : إن أعداء الله وأحزاب الشيطان قد تجمعوا عليكم اليوم

وقد أراكم الله من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر ، فانهضوا الى عدوكم ثم استعرضوا البحر اليهم فان الله - جل وعز - قد جمعهم به .

فقالوا : نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولا ما بقينا .

فارتحل وارتحلوا ، حتى أتى ساحل البحر ، فاقتحموه على الخيل هم والحمولة والابل والبغال ، الراكب والراجل ، ودعا ودعوا ، وكان دعاؤهم : يا أرحم الراحمين ، يا كريم يا حليم ، يا صمد ، يا محيى الموتى ، يا حىّ يا قيوم ، لا اله الا أنت يا ربنا . فاجتازوا ذلك الخليج باذن الله يمشون على مثل رملة ميثاء [٢٣٩] فوقها ماء يغمر خفاف الابل ، وبين الساحل ومنطقة دارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر ، ووصل المسلمون اليها فما تركوا من المشركين بها أحدا ، وغنموا الغنائم واستاقوا الأموال ، فبلغ من ذلك نفل الفارس من المسلمين أى عطاؤه - ستة آلاف والراجل ألفين .

---

(٢٣٩) الميثاء : الأرض اللينة من غير رمل ، وتميثت الأرض إذا أمطرت فلانت وبردت

فلما فرغوا رجعوا عودهم على يدئهم ، وفى ذلك يقول عتيق :

ألم تــر أن الله ذلـل بحــره وأنزل بالكفـار إحدى الجلائل
دَعَوْنَا الذى شق البحار فجاءنا بأعجب من شق البحار الأوائل

وقفل العلاء بالناس - أى رجع بهم - الا من أحب البقاء .

وكان بهجر راهب فأسلم فقيل له : ما دعاك إلى الاسلام ؟

فقال : ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخنى الله بعدها إن أنا لم أفعل : فيض فى الرحال ، وتمهيد أثباج البحار - اى وسطها ومعظمها - ودعاء سمعته فى عسكرهم فى الهواء من السَّحَرِ .

قالوا : وما هو ؟

قال ؛ اللهم انت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، البديع ليس مثلك شيء والدائم غير الغافل ، والحى الذى لايموت ، وخالق مايرى ومالا يرى ، وكل يوم انت فى شأن وأنت العليم الخبير . .

فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله عز وجل[٢٤٠] .

● الأدلة العقلية :

وهناك أدلة عقلية على جواز الكرامة تَرُدُّ على الذين وقفوا فى طريق جوازها ، واغلقوا باب فضل الله الذى يؤتيه الله من يشاء . . . ومن هذه الأدلة أنها منحة الرب للعبد ، والله ولى الذين آمنوا ، وهو يحبهم

---

(٢٤٠) جامع كرامات الاولياء جـ ١ صـ ١٥٣

ويحبونه ، واذا أحب الله عبدا فاض عليه من نعمائه مايريد ، وحقق لعبده ما يشاء مصداقا لقوله ـ تعالى ـ

« لهم ما يشاءون عند ربهم .

فليس هذا فى الآخرة فحسب ، بل هو فى الدنيا أيضا .

ومادام العبد قد وفى بعهد الله ، فإن الله يوفى بعهده معه تصديقا لقوله تعالى .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢٤١)

ولماذا لاتحدث الكرامة للاولياء ، والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ، وهناك من المؤمنين الصادقين الأوفياء المخلصين من هو أهل لها إن معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه ومحبة الله وطاعته كل ذلك أعظم وأشرف من أى عطاء آخر ، فإذا أعطى الله عبده المعرفة بذلك فلأن يعطيه كرامة أولى .

ومن الأدلة التى يمكن للمرء ان يستدل بها على أن الله يتفضل بالكرامة على اوليائه ما يفهم من ذلك الأثر القدسى .. فإذا أحببت عبدى كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه .

إن هذا الاثر يفيد أن مثل هذا العبد الذى تفضل الله عليه بهذه الهبات لم يبق فى نفسه ، نصيب لغير الله ، كل شيء فيه أصبح خالصا لله ، وهذه

---

(٢٤١) البقرة ٤٠

كرامة عظيمة ، يمكن فى ضوئها أن يقول صاحبها للشىء كن بإذن الله فيكون .

ومن خصه الملك بخدمته أقدره على مالايقدر عليه غيره .

والمنكرون للكرامات بدعوى أن الكرامة تسلم الى ادعاء النبوة نقول : إن هذه الدعوى مرفوضة ، فلم يَدَّعِ وَلِىٌّ من اولياء الله النبوة على الاطلاق ، بل إن الولاية شرطها الخضوع لصاحب الشريعة والسير على قدمه واتباع سنته ووجوب طاعته ـ ثم إن الولى لايباهى بكرامته ، بل يحاول إخفاءها ويعد إظهارها نقصا فى حقه ، حتى قالوا : إن الاستقامة خير من آلف كرامة . وحتى قال بعضهم : إن الولى يستحى من ظهور الكرامة . . . ومن صفاتهم التواضع ، وعدم التباهى بذلك وتفضيل غيرهم على أنفسهم . .

● **الفرق بين الكرامة والاستدراج :**

قال العلماء : ليس كل من أعطاه الله حاجته وجبها عنده ، فقد يعطى الله العبد مايريد وهو غير مقبول عنده ، وفى الأثر ان الله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب .

والمنحة التى يهبها الله لمن يشاء قد تكون إكراما للعبد ، وقد تكون استدراجا له ، والاستدراج هو ان يعطى الله العبد كل مايريده فى الدنيا ليزداد غيا وضلالا وجهلا وعنادا ويزداد بذلك عن الله بعدا ، ومن ذلك قوله تعالى :ـ

(٢٤٢)

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(٢٤٢) القلم ٤٤

والاستدراج له أسماء أخرى منها : المكر :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢٤٣)

ـ والكيد :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ (٢٤٤)

ـ والخداع : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (٢٤٥)

ـ والاملاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ (٢٤٦)

وعلامة الكرامة من الاستدارج أن صاحب الكرامة لايفرح بها ، أما المستدرج فهو يفرح بها ويستأنس بها وينتظرها ويباهى بها ويفخر . . قال تعالى ـ :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢٤٧)

---

(٢٤٣) الانفال ٣٠

(٢٤٤) الطارق ١٥ : ١٧

(٢٤٥) النساء ١٤٢

(٢٤٦) آل عمران ١٧٨

(٢٤٧) الأنعام ٤٤

● المعونة والاهانة :

أما المعونة ـ فهى أمر على خلاف يظهر على يد رجل مستور الحال ، ليس نبيا ، وليس مشهورا بالصلاح . . وهو نوع من توفيق الله للعبد فى حياته . . وأما الإهانة فعلى نقيضها . فهى تظهر على يد رجل كاذب بعكس مايطلب . كما ادعى مسيلمة الكذاب أنه يتفل فى بئر فيكثرماؤها ، فتفل فتحول ماؤهاالعذب الى ملح أجاج .

● الفرق بين المعجزة والسحر :

قدمنا عددا خاصا عن السحر ، وقلنا فيه : ان السحر هو تخييل للرائى بقلب الحقائق امامه فيراها على غير صورتها ، وهو فى الحقيقة أنواع من بينها تسخير الجن والشاطين ، ومن بينها استعمال أدوية خاصة تؤثر فى العقل . . . والفرق واضح بين ذلك وبين المعجزة .

لان المعجزات حقائق ، وهى أمور خارقة ، ولكنها على حقائقها ، فقلب عصا موسى إلى ثعبان ـ كان حقيقة واقعة ، تحولت العصا فعلا الى ثعبان مبين التقم كل ما امامه من تخيلات السحرة ولم يبق منها شيئا ، ، ومع ذلك فالعصا بقيت على حقيقتها بعد ذلك . . ويقول الشيخ محمد رشيد رضا فى ذلك : « والفرق بين معجزات الأنبياء وغيرها من وجوه التخييلات ، أن معجزات الانبياء عليهم السلام هى على حقائقها . وبواطنها كظواهرها وكلما تأملتها ازددت بصرا ، فى صحتها . ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم . . ومخاريق السحرة وتخيلاتهم إنما هى ضرب من الحيلة والتلطف لاظهار أمور لاحقيقة

لما ، وما يظهر منها على غير حقيقتها ، يعرف ذلك بالتأمل والبحث ، ومن شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره[٢٤٨]

أما الشعوذة فهى لون من خفة اليد والحيلة والبراعة فى القيام بألعاب وهمية تخطف ألباب السذج والبسطاء .

● حكمة المعجزة فى رحلة الهجرة :

ونعود بعد ذلك الى ماكنا فيه من حكمة المعجزة فى رحلة الهجرة فنقول :ـ كانت الخطة التى تمت بها رحلة الهجرة بارعة مرسومة باحكام ، ومع ذلك فقد كان للمعجزة آثار واضحة فيها كما قدمنا .

ولعل الحكمة فى ذلك هى تنبيه المشركين الى أن عين القدرة الالهية تلحظ هذا النبى الكريم وتحرسه ، فمهما صنعوا من كيد أوجمعوا من مكر فإن الله مبطله .

كانت المعجزة ـ كما يقول د / محمد سعيد رمضان البوطى ـ « بمثابة الاعلان لهؤلاء المشركين وغيرهم فى كل عصر ووقت بإن مالاقاه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه من ألوان الاضطهاد والعذاب على أيديهم مدة من الزمن فى سبيل دينه ـ لايعنى ان الله قد تخلى عنه أو أن النصر قد ابتعد عن المؤمنين .

فلا ينبغى للمشركين ؟ ان يفرحوا ويستبشروا بما يصيب المسلمين من ايذاء ، فإن نصر الله قريب ، وان وسائل النصر توشك أن تتحقق بين كل لحظة وأخرى[٢٤٩]

---

(٢٤٨) تفسير المنار حـ ٩ صـ ٥٢

(٢٤٩) فقه السيرة صـ ١٤٧

إن المعجزة هى إيناس من السماء لرسول الله ـ صلى الله عايه وسلم ـ فى مسيرته ، وشحذ قوى لهمته ، انها المصباح الأخضر الذى أنار له الطريق ليمضى قدما فى طريقه نحو هدفه ، وليست الاشارة الخضراء بمغنية عن إعداد الوسيلة للرحلة من زاد ومركب ولذلك فلم يغفل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الاعداد المناسب . . وقد كان فى إمكانه لو شاء أن يقطع المسافة بين مكة والمدينة فى غمضة غين . . ولكنه أراد ان يسلك الأسباب تعليما لأمته ، وتشريعا يسير على هديه المسلمون من بعده .

ومن حكمة هذا التشريع الذى قرره أنه لم يعلن عن هجرته كما أعلن عمر بن الخطاب مثلا . . مع أن عمر لايفوق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شجاعة أو غيره على الدين . . لقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلم المسلمين الحيلة والحذر وعدم المجازفة ، او التقليل من شأن العدو .

إن تصرف عمر رضى الله عنه تصرف شخصى ليست فيه حجة تشريعية ، اما تصرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو تشريع لامته ، ووضع خطوط عامة تسير عليها وتتبعها وتقتدى بها ، ولذلك كان لابد من التخفى والحذر والأخذ بالأسباب .

● الرسول فى قباء :

واستمر ركب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مسيرته حتى قدم قباء وذلك فى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث وخمسين سنة من مولده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك فى أشهر الاقوال .

وليس هناك اختلاف فى يوم الاثنين ، أو شهر ربيع الاول ، وانما الاختلاف فى تحديد هذا اليوم بالنسبة لأيام هذا الشهر ، فمن قائل إنه أول يوم فى الشهر ومن قائل إنه ثانى يوم فى الشهر ومن قائل انه اليوم الثالث عشر او الثانى عشر ويمكن الجمع بين هذه الروايات أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم قباء فاقام بضعة أيام حتى كان دخوله المدينة فى الثالث عشر من ربيع الاول .

ويؤكد ذلك مارواه ابن عبد البر فى الاستيعاب قال :

قال الخوارزمى : قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاجرا يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة أربع وخمسين من عام الفيل ، فكان من مبعثة الى أن هاجر ثلاث عشرة سنة كاملة ، ومكث بالمدينة عشر سنين الى أن توفى ، وذلك يوم الاثنين اول شهر ربيع الأول سنة أربع وستين من عام الفيل :

قال أبو قيس بن قيس الأنصارى :

ثوى فى قريش بضع عشر حجة ... يذكر لايلقى صديقا مواتيا
ويعرض فى اهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسرورا بطيبة راضيا
واصبح لايخشى ظلامة ظالم ... بعيد ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من جل مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
فعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعا وان كان الحبيب المواتيا
ونعلم ان الله لاشىء غيره ... وان كتاب الله أصبح هاديا

---

(٢٥٠) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر جـ ١ صـ ٣٢

وكان نزوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قباء على كلثوم بن هدم .

وهو كلثوم بن هدم بن امرىء القيس بن الحارث بن زيد من الاوس . كان يسكن قباء . ويعرف بصاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان شيخا كبيرا ، اسلم قبل وصول النبى الى المدينة .

نزل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقام عنده أربعة ايام ، ثم خرج الى أبى أيوب الأنصارى بعد ذلك .

وحين نزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كلثوم ، صاح بغلام له : يانُجَيْح . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الفأل ، فنظر الى أبى بكر وقال له : انجحت ياأبابكر وكان يحدث الناس من منزل سعد بن خيثمة الأنصارى ، ومنزله كان يسمى منزل العزاب .

وهو سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب وهو من بنى عمر وبن عوف . وهم رهط كلثوم بن الهدم أيضا .

وسعد بن خيثمة ممن شهدوا العقبة ، واستشهد فى بدر . . وقد تنافس هو وأبوه فى الخروج الى بدر ، قال له أبوه : لابد لأحد أن يقيم هنا فآثرنى بالخروج وأقم أنت مع نسائنا . فأبى سعد وقال : لو كان غير الجنة لآثرتك به . إنى أرجو الشهادة فى وجهى هذا ، فاستهما فخرج سهم سعد . فخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بدر ، فقتل ولا عقب له .

● بناء مسجد قباء :

وفى خلال الأيام الأربعة التى أقامها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قباء

بنى مسجد قباء أول مسجد جامع بنى فى الاسلام ، وفى شأنه نزل قوله تعالى :

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ (٢٥١)

وسيأتى حديث خاص ـ ان شاء الله تعالى ـ عن مساجد المدينة الثلاثة : مسجد قباء ، ومسجد الرسول ـ ومسجد الضرار .

وكانت الأيام التى قضاها الرسول فى قباء هى أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس ، من الثانى عشر من ربيع الأول حتى الخامس عشر منه . .

وتهيأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للانتقال إلى المدينة فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى بطن الوادى . .

وكان دور الدليل عبدالله بن أريقط قد انتهى بوصول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه إلى قباء .

ويمكن ان يكون قد انتهى قبل ذلك . فقد جاء فى كتاب الاستيعاب فى ترجمة أوس بن عبدالله بن حجر الأسلمى ما يروى عنه : من أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر به ومعه أبوبكر متوجهين الى المدينة بدوحات بين الجحفة وهَرْشَى وهما على جمل واحد ، فحملهما على فحل من إبله ، وبعث معهما غلاما يقال له مسعود ، فقال له : اسلك بهما مخارق الطريق حتى يصلا الى ما يريدان فسلك بهما الطريق التى سماها أوس ورجع مسعود الى سيده ، وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسعودا أن يأمر سيده أن ـ يَسِمَ الابل فى أعناقها قيد الفرس ـ وهما حلقتان ومدُّ بينهما مدا ـ

---

(٢٥١) التوبة ١٠٨

قال صخر بن مالك بن أوس ـ وهو شيخ من أهل العرج راوى الحديث : فهى سمتنا إلى اليوم (٢٥٢)

فالدليل فى هذا الخبر هو مسعود العرجى ، وربما كان يطلق عليه سعد أيضا ، فقد جاء فى ترجمة سعد العرجى أنه قال : كنت دليل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العرج إلى المدينة ..

وروى عن ابن سعد ، عن أبيه ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبابكر قد مرًا عليهم ثم ذكر حديث مسيره معهما الى المدينة فتلقاه بنو عمرو بن عوف ، ويقال لسعد العرجى هذا : سعد الأسلمى أيضا (٢٥٣) .

فعلى هذا الاعتبار يكون دور عبدالله بن أريقط قد انتهى عند وصول النبى إلى العرج ، بعد ان استبان الطريق وأمن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه ، فعاد عبدالله بن أريقط ، وأكمل سعد المهمة ، وكانت مدة الرحلة اثنى عشر يوما ..

استقبال النبى فى المدينة

وشملت الفرحة كل قلب فى المدينة المنورة . لا فرق فى ذلك بين الكبار والصغار والرجال والنساء . لقد كانوا فى انتظار هذه الساعة على شوق شديد وتعطش كبير . فحين بلغهم خروج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليهم كانوا كل يوم يخرجون الى ظاهر المدينة عند الحرة يرقبون مطلعه . ويحكى عبدالرحمن بن عويم بن ساعدة عن رجال قومه من الأنصار هذه الواقعة فيقول :

---

(٢٥٢) الاستيعاب جـ ١ صـ ١٢٢ ، والخبر فى أسد الغابة جـ ١ صـ ١٧٣ وفيه بدل دوحات : « قحداوات » وهم اسم موضع

(٢٥٣) أسد الغابة جـ ٢ صـ ٢٦٠

لما بلغنا خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة كنا نخرج فنجلس بظاهر الحرة ننتظره ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا وذلك فى أيام حارة .

حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جلسنا كما كنا نجلس ، حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا .

وقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع كل يوم واننا ننتظر قدوم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصرخ بأعلى صوته : يا بنى قَيْلة هذا جدكم (٢٥٤) قد جاء .

فخرجنا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى ظل نخلة ومعه أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ فى مثل سنه .

وأكثرنا لم يكن رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل ذلك ، وتكاثر الناس ـ وازدحموا عليه ـ وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقام أبوبكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك (٢٥٥)

وحرص كل أنصارى ان يكون له شرف نزول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنده فأقبلوا يتجاذبون زمام الناقة التى يركبها .. إنها المنافسة الشريفة المحببة ، والاستئثار المشروع المطلوب ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحسم هذا الموقف قائلا لهم فى حب منه وتقدير بالغ وود عظيم .. خلوا سبيلها فانها مأمورة ..

---

(٢٥٤) قيلة : اسم جدة من جدات الأنصار ، وجدكم : حظكم وسعدكم

(٢٥٥) سيرة ابن هشام

وبركت الناقة أم دار أبي أيوب الانصارى ـ رضى الله عنه ـ

وأبو أيوب ـ معروف بكنيته هذه ـ أما اسمه فهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبدعوف بن غنم من بنى النجار ، أخوال عبدالمطلب جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وهو ممن شهد العقبة فالمشاهد كلها بعد ذلك .. وآخى النبى بينه وبين مصعب بن عمير .

وحين بركت ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام داره كاد يطير من الفرح ، وأسرع الى رحل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحتمله الى داخل داره .

ولم يطل مقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدار أبي أيوب الا ريثما بنى المسجد وبنى حجراته حوله . ويخبرنا ابن إسحاق بهذه الأخبار فيقول نقلا عن كثير من الرواة :

« وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة فقابله اولا بنو سالم بن عوف فأخذوا بزمام الناقة وقالوا : يا رسول الله ، هلم إلى العدد والعدة والقوة ، انزل بين أظهرنا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : خلوا سبيلها فانها مأمورة .

ثم مر ببنى بياضة ، فاعترضوه وقالوا مثل ذلك ، ثم مر ببنى ساعدة فقالوا مثل ذلك ، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : خلوا سبيلها فانها مأمورة .

ثم مرَّ بأخواله بنى عدى بن النجار ، فقالوا : هلم إلينا أخوالك يا رسول الله ، فقال مثل ذلك ، فمر ببنى مالك بن النجار فبركت الناقة على باب

مسجده ـ أى فى المكان الذى بنى فيه الرسول مسجده بعد ذلك ، ثم التفتت ، ثم نهضت ، ثم كرت إلى مبركها الذى بركت فيه أولا . .

« فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها ، فاحتمل أبوأيوب رحل الرسول فأدخله بيته ، وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببناء المسجد .

ثم ان أبا أيوب حدث أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نزل فى بيته الأسفل .

قال : وكنت فى الغرفة التى تعلو الغرفة التى يقيم فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهريق ماء فى الغرفة ـ ذلك إن إناء كبيرا كانوا يضعون فيه الماء انكسر .

قال أبوأيوب : فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا نتتبع الماء شفقا أن يخلص إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فنزلت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا مشفق فقلت : يا رسول الله إنه ليس لنا أن تكون فوقك ، فرفض الرسول ومازال يتضرع أبوأيوب للنبى ان يسكن اعلى الدار حتى قبل [٢٥٦]

ومما يقصه أبوأيوب كذلك مما يدل على حب المسلمين لنبيهم والتماسهم بركته قال :

قلت : يا رسول الله كنت ترسل إلى الطعام فانظر اذا رأيت أثر أصابعك وضعت فيه يدى ، حتى كان هذا الطعام الذى أرسلت به إلىّ مرة فنظرت فلم أر أثر أصابعك .

---

(٢٥٦) دلائل النبوة جـ ٢ صـ ٥٠١

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أجل إن فيه بصلاً فكرهت أن آكل من أجل الملك ، وأما أنتم فكلوا . .

توفى أبوأيوب سنة خمسين مجاهدا فى عهد معاوية ، ودفن بالقرب من القسطنطينية ، وقبره بها يستسقون به (٢٥٧)

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أثناء دخوله المدينة يمر وقد فتحت الدور على مصارعها والتف حوله الناس يتبركون بمقدمه ، ويمسون ما اتصل به من ثوب أو رداء ، ويلتمسون بركة دعائه .

حدث ابن الاثير فى ترجمة جارية اسمها روضة قال :

حدثتنى شيبة بنت الأسود قالت : حدثتنى روضة انها كانت وصيفة لامرأة من أهل المدينة ، فلما هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت لى مولاتى : يا روضة قومى على باب الدار فاذا مر هذا الرجل ـ تعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعلميني .

قالت : فقمت على باب الدار ، فاذا هو قدم ومعه نفر من أصحابه فأخذت بطرف من ردائه فتبسم فى وجهى . قالت : وأظنها قالت : مسح يده على رأسى ، فقلت لمولاتى : يا هذه هاهو ذا قد جاء . . فخرجت مولاتى ومن كان معها فى الدار ، فعرض عليهم الاسلام فأسلموا (٢٥٨)

وجاء فى الصحيحين عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ قال : وخرج الناس حين قدمنا المدينة فى الطرق وعلى البيوت ، والغلمان والخدم يقولون : الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله . وكان البشر والفرح يعلو وجوه الجميع . .

---

(٢٥٧) اسد الغابة جـ ٢ صـ ٩٥

(٢٥٨) اسدا الغابة جـ ٧ صـ ١٢٠

وجاء فى السيرة الحلبية : عن أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة أضاء منها كل شيء وصعدت ذوات الخدور على الاجاجير [٢٥٩] عند قدومه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينشدن بقولهن : طلع البدر علينا .

وروت عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبا ياخير داع

وقال بعضهم : ان هذا النشيد الذى استقبل به صلى الله عليه وسلم ـ قد استقبل به فى أثناء رجوعه من تبوك لان ثنيات الوداع ليست من جهة القادم من مكة ، بل هى من جهة الشام . .

ولكن المشهور عن أكثر العلماء والشائع عند الجيمع ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استقبل بهذا النشيد عندما وصل الى المدينة مهاجرا من مكة . . ونقل عن كثير من العلماء : أن أى داخل الى المدينة لم يكن يدخل إلا عن طريق هذه الثنيات ، وهى فى طريق القادم من قباء . وقد دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة عن طريق قباء .

---

(٢٥٩) الأجاجير : جمع أجار وهو السطح
(٢٦٠) السيرة الحلبية حـ ٢ صـ ٢٣٤

وروى القسطلانى فى كتابه المواهب اللدنية ان ناقة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بركت أمام دار أبى أيوب خرجت جوارى بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوارٍ من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

وقد أعلن جميعا إسلامهن

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفرحتم بقدومى ؟

قلن : نعم

فقال عليه الصلاة والسلام : الله يعلم مدى فرحى بكم . . أى بمعشر الأنصار جميعا وأنتن منهم ـ قالها ثلاثا [٢٦١]



---

(٢٦١) المواهب اللدنية جـ ١ صـ ٣٦٠

تصويب الخطأ

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
١٠	١٠	ستة	سنة
١٨	٩	فيشتموا	فيشمتوا
١٨	الأخير	اله	الله
٢٦	٥	ومسكو	ومكسوّ
٢٩	الأخير	وماأرسلناك	وماأرسلنا
٣٣	٥	فا	فاستوى
٣٣	٦	ستوى	
٤٨	١٨	ودوزها	ودورها
٥٢	٨	فقال النبى	فقال للنبى



فهرس القصص القرآني

تم بحمد الله المجلد التاسع